اسُكندز ديماس (الأب)

الملكة الرهيبَة (كاترين دي مَدسيس)

رواية

تقديم ومراجعة

خالد سليمان

الكتاب: الملكة الرهيبة (كاترين دي مَدسيسُ) .. رواية
الكاتب: اسُكندز ديماس (الأب)
تقديم ومراجعة: خالد سليمان
الطبعة: ٢٠٢٣

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)
٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣
http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر
ديماس (الأب)، اسُكندز
الملكة الرهيبَة / اسُكندز ديماس (الأب)، تقديم ومراجعة/ خالد سليمان
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
٣٣٨ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولي: ٥ – ٦٨٣ – ٩٩١ – ٩٧٧ – ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع: ٥١٦٦ / ٢٠٢٣

الملكة الرهيَبة (كاترين دي مَدسيسُ)

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

تقديم

إن كاترين دي مَدسيسُ التي تصفها الرواية بالملكة الرهيبة ليست شخصية روائية اختلقها خيال الكاتب بل هي شخصية تاريخية حقيقية، وكانت كاثرين دي ميديشي ملكة فرنسا لكن دون عرش، فقد عملت على توطيد السلطة الملكية حين كانت وصية على كل من أبنائها الثلاثة الذين كانوا ملوكا لفرنسا، ومارست نفوذًا كبيرًا على كلٍ منهم،وعلى ابنتها مارجريت التي أصبحت أيضًا ملكة فرنسا، فكانت عمليا هي الحاكمة الفعلية لفرنسا لمدة ثلاثين عاما.

هكذا أصبحت شخصية درامية بامتياز، مما دفع الروائي الشهير الكسندر دوماس (الأب) وهو المعروف برواياته التاريخية، إلى تأليف رواية كاملة عنها، وكاترين دى ميديسيس أو كاترينا دى ميديشى، بحسب النطق الإيطالي لها ولدت في١٣ أبريل ١٥١٩ في فلورنسا، وهي تنتمى إلى عائلة مديشى الشهيرة وهي ابنة الأميرة مادلين دى بوربون وقد توفيت أمها عقب ولادتها بفترة وجيزة فنشأت يتيمة.

وفى عام ١٥٣٣ تزوجت من هنرى دوق أورليان، الذي أصبح ملكا عقب وفاة والده الملك فرانسوا الأول في عام ١٥٤٧، وقد انجبت كاترين منه عشرة أطفال ولكن لم يبق منهم سوى أربعة أولاد وثلاثة بنات اهتمت بتربيتهم وتعليمهم على مستوى رفيع.

وفي ١٥٥٩، توفي هنري بعد إصابته خلال مبارزة. فأصبح الابن

الأكبر لكاترين، البالغ من العمر ١٥ عامًا، ملكًا، وعندما توفي فرانسيس الثاني، أصبح شقيقه الأكبر الباقي على قيد الحياة ملكًا وكان عمره تسع سنوات فقط. هذه المرة، سيطرت كاثرين على الكثير من مقاليد السلطة، حاولت كاثرين جمع الكاثوليك والبروتستانت، لكن مذبحة فاسي، التي بدأها دوق جيز، قتلت ٧٤ بروتستانتًا فبدأت الحروب الدينية.

وبعد وفاة شارل في عام ١٥٧٤، لعبت كاترين دورا رئيسيا في عهد إبنها الملك هنري الثالث. والذي لم يستغني عن مشورتها إلا في الأشهر الأخيرة من حياتها. وقد توفيت كاترين وذلك بعد قتل هنرى الثالث بثمانية أشهر حيث وفاتها المنية في ٥ يناير ١٥٨٩.وقد تولى الحكم أحد أحفادها وهو هنرى السابع الذي نجح في إعادة تأسيس المملكة من جديد في فرنسا، وكان أكبر إنجاز ونجاح له أنه حافظ على قوة المملكة ونجاحها.

تلك هي سيرة الملكة بإيجاز، فمن هو الروائي؟

هو الكسندر دوماس هو الروائي الفرنسي الشهير ألكسندر دوماس – الأب كان اسمه عند الولادة "دوما ديفي دي لا باليتيري"، أما تسميته بالأب فترجع لرغبة النقاد ومؤرخي الأدب للتمييز بينه وبين ابنه غير الشرعي، الكسندر دوماس – الإبن، وقد منحه الأب اسمه كاملا، كما أورثه موهبته الأدبية وبراعته في تأليف الروايات والمسرحيات.

ولد ألكسندر دوماس – الأب، في قرية تدعى فيلير كوتريتس، في سانت دومينيك، في اليوم الرابع والعشرين من شهر يوليو ١٨٠٢، ووالده الجنرال ألكسندر توماس ديفي دي لابيليتيرا، وكان جده "دافي دي

لاباتري" نبيلا أرستقراطيًا شديد الثراء اشتهر بميله الشديد للمغامرة. وقد توجه الجد في أحد الأيام إلى جزيرة، ليصبح وكأنه الملك في مملكة من الزنوج الذين يعيشون في الجزيرة، وقد أنجبت له أحدى رعاياه السود – اسمها لويز دوماس – ابنه دوماس ألكسند، وفوجىء النبيل بأن مولوده يحمل لون بشرة أمه السوداء، فلم يقبل أن يحمل ابنه دوماس اسمه.

وفيما بعد عندما دارت الأيام، بعد هزيمة نابليون، رفض الحفيد ألكسندر دوماس طلب أمه بالانتساب لاسم جده الأرستقراطي، وما يتبعه هذا من حصوله على حقوقه كاملة من حيث الثروة والمكانة، مفضلا أن يحتفظ باسم دوماس المجهول. واضطر ألكسندر إلى العمل في وظائف عديدة ليؤمن قوت يومه، ومنها عمله كناسخ بأحد مكاتب موثقي العقود، وعلى الرغم من كراهيته للدراسة والتحصيل ومحاولات أمه العديدة معه لأن يكمل تعليمه الجامعي، إلا أن نهمه للقراءة كان شديدا بشكل غريب، وظهر هذا في أثناء عمله كناسخ، مما أثار استياء صاحب العمل منه، ففضلا عن انشغاله بالقراءة كان يستغل وسامته ليوقع في شباكه الفتيات الجميلات المترددات على مقر عمله. وقد ساعدته أصوله الأرستقراطية في أن يلتحق بخدمة الدوق أورليان، ومن بعده التحق ببلاط ملك فرنسا لويس فيليب.

ومع مضي الوقت ازداد ضيق ألكسندر دوماس بقريته وأوضاعه فيها تدريجيا، وشعر بأن البقاء في بلدة صغيرة كتلك التي يقيم فيها سوف يقضي على طموحاته، فرحل إلى باريس مغالبا فقره بعزيمة قوية. وهناك مضت

أيامه وكأنه يسير في مفترق طرق، فأي طريقا سيسلكه سيؤدي إلى مصير مختلف عما إذا سلك طريقا غيره، إلى أن التقى بالصدفة بأحد الممثلين الفرنسيين المشهورين أيامها وهو تالما، وقد نشأت بينهما صداقة قوية، واصطحبه معه إلى المسارح التي يمثل فوق خشباتها، ولما انجذب دوماس إلى أضواء اللمسارح وفكر أن يحول القصص التي يكتبها ويرفضها الناشرون إلى مسرحيات، شجعه تالما، وساعده على تمثيلها، ولعب دور البطولة فيها، فعكف دوماس على كتابة المسرحيات والقصص، لكن لولا قوة عزيمته لما استطاع تحقيق النجاح، فقد قُبلت إحدى مسرحياته لتمثل على المسرح الفرنسي، وبدأ التجهيز لعرضها، ثم فوجىء قبيل الموعد المحدد للعرض بسحب مسرحيته، بحجة إعطاء الفرصة لكاتب كبير في السن لم يظفر من قبل بفرصة تمثيل إحدى مسرحياته.

إلا أن هذا لم يفت في عضده، حتى انتصر في النهاية بفضل مثابرته ودأبه، فبعدها كتب مسرحية أخرى، عن هنري الثالث، تعد من بدايات الأعمال الرومانسية في المسرح الفرنسي في ذلك الوقت، وقد حققت نجاحًا ساحقًا أتاح له شهرة ساعدته في نشر كتبه وفي تمثيل مسرحياته التالية، ولم ينسَ دوماس مغامراته العاطفية في غمار بحثه عن النجاح الأدبي والأمان المادي، فقد كان يستهويه اللهو فتعددت عشيقاته حتى أشتهر بأنه دونجوان أو زير نساء.

وتواصلت المغامرات والغراميات في حياته، فانتقل من عشيقة إلى أخرى، وتدهورت صحته من كثرة السهر واللهو والعمل، كما عمل

بالسياسة لفترة، ولم يلبث أن ملها وهجرها، وفي إحدى نزواته قرر أن يكون رجل دين فالتحق بالكنيسة لفترة لم تطل ثم هجرها عائدا إلى الحياة التي يحبها، وفي عام ١٨٣٢، كانت نقطة التحول الثانية، فقد التقي بالممثلة إيدا فيرييه التي وقفت لأول مرة على خشبة المسرح لتمثيل دور البطولة في مسرحيته "تيريزا"، وكانت إيدا عشيقته في البداية، ثم أحبها وتزوجها.

كاتب الروايات التاريخية

كان الكسندر دوماس ملولا بطبعه، فلم يطق طويلا حياة الاستقرار، فانفصلا وقرر أن يكف عن كتابة المسرحيات، وأن يكرس جهده للروايات، فعاد إلى سيرته الأولى مع الغراميات والمغامرات النسائية، وفي نفس الوقت اتجه إلى تأليف قصص المغامرات ذات الأصل التاريخي، وكانت رواية "الفرسان الثلاثة" هي أولى أعماله في هذا المجال، وصدرت في عام ١٨٤٤م، وتحكي عن دارتانيان الشاب المغامر الذي يقابل الفرسان الثلاثة الذين يقومون بحماية الملك، ويعرض للمؤامرات التي شهدها ذلك العصر، وفي العام التالي أصدر جزئها الثاني بعنوان "بعد عشرين عامًا"، وكان الجزء الثالث متمثلا في رواية "الرجل ذو القناع الحديدي"، وتدور حول السجين الغامض المحبوس خلف قناع من الحديد في سجون الملك، وبها اكتملت قصة الفرسان الثلاثة.

أما روايته الأشهر "الكونت دي مونت كريستو" فقد صدرت طبعتها الأولى في عام ١٨٤٦، وفيها يتآمر فيها مجموعة من الأصدقاء على

إدموند دانتي، وينجحون في سجنه، لكنه يتمكن بعد ذلك من الهرب من السجن ويعود للانتقام خاصة بعدما نجح في العثور على كنز.

وتوالت بعد ذلك رواياته ومنها «الزنبقة السوداء» و«قلادة الملكة»، وظل يكتب حتى وفاته، لم يتمكن من إنهاء آخر رواياته "فارس سانت هيرمين" فقد وافته وفاته، وقام الباحث كلود شوب باستكمالها نظراً لتخصصه في أدب الكسندر دوماس، وتم نشر الرواية في سنة ٢٠٠٥ لتُصبح من أكثر الروايات مبيعاً، نُشرت الرواية أيضاً باللغة الإنجليزية في سنة ٢٠٠٨ تحت عنوان "الفارس الأخير".

مغادرة باريس

شهدت الفترة ما بين ١٨٤٠– ١٨٤٨ ازدهار أدبي كبير بالنسبة لدوماس، إلا أنه لم يحصل على التقدير اللائق به بين الأدباء إلا بحلول عام ١٨٨٠م، أي بعد وفاته بحوالى عشر سنوات. وكان شعوره بالظلم وعدم التقدير دافعا له على مواصلة الكتابة، فنشر بتوقيعه ما يزيد على المائة وعشرين كتابا، قيل أن عدد صفحاتها تجاوز المائة ألف صفحة، فقد ظل لسنوات طوال يكتب لمدة إثني عشر ساعة يوميا، كذلك دفعه التجاهل إلى السفر خارج فرنسا فقام برحلات إلى الشرق وزار مصر والشام، كما أقام لفترة في روسيا، وألهمته تلك الفترة أحداث روايته "سيد المبارزة"وفيها انتقد الأوضاع في روسيا وهو الأمر الذي أغضب القيصر نيكولاس الأول، فقرر منع دوماس من دخول روسيا.

كذلك تأثر الكسندر دوماس كثيرا برحلته الطويلة إلى الشرق، فقد

أتخمت مخيلة بأشياء مثل المآذن، لمعان الشموس البرتقالية فوق صحاري سيناء، أشجار النخيل الخضراء والسماوات الزرقاء الصافية، الأطلال القديمة وبصمات الحملة الفرنسية على مصر، والتي بدت ملامحها في العديد من أعماله، وتولدت عنها العديد من حكايات السفر التي نشرها في عدة كتب ومنها «خمسة عشر يوماً في سيناء»، في ١٨٣٩، و«رحلة الحاج عبد الحميد إلى المدينة ومكة المكرمة» بين ١٨٥٦ و١٨٥٧، و«جزيرة العرب السعيدة» ١٨٦٠. وفي عام ١٨٦٤ عاد دوماس إلى باريس، وظل بها حتى توفى في الخامس من ديسمبر عام ١٨٧٠م، بعد أن ترك تراثاً روائياً متميزاً مازالت الأيام تكشف لنا المزيد منه بمرورها. ودُفِن بمسقط رأسه في فيليه كوتريه في مقاطعة آن بروفانس.

وقد أدّى التغيّر في التوجهات الأدبية إلى انخفاض شعبيته. في أواخر القرن العشرين، قام باحثون مثل ريجينالد هامل وكلود شوب بدراسات أسفَرَت عن إعادة تقييم لأعماله الأدبية، كما أسفرت عن العثور على عدد من أعماله المفقودة، ومن أهمها رواية "حرب النساء". وقد تعرض دوماس في مسرحياته ورواياته لشخصيات حقيقية أثرت فيه بشكل أو بأخر، فجعلها ضمن شخوص الرواية، وإن أضاف بعض التفاصيل التي تفرضها ضروريات البناء الروائي، وقد تفوقت مسرحيات دوماس على رواياته واحتلت مكانة متميزة في سجل الأدب الفرنسي، وتنقسم المسرحية عنده إلى نوعين المسرحية التاريخية والمسرحية المعاصرة والتي أستقى أحداثها من خلال الواقع المعاصر له.

وفي عهد الرئيس جاك شيراك في عام ٢٠٠٢ أثناء الذِكرى المِئوِية الثانِية لميلاد دوماس، تم نقل رفاته في تابوت جديد مغطى بقماش مخملى أزرق، حيث تم نقله إلى مقبرة العظماء في البانثيون في جنازة رسمية نقلها التلفزيون وفي حراسة أربعة حراس يرتدون ملابس مثل ملابس الفرسان في قصته الشهيرة "الفرسان الثلاثه "كما تحول بيته خارج باريس إلى متحف.

خالد سليمان

الفصل الأول

انتهى النهار ينصرم.. واختفت الشمس وراء الأفق.. فهجر الباريسيون دورهم.. وخرجوا إلى الطرقات والشوارع وشرعوا في الزحف على قصر اللوفر،..كان القصر أشبه بشعلة متوهجة في تلك الليلة. وكانت ساحته تعج بجموع الشعب الغفيرة.. وهم يتطلعون إلى نوافذ القصر وشرفاته في مزيج من القلق والدهشة..

وكانت تلك الليلة من الليالي الخالدة في التاريخ الفرنسي. ففيها تم زواج هنري دي بوربون ملك نافار من مرجريت دي فالوا إبنة هنري الثاني وشقيقه شارل التاسع ملك فرنسا.

* * *

كان ذلك الزواج موضع دهشة الفرنسيين جميعًا.. وقد حسب الكاثوليكيون أن ملك فرنسا يلعب دورًا معينًا.. وأن في الأمر خدعة مدبرة.. ولكن الهيجونوت ضربوا بظنونهم عرض الأفق.. ورفضوا أن يصدقوا ما تلوكه الألسنة عن نوايا الملك شارل نحو ملكهم الشاب ولم يسعهم إلا أن يبتسموا ويهزوا أكتافهم إستخفافًا.

كانوا يعتقدون أن الملك شارل نسي حقده عليهم، وبغضه تذهبهم حقنًا للدماء.. وحبًا في مصلحة فرنسا.

وكانت ليلة الزفاف من أروع ليالي باريس.. فقد غصت قاعة

الحفلات الرسمية في قصر اللوفر بأعضاء البيت المالك ونبلاء المملكة وزعماء حزب الهيجونوت.

* * *

وراح دوق دانجو يتقبل ثناء زعماء الهيجونوت لما أبداه من ضروب البسالة في موقعتي جرناك ومونتكنتور وعلى شفتيه إبتسامة عريضة تدل على الرضى والإغتباط.. وأما دوق (دالنسون) فكان يقلب طرفًا حائرًا في أرجاء المكان.. والإبتسامة المغتصبة لا تفارق شفتيه..وأخذت كاترين دي مدسيس تهنئ الأمير كونديه بزواجه الحديث من مارى دي كلايف وهي بادية الفرح والانشراح..

* * *

وفي غمار هذه الجماعات المتناقضة المبادئ والمذاهب.. كان شاب في التاسعة عشرة من عمره.. حديد البصر.. أسود الشعر.. غزير شعر الحاجبين يتنقل هنا وهناك وكله آذان مرهفة لسماع كل ما يقال.كان ذلك الشاب هو هنري دي نافار.. زعيم الهيجونوت ورجل الساعة..

وهناك على قيد خطوات من ملك النافار.. وقف دوق دي جين لتحدث إلى الأميرال كولني أحد زعماء الهيجونوت..

كانا عدوين لدودين، ولكنهما طرحا عداواتهما جانبًا.. أو أنهما تظاهرا بذلك نزولًا على إرادة زعيميهما..

* * *

وفجأة فتح باب الردهة ونفذت منه العروس الفاتنة وهي تتوكأ على ذراع أخيها الملك شارل.. وتتبعها وصيفتها وصديقتها دوقة دي نيفرز..كانت مرجريت دي فالوا زهرة من زهرات الربيع المتفتحة الأكمام.. لا تتجاوز العشرين من العمر سوداء الشعر.. والعينين، دقيقة الأنف.. فتاكة النظرات.. كان جمالها يترنم به الشعراء.. وقوامها الرشيق الممشوق مثل الفنانين الأعلى في جمال التكوين.. ودقة التقاطيع..وأتفق أن ألتقت عينا دوق دي جيز بعيني مرجريت.. فغشيت وجهها سحابة خفيفة لم تلبث أن أختفت فجأة كما ظهرت.. وحل محلها إحمرار زاد الوجنتين جمالًا.

* * *

وإنتهز الدوق فرصة اللغط والهرج اللذين سادا الجميع عقب دخول مرجريت، وأعتذر لـ «كولتي» ثم تقدم من العروس فلما أصبح على قيد خطوتين منها أحنى قامته لها إحترامًا.. وقال باللاتينية.. وبصوت خافت: لقد أحضرتها معي.وركعت مرجريت على إحدى ركبتيها ردًا على تحية الدوق. وقالت هامسة:

– الليلة.. كالمعتاد..

وافترقا.. دون أن يسمع حديثهما أحد.

وحتى الزوج لم يسمع شيئًا.. إذ كان منصرفًا إلى التحديق في وجه مدام دي سوف الساحر..

* * *

ومدام دي سوف هي زوجة البارون دي سوف. وشارلوت دي بون سمبلانسي.. إحدى وصيفات الملكة كاترين دي مدسيس المقربات..

وكثيرًا ما أستعانت كاترين بجمال وصيفتها على الإيقاع بأعدائها الذين لا يجدي معهم إستعمال السم الإيطالي..

ولما كانت كاترين دي مدسيدس تكره هنري ملك نافار وتسعى للقضاء عليه وعلى حزبه.. فقد أستعانت بوصيفتها لإيقاع الملك الشاب في حبائل مدام دي سوف.. لتتمكن من سحقه كيفما أتفق..

وقد نجح التدبير أولًا.. وسقط هنري في شراك الوصيفة ولكن الوصيفة الساحرة سقطت هي أيضًا في حب الشاب، وبذلك فسد تدبير كاترين..

ولكن كاترين دي مدسيس لم تكن تعرف معنى اليأس.. وهي بعد لم تتعفف عن التصريح في مجتمعاتها الخاصة بالعلاقة المتبادلة بين وصيفتها وخطيب أبنتها مرجريت.

* * *

وتقدم هنرى من عشيقته شارلوت.. فأفسح لهما الجميع المكان، وهم يتبادلون نظرات ذات معنى..

قال هنري:

– إذن فقد جئت يا عزيزتي رغم أنهم أكدوا مرضك وإعتذارك عن الحضور.

فأجابت مدام دي سوف:

– مولاي.. يخيل إلي أن غيبتي سببت لك بعض الألم؟

– ما أقسى قلبك يا شارلوت.. أنت تعلمين أنك مصدر سعادتي.. وإحتجابك أمر لا طاقة لي على إحتماله..

فابتسمت الوصيفة.. وقالت:

– لا شك أنك تهزل يا مولاي. فأنت الآن زوج أجمل إمرأة في فرنسا.. ولم يعد بك ثمة حاجة إلى حب إمرأة مثلي.

فغشيت وجه هنري سحابة خفيفة.. وأجاب:

– أنت مخطئة.. فزواجنا سياسي محض. أو بمعنى أصح أن الدين الناشئ قد زف الليلة إلى البابا.

وأمسك قليلًا ثم أستطرد:

– أصغي إلي يا شارلوت.. إنك الوحيدة التي أحبها.. وأنا على استعداد لأن أبرهن لك على صدق قولي.

– أحقًا ما تقول؟ وكيف ذلك يا مولاي؟

– إن التقاليد تقضي بأن ينصرف الزوجان إلى مخدعهما عقب انتهاء الحفلة الساهرة مباشرة.. ولكني لن أفعل ذلك. أعني أنني سأنصرف حقيقة.. ولكن ليس إلى مخدع الزوجية وإنما إلى مخدعك الخاص.

أخذت البارونة، ورفعت إلى الملك الشاب عينين تفيضان بالحب والفرح. ثم قالت:

– مولاي.. لو أنك فعلت لكان ذلك خير دليل على حبك. فقد كادت تقتلني الغيرة لمجرد التفكير في أننا لن نجتمع بعد ذلك معًا دون ثالث.

واستطرد هنري:

– دعي خادمتك (داريول) تنتظر خلف الباب،وسأطرقه ثلاث مرات عند قدومي.. و..

وكف عن الكلام.. فقد غلب عليه الإنفعال، بينما راحت الوصيفة تجول بعينيها في أرجاء المكان.. ولم تلبث أن تبادلت مع كاترين دي مدسيس نظرة ذات مغزى..

قالت الوصيفة:

– مولاي.. سأكون في انتظار جلالتكم..

الفصل الثاني

رافق دوق دي جيز الدوقة دي نيفرز إلى قصرها.. ثم انطلق إلى داره.. وأمر خادمه أن يوافيه بخنجره وحسامه. فلما أتاه بهما، أمره بأن يتبعه، ووصلا إلى القصر الملكي في هدوء، ووقفا ينتظران عند حافة الخندق العميق الذي يحيط بالقصر

وفتحت إحدى نوافذ الطابق الأرضي.. وبرزت منها يد نسائية رفعت أحد القضبان الحديدية في سكون.. ثم ألقت للدوق بطرف حبل حريرى طويل..

فسأل الدوق في صوت خافت: أهذا أنت يا جيلون؟!

- نعم يا مولاي.. إن سمو الأميرة مرجريت في إنتظاركم.

– حسنًا..

وأشار الدوق إلى خادمه. ففك هذا أزرار معطفه وأخرج من تحته سلمًا من الحبال.. وقدمه إلى مولاه.. فربط الدوق إحدى نهايتي السلم إلى طرف الحبل.. وجذبته جيلون إليها ثم ثبتته في قاعدة النافذة.. وتسلق الدوق السلم في حذر حتى وصل إلى النافذة فقفز منها إلى الداخل.. وأعادت جيلون القضيب الحديدي إلى مكانه وأمسكت بيد الدوق وتقدمته في دهليز معتم.. انتهي إلى درج أرتقياه.. وأستأنفا السير إلى باب سري فتحته الفتاة وأشارت إلى الدوق بالدخول وألفي الدوق نفسه في قاعة إنتظار مرجريت دي فالوا..

وفي اللحظة التالية: رفع ستار حريري جميل.. وقال بصوت عذب:

– تعال..

أخذ الدوق.. ولكنه أسرع فتخطى الستار.. ونفذ إلى مخدع مرجريت دي فالوا..

بادرته مرجريت قائلة في صوت متهدج:

- أمقتنع أنت بالدليل الذي أقدمه لك الآن؟

– أي دليل يا سيدتي؟

– الدليل على أنني زوجة رجل لا يأبه بي حتى في ليلة الزفاف..

فهتف الدوق في حزن:

– أواه يا سيدتي.. ثقي أنه لابد سيفعل ما تريدين..

أطرقت مرجريت برأسها قليلًا ثم عادت فرفعته وقالت:

- هل أحضرت الرسالة؟.

فدس الدوق يده في جيب سترته، ثم أخرج صندوقًا فضيًا جميلًا دفعه إلى مرجريت.. قائلًا:

– إليك رسائلك جميعًا يا سيدتي..

فتناولت الأميرة الصندوق بلهفة وفتحته وراحت تبحث بين محتوياته.. ولم تلبث أن أفلتت شفتاها صيحة فرح..

هتفت: آه.. ها هي الرسالة المنشودة. كم أنا شاكرة لك احتفاظك بها. فلو أنها وقعت في يد أخي شارل وعرف منها أنني حذرتك يوم أن تآمر على الفتك بك بسبب حبنا المتبادل. إذن لما اغتفر لي ذلك ولسامنى سوء العذاب.

وتقدمت مرجريت من الموقد وقذفت بالرسالة إلى النيران. ولبثت ترقبها حتى تحولت إلى رماد..وكان الدوق يرقب عشيقته في صمت وأخيرًا قال:

- حسنًا يا مرجريت.. هل أنت راضية الآن..؟

– راضية! بل إني سعيدة كل السعادة. وثق أن حبي لك قد زاد الآن أضعافًا!

– مرجريت..

– صدقني يا سيدي.. فأنا الآن بحاجة إلى صديق مخلص أكثر مني في أي وقت مضى.. إنني ملكة ولكن بلا عرش.. وزوجة ولكن بلا زوج!

هز الدوق رأسه حزنًا.. وهم بالكلام.. ولكن الكلمات ماتت على شفتيه حين رأى جيلون تدخل الغرفة مهرولة ثم تقول:

– مولاتي.. إن جلالة ملك نافار في طريقه إلى هنا!!

فقالت مرجريت للدوق. وهي تدفعه إلى غرفة جانبية:

– أدخل إلى هذه الغرفة. وأرهف أذنيك لترى أنني ما زلت عند رأيي الأول.

وفتح باب المخدع. ووقف هنري دي نافار على عتبته وقد انفرجت شفتاه عن إبتسامة خفيفة جذابة.

وتقدم من زوجته وقال:

– سيدتي.. أرجو أن لا أكون قد أزعجتك.. إنني جئت لأتحدث إليك على إنفراد..

وأشار إلى جيلون بالخروج. فامتثلت الوصيفة. وأغلقت الباب خلفها.

وألقي هنري نظرة إرتياب على باب الغرفة الجانبية، فأصفر وجه مرجريت. وتهالكت على أقرب مقعد.

قال هنري وهو يجلس بجوارها:

– سيدتي.. مهما قال الناس في أمر زواجنا.. فأنا أعتقد أنه زواج موفق.. فهل أنت على إستعداد لأن تقفي إلى جانبي أمام عدوي بعد أن ربطنا الزواج بذلك الرباط الأبدي المقدس.

بدت الدهشة على وجه مرجريت.. وهتفت:

- بغير شك يا سيدي.

– صدقيني يا مرجريت. فأنا واثق أن الملك شارل يكرهني لما

يكرهني دوق دانجو ودوق دالسون وكاترين دي مدسيس.. وأخيرًا دوق دي جيز.. فهل ستقفين إلى جانبي عندما تنذر العاصفة بالهبوب؟

- ما هذا الذي تقول يا مولاي؟

فأجاب هنري باسمًا:

– إن الحقيقة ما أقر يا سيدتي. فأنت محبوبة من الملك وجميع من ذكرت فإذا أعتنيتي على الوقوف في وجوههم وإحباط مؤامراتهم ضمنت لنفسي الغلبة والفوز أو النجاة من براثنهم على الأقل في الوقت المناسب.

حاولت مرجريت أن تعترض. ولكنه لم يترك لها مجالًا للإعتراض إذ قال:

– هذا أمر مفروغ منه يا سيدتي. وأنا واثق مما أقول.. فهل أستطيع أن أعتمد عليك؟

فأجاب مرجريت على الفور:.

– نعم يا سيدي. يمكنك أن تعتمد على مساعدتي.

ومدت إليه يدها. فقبلها في احترام.. واستبقاها في يده.. وقال..

– والآن يا سيدتي. لقد زوجونا دون أن يعرف أحدنا الآخر.. ودون أن تتوثق بيننا عرى المودة والألفة. بل دون أن يستشيرونا في الأمر. وعلى ذلك فإن أحدنا لا يدين للآخر بشيء كما يدين الزوجان لبعضهما.. ولكننا حليفان. فوجب إذن أن أطلعك على الخطة التي رأيت أن أتبعها

كيما أتمكن من تذليل العقبات التي قد يضعها أعداؤنا في سبيلنا.

قال ذلك، وألقي ببصره مرة أخرى إلى باب الغرفة الجانبية. فذعرت مرجريت وصاحت في يأس:

– سيدي؟

وابتسم هنري.. فقد نجحت حيلته. وأردف:

– هذا ما أنوي عمله.. إنني..

فقفزت مرجريت واقفة.. وقبضت على ذراع زوجها ثم صاحت:

- سيدي.. أرجو أن ترجئ سماع خطتك إلى وقت آخر. إنني أشعر بدوار شديد وبحاجة إلى الهواء النقي.

فابتسم هنري ثانية. وراعه إصفرار وجه زوجته. فنهض إلى إحدى النوافذ وفتحها. واقتربت مرجريت منه.. وهمست بصوت مرتجف:

– أصمت يا سيدي.. أصمت بحق الرحمة!

فرفع هنري حاجبيه متظاهرًا بالدهشة. وقال:

– ما هذا يا سيدتي؟ ألسنا وحيدين هنا؟

- نعم.. ولكني أعتقد أن للجدران آذانًا كما يقولون.

فأجاب هنري بصوت خافت:

– حسنًا يا سيدتي. حسنًا. لقد تأكد لي الآن إنك لا تحبينني. ولكنك على كل حال إمرأة نبيلة الخلق.

– ماذا تعني؟

– أعني أنه كان في استطاعتك أن تدعيني أسترسل في حديثي، فأخون نفسي، ولكنك منعتني من ذلك.

أنني أعرف أن شخصًا يختبئ هنا. وأعرف أنك زوجة غير مخلصة . ولكنك حليف مخلص. وأنا الآن بحاجة إلى الإخلاص في السياسة أكثر مني إليه في الحب.

– سيدي!

– مهما يكن من أمر. فلنرجئ الحديث في ذلك إلى وقت آخر..

ثم رفع صوته، وقال: إني أشكرك على حسن ضيافتك.. وآمل أن تكوني الآن أحسن حالًا. طاب مساؤك.

وقبل يدها. ثم غادر الغرفة بقلب مفعم بالسرور.

* * *

وعلى أثر تلك المقابلة أنطلق هنري دي نافار إلى جناح عشيقته مدام دي سوف.

* * *

وخفت مرجريت إلى باب الغرفة الجانبية وفتحته. فاستقبلها دوق دي جيز وعلى وجهه علامات الحزن المقرون بالغيظ.

بادرها كمن يناجي نفسه:

– ها هي مرجريت قد أصبحت حليفة. وعما قريب تصبح عدوة لدودة..

– آه. إذن فأنت كنت تسترق السمع؟

– وماذا كان في استطاعتي أن افعل غير ذلك؟

– وهل كان في تصرفي ما يدعو إلى المؤاخذة باعتبارى ملكة نافار؟

– كلا. ولكنه تصرف لا يليق بك بإعتبارك عشيقة دوق دي جيز.

فأجابت الملكة في رزانة:

– سيدي. قد لا أحب زوجي. ولكن أحدًا لا يملك حق أمري بخيانته. فهل تقبل أنت أن تفشي أسرار زوجتك الأميرة دي بورسيان؟

فهز الدوق رأسه. ثم أحنى قامته للملكة وغادر الغرفة دون أن ينبس بكلمة.

الفصل الثالث

ومرت عدة أيام. وكان زعماء الهيجونوت قد لاقوا من الحفاوة والترحيب ما جعلهم ينسون الحذر والحيطة. وفي إحدى الليالي دعا الملك شارل الملك هنري دي نافار ودوق دي جيز لتناول طعام العشاء على مائدته .وفيما كانوا يتجاذبون أطراف الحديث قال شارل:

– ألم ير أحدكم الأميرال كولني؟ لقد مضى يومان دون أن أراه، مما يدعون إلى الدهشة والتساؤل.

فأجاب هنري:

- إنني اجتمعت به اليوم يا مولاي.. فقد أردت أن أستفسر منه عن بعض أتباعي الذين كانوا في طريقهم إلى باريس منذ ثلاثة أيام.

فهتف شارل في دهشة:

– ماذا؟ أتتوقع قدوم أشخاص آخرين؟ ألم يكفك أن ثمانمائة من أتباعك جاءوا إلى باريس يوم زفافك فأرسلت تستدعي آخرين؟

فأجاب هنرى باسمًا:

– مولاي.. إنهم يتحدثون عن قرب نشوب حرب بين جلالتكم وبين الفلاندرز. وأنا أجمع أكبر عدد من أعواني ليشدوا أزر جلالتكم في الوقت المناسب.

– وكم عددهم؟ وما أسماؤهم؟

- إثنا عشر.. وأما عن أسمائهم فلا أعرف غير واحد منهم يدعى دي لامول كان – تلني.

قد أثني عليه وأفرط في تفريطه.وكان دوق جيز يصغي إلى حديث الملكين في إنتباه. ورأى الفرصة سانحة لتحدي هنري. فقال:

– وأنا أيضًا أبحث عن الكاثوليكيين المخلصين في بيدمونت فصاح شارل قائلًا:

– سيان عندي أن يكونوا كاثوليك أو هيجونوت ما داموا شجعانًا.

وفتح باب القاعة في تلك اللحظة، ودلف منه رجل طاعن في السن.

هتف شارل:

– ها هو الأميرال كولني قد أقبل أخيرًا. في اللحظة التي نتحدث فيها عن الرجال والأبطال.

وسأل هنري:

– هل سمعت شيئًا عن أتباعي القادمين يا سيدي الأميرال؟

فأجاب هذا:

– نعم يا بني.. لقد وصل دي لامول إلى أورليان أمس. وغدا أو بعد غد سيأتي إلى باريس.

فصاح دي جيز في دهشة:

– يا للشيطان! لا شك أنك عراف يا سيدي الأميرال ..وإلا لما أستطعت أن تحيط علمًا بما يدور على بعد ثلاثين فرسخًا كأنه منك على قيد خطوات.

فهز الأميرال كتفيه إستخفافًا وأجاب في برود:

– سيدي. إنني لا أكون عرافًا إلا فيما يتعلق بي أو بالملك.. وكل ما في الأمر أن رسولًا جاء اليوم من أورليان وأخبرني بوصول دي لامول..

فصاح شارل في فرح:

– لك الله يا أبي!! لقن هؤلاء الصغار مزايا الحكمة إذا hقترنت بكبر السن. والآن أظن أن الوقت قد حان للانتقال إلى حديث الجيش والحرب.

فنهض هنرى ودي جيز واقفين. وأستاذنا في الإنصراف. فأذن لهما، وشيع الأميرال (هنري) بنظرة تدل على الرثاء. إذ كان يشفق عليه كلما رآه برفقة دي جيز. لما يعلمه من شعور البغضاء والكراهية التي يكنها الثاني للأول.

وكأنما أدرك شارل ما يجول بخاطر الأميرال فهتف:

– لا تخش شيئًا يا أبي. فأنا هنا أمثل السلام وأفرض الطاعة. وإني أشعر بمالي من حقوق كملك ما دامت أمي ليست ملكة. وما دام كولني قد أصبح أبي.

– مولاي..!

– هذه هي الحقيقة يا أبي. فما خلقت كاترين ألا لوضع بذور الشقاق والنزاع. وإن أردت المزيد فأعلم أنني لم أعد أثق في أحد من رجال حاشيتي القدماء. وأعتقد أن أصدقائي الجدد هم خير من أعتمد عليهم.

فتلاعبت على شفتي الأميرال إبتسامة سعيدة.. وهتف في حماس:

– مولاي.. إننا جميعًا خدام الوطن والعرش المخلصون.

– هذا ما أؤمن به يا أبي. والدليل على ذلك إنني أعهد إليك بقيادة الجيش الذاهب إلى الفلاندرز يوم الإثنين.. أما أنا فسأنتقل إلى (أمبواز).

– إذن فجلالتكم ستغادرون باريس؟

- نعم.. إني سئمت كثرة المآدب والحفلات.. فأنا لست رجل حركة وعمل وإنما رجل هدوء وأحلام.

والآن أرجو أن تسمح لي بالإنصراف لمقابلة (روسارد) أستاذي في الشعر. فأنا على موعد. أما الوثائق الخاصة بالمفاوضات الدائرة بيني وبين الملك فيليب الثاني، فسأحملها إليك غدًا.

– غدًا متى يا مولاي.

– في الساعة العاشرة. وقد أكون منهمكًا في قرض الشعر وقتئذ ولكنك تستطيع دون مساعدتي أن تجد جميع الوثائق داخل حافظة حمراء فوق المنضدة .والآن إلى اللقاء يا أبي.

– إلى اللقاء يا مولاي.

وجذبه الملك إليه. وعانقه ثم قبله فوق جبينه.. فأغرورقت عينا الأميرال بالدموع.. وانصرف لا يلوي على شيء.

* * *

وعندما تلاشى وقع أقدام كولني، تحول شارل إلى باب سري في الجدار ونفذ منه إلى قاعة أسلحته وهي أحب مكان إليه.وكانت هذه القاعة تؤدي إلى دهليز ينتهي بغرفة صغيرة، كانت فيها في تلك اللحظة إمرأة راكعة راحت تصلي بحرارة.

قال الملك في رفق: مادلين!

فرفعت المرأة رأسها. وألقت على الملك نظرة حنان وعطف.. ثم نهضت واقفة. وقالت:

- أهذا أنت يا ولدي.

- نعم يا مربيتي العزيزة. أقتربي مني.

فاقتربت منه. فقادها من يدها إلى قاعة أسلحته.

ثم سأل:

– هل جاء الرجل الذي أنتظره؟

- نعم.. إنه في الإنتظار منذ نصف ساعة يا مولاي.

– إذن جيئي به.

فغادرت المرأة الغرفة. وبقي الملك وحده. ولكن وحدته لم تطل إذ

سرعان ما فتح الباب ثانية ونفذ منه الرجل المنشود.كان القادم في الأربعين من عمره، واسع العينين، تدل نظراته الحادة على الغدر والخيانة. وأنفه مقوس كمنقار الحداة. ناتئ عظام الوجنتين، ذلك النتوء الذي ينم عن خلق شرير يميل صاحبه إلى الإجرام وسفك الدماء.

وبعد أن ساد الصمت قليلًا. قال الملك:

- هل أنت فرانسوا دي لوفييه مورفيل قائد الفرسان؟

- نعم يا مولاي..

فقال الملك في لهجة صارمة:

– أظنك تعلم أنني أحب رعاياي جميعًا. يتساوى في ذلك عندي الكاثوليكي منهم والهيجونوتى؟

فكظم مورفيل غيظه. ولزم الصمت. ولكن ثورته الصامتة لم تخف على بصر شارل الثاقب.

أستطرد الملك:

– يلوح لي أن قولي أغضبك، وذلك الشعور من جانبك هو أقل ما تستطيع أن تبديه في موقف كهذا لما هو معروف عن عداوتك للهيجونوت؟

فسقط مورفيل فوق ركبته. وغمغم:

- مولاي!.

فقال شارل وشرر الغضب يتطاير من عينيه:

– إني أعلم أنه لم تكن لك سوى رغبة واحدة في موقعة مونتكنتور. وهي أن تقتل الأمير الذي كان معي منذ قليل. ولكنك أخطأت الهدف. ومن ثم التحقت بجيش أخي دوق رانجو.. ومنه إلى فرقة مسيو دي موي.

– مولاي!

– وهو بطل من أبطال بيكاردي.

فصاح مورفيل التعس في يأس:

– رحماك يا مولاي ..

فأردف الملك في خشونة:

– كان جنديًا باسلًا، ضمك إلى جناحه ورحب بك كأبنه. وفتح لك بيته. وأواك. وسد حاجتك. وكنت تدعوه أباك. ولم تلبث أن توثقت بينك وبين أبنه دي موي الصغير عرى الصداقة.

وما نطق الملك بهذه الكلمات حتى سقط رأس مورفيل فوق صدره أما الملك فظل في مكانه جامدًا كالتمثال، والكلمات تتدفق من بين شفتيه كالسيل.. واستطرد:

– وبهذه المناسبة.. ألم يعرض عليك مسيو دي جيز مبلغ عشرة آلاف كرون لتقتل الأمير ؟

فضرب القاتل جبهته بيده.. واسترسل الملك:

– وقد حدث ذات يوم أن خرج دي موي الأب للإستكشاف على مقربة من – شفريه – وسقط سوطه من يده عفوًا. فترجل ليلتقطه وكنت أنت وحيدًا معه.. فأخرجت غدارتك وأطلقت عليه النار من الخلف.. فأرديته. ولما وثقت من موته. أسرعت بالهرب مستعينًا بالجواد الذي وهبك إياه ذلك المحسن الكريم.. ذلك هو تاريخك على ما وصل إلى علمي.. أليس كذلك؟

لاذ مورفيل بالصمت.. لم يكن في استطاعته أن ينفي ذلك الإتهام الصحيح. وشرع الملك يصفر بشفتيه لحنًا مؤثرًا كان محببًا إلى نفسه.

وأخيرًا قال شارل:

- والآن أيها القاتل.. لقد طلب إلي دي موي الأصغر أن أسلمك للعدالة كي تقتص منك. وقد كدت أجيبه إلى طلبه لولا شفاعة دي جيز. لقد طلب إلي أبن عمي أن أبقي على حياتك. ولما كنت أحترم رغبات أبناء عمومتي، فلا يسعني إلا أن أعفو عنك.

شاع البشر في وجه القاتل.. أدرك أنه نجا. فنهض واقفًا. وقدماه لا تقويان على حمله.

واستطرد الملك:

– نعم يا رجل. سأعفو عنك. لا لشيء إلا نزولًا على رغبة الدوق. الذي أعتقد أن من واجبك أن تعرب عن تقديرك لهذا الصنيع بإظهار إخلاصك وتفانيك في خدمته. ولا تدخر وسعًا في التقرب إليهK ويخيل إلى

أنني أستطيع أن أدلك على عمل جليل تكتسب به رضاه. ويزيد من محبته لك. إن للدوق عدوًا لدودًا يمر من تحت نافذته كل صباح في الساعة العاشرة عائدًا من قصر اللوفر. وهو إذ يراه.. فكأنما يرى الموت سائرًا على قدميه. فيضرع إلى الشيطان أن يتخطفه. أو يشق الأرض لتبتلعه. ذلك ماحدثني به الدوق في هذا الصباح. وهو يكاد ينشق غيظًا. فطمأنته وسريت عنه.والآن يا عزيزي مورفيل. ما رأيك في أن تكون ذلك الشيطان الذي ينشده الدوق؟

فغمغم مورفيل:

– ولكني لا أستطيع يا مولاي أن أتخطفه أو أجعل الأرض تنشق تحت قدميه.

– ومع ذلك فقد جعلتها تبتلع دي موي. فهل لازلت تحتفظ بتلك الغدارة الخالدة؟

- كلا يا مولاي. لقد فقدتها.

– إليك إذن غدارة من غداراتي.

فمد القاتل يده وتناول الغدارة. ثم سأل:

– ولكن من هو ذلك العدو يا مولاي؟

- فقال الملك في إحتقار:

- ومن أين لي معرفة ذلك؟

- إذن كيف يمكنني معرفته يا مولاي؟

– هذا سهل. فغدًا سيمر الرجل المنشود من تحت النافذة كالمعتاد وهو يحمل حقيبة حمراء تحت إبطه.

وأدار شارل ظهره للقاتل ثم بدأ يصفر لحنه المحبوب.

الفصل الرابع

وصل دي لامول إلى باريس في مساء ٢٤ أغسطس سنة ١٥٧٢. ودخل من بوابة سان مارسل. ثم أنطلق في البحث عن نزل يقضي فيه ليلته.

وقادته قدماه إلى نزل «النجم الجميل» في شارع لاربرسك.. فوقف أمامه مترددًا بين الدخول أو الإنصراف إلى غيره.

كان دي لامول شابًا في مقتبل العمر. أسمر الوجه. أزرق العينين. قصير الشارب.. يرتدي صدرية سوداء.. ومعطفًا أحمر. ويتدلى من منطقته حسام طويل.

* * *

وفجأة برز فارس آخر من الناحية الأخرى للطريق. ثم سار بجواده حتى وصل إلى النزل فوقف أمامه.

وكان القادم شابًا قوي البنية مفتول الساعدين. غزير الشعر.. يضرب لونه إلى الحمرة.. أسود العينين.. أبيض البشرة. أنيق الهندام.

وبادر القادم دي لامول قائلًا بلهجة أهالي بيدمونت:

– يخيل إلي أن هذا النزل قريب من قصر اللوفر؟ أليس كذلك يا سيدي؟ يسرني أن تتفق كلمتنا على النزول فيه.

فقال دي لامول في دهشة:

– الواقع أن هذا النزل قريب من اللوفر. ولكني لم أحزم أمري بعد على النزول فيه يا سيدي.

فرفع القادم حاجبيه دهشة.. وقال:

– يا الله ألا تشم رائحة الشواء الجميلة؟ إني أشعر بالجوع يمزق أحشائي. فهلم بنا لتشاطرني الطعام.

فقهقه دي لامول ضاحكًا. وأجاب:

– حسنًا يا سيدي.. تفضل وتقدمني.

– مستحيل.. مستحيل.. فما أنا إلا خادمك المطيع البارون أنيبال دي كوكوناس.

- وأنا يا سيدي الكونت جوزيف بونيفاس ليراك دي لامول..

– ما دام الأمر كذلك. فناولني ذراعك ودعنا ندخل معًا.

وترجل الشابان.. ثم شدا جواديهما إلى سور الحديقة.. وانطلقا إلى باب النزل.

وكان صاحب النزل واقفًا أمام الباب يتحدث إلى رجل يرتدي معطفًا كبيرًا. ويخفي ملامح وجهه تحت قبعة كبيرة ذات حواف.

ولمس كوكوناس ذراع صاحب النزل فحول هذا وجهه.. ونظر إليه شذرًا. ثم تحول إلى صاحب المعطف الكبير.. وقال:

– إلى اللقاء.. أرجو أن تطلعني على الساعة المحددة بالدقة!

* * *

وقاد صاحب النزل الشابين إلى الداخل.. وسألهما حاجتهما.. فقال كوكوناس:

– نريد طعامًا وفراشًا!

فقال الرجل..

– يؤسفني ألا يوجد الآن في الفندق غير غرفة واحدة لا تليق بكما..

فقال دي لامول:

- ومن أدراك انها لا تليق بنا. إنها تكفينا معًا.

وأمن كوكوناس على قول دي لامول. ولكن صاحب الفندق هز رأسه نفيًا وقال:

- كلا.. إنني لن أضيفكما عندي.

فانتفض كوكوناس.. وصاح في غضب: ولماذا؟

– لأخدم معكما. فإذا أجرت لكما إحدى غرف السادة تعطلت غرفتان من غرف الخدم.

فتحول كوكوناس إلى دي لامول. ونظر إليه نظرة ذات معنى.. وأخرج كليهما سوطه وتهيأ لضرب الرجل.. ولكنه لم يأبه بهما وقال في صوت هادئ:

- أكبر الظن أنكما من الأقاليم. فإن سكان باريس لا يضربون الناس بغير ذنب عنوة. ومع ذلك. فلو أنكما أصررتما على إيذائي لأستنجدت بجيراني فقابلوكما بالمثل.

فتبادل الشابان نظرة دهشة. وتولتهما الحيرة من مسلك الرجل الغريب ولكنهما لم يجدا خيرًا من تناول طعام العشاء أولًا. ومن ثم يتشاوران في أمره. وكأنما أراد صاحب الفندق أن يصلح موقفه الشاذ حيال زائريه فقدم إليهما طعامًا فاخرًا ونبيذًا معتقًا. ثم وعدهما بأن يخلي لهما إحدى الغرف.

سأل كوكوناس دي لامول:– هل أنت ذاهب إلى اللوفر يا كونت؟

– نعم. وأنت؟

– أجل. فهلم بنا إليه الآن.

- الآن.. ولكن الوقت متأخرًا

– ليكن.. فإن الأوامر التي لدي تقضي علي بالإتصال بدوق دي جيز عقب وصولي إلى باريس مباشرة.

ولم يكد صاحب النرل يسمع أسم دوق دي جيز. حتى أقترب من الشابين. وخلع قبعته. ثم قال:

- أيها السادة. يسرني وقد سمعتكما تتحدثان عن ذلك الرجل العظيم دوق دي جيز أن أحقق لكما رغباتكما.. إنني خادمكما المطيع لااوريبه.

تجهم وجه دي لامول. وصاح:

- ليس دوق دي جيز هو أعظم رجال البلاط الفرنسي.. فهنالك أيضًا هنري دي نافار. وقد جئت الليلة لمقابلته.

فأشاح لاأوربيه بوجهه عن دي لامول. وقال يخاطب كوكوناس:

– أكبر الظن أنك جئت لحضور المآدب والحفلات التي ستقام في البلاط يا سيدي؟

- نعم. ولكنني رغم ذلك أبغض من أقيمت لهم هذه المآدب لأني كاثوليكي مخلص.

وشعر دي لامول بأن الوسط الذي يحيط به لم يعد يلائمه فسأل لاأوربيه:

- ألا تعرف أين يقيم الأميرال كولني. فإني أريد أن أنطلق إلى منزله؟

فأجاب صاحب النزل وهو يهز كتفيه بغير إكتراث:

– لقد كان الأميرال يقيم في شارع دي بتسي إلى أول أمس ولكنه أنتقل من منزله. وربما كان الآن في طريقه إلى الجحيم.

فصاح الشابان معًا في دهشة:

– ماذا تقول؟ هل مات الأميرال؟

– عجبًا لك يا سيدي الكونت.. أتكون من أتباع دوق دي جيز ولا تعلم ما حدث. لقد كان الأميرال مارًا في شارع بيبربيس أول أمس عندما

أصيب بطلق ناري كسر ذراعه وبتر إصبعين من أصابع يده.. ويقال أن الرصاصة مسممة وأنه لن ينجو من الموت.

لاحت دلائل السرور على وجه كوكوناس.. والحزن على وجه دي لامول.

وقال الأخير:

– أما وقد بات متعذرًا علي مقابلة الأميرال فسأنطلق الآن لمقابلة جلالة ملك نافار في قصر اللوفر.

فقال كوكوناس:

– وسأكون رفيقك أيضًا إلى القصر ولكن لمقابلة دوق دي جيز..

وتأبط كل من الشابين ذراع صاحبه وغادرا النزل دون أن يتناولا الطعام.. وظل لاأوربيه يراقبهما حتى أختفيا عن عينيه.. ثم قال لنفسه:

– وأنا أيضًا سأذهب لأعد خنجري وغدارتي.. فإن أحدًا لا يعرف ماذا سيحدث؟

* * *

وصل الشابان إلى قصر اللوفر.. ولما حاولا الدخول أعترضهما أحد الحراس.. فقال كوكرناس أنه موفد برسالة خاصة إلى دوق دي جيز فأحالهما الحارس على أحد الضباط. وبعد أن أصغى الضابط لكوكوناس طلب إليه أن يعطيه الرسالة ليحملها إلى الدوق.

وتردد كوكوناس.. فقال الحارس:

- يا سيدي.. أعط الرسالة لمسيو دي بيسم وأنا المسئول عن إيصالها للدوق.

فلم يكد كوكوناس يسمع أسم دي بيسم حتى تهللت أساريره ودفع إليه بالرسالة.

وجاء دور دي لامول. فطلب من دي بيسم أن يحمل رسالته إلى هنري ملك نافار، ولكن الضابط هز رأسه نفيًا. وقال في برود:

– إنني لست في خدمة ملك نافار يا سيدي.

ثم دار على عقبيه وأشار إلى كوكوناس أن يتبعه.

وبقي دي لامول وحيدًا. ولكن وحدته لم تطل. إذ سرعان ما رأى فرقة قوامها مائة فارس ورئيسهم يغادرون اللوفر.

وألتفت الحارس إلى دي لامول.. وقال:

– هو ذا دي موي وأتباعه الهيجونوت. فإذا أردت شيئًا من ملك نافار فأذهب وتحدث إليه.

وتقدم دي لامول من دي موي وقدم له نفسه. وأخبره بمهمته. فقال دي موي:

– بكل سرور يا سيدي.. سآخذك إلى جناح الملك. ولكني لا أستطيع أن أعدك بمقابلته في الحال.

ونفذ الأثنان من الباب.. ثم سارا في دهليز طويل.

ووقف دي موي أمام أحد الأبواب. وفتحه. ثم قال لرفيقه:

– أدخل يا سيدي.. فهذا جناح جلالة الملك هنرى

ثم حياه وانصرف..

وأدار دي لامول عينيه في الغرفة الخالية.. وهم بمغادرتها من باب آخر لعله يجد من يذهب به إلى الملك. وفجاة فتح باب غير الذي وضع يده على مقبضه.. ودخل منه خادمان يحملان شمعدانين. تتبعهما سيدة على جانب عظيم من الجمال.

وجمد دي لامول في مكانه. فسألته المرأة في صوت عذب:

- ماذا تريد يا سيدي؟

- أريد مقابلة جلالة الملك يا سيدتي..

– ولكن الملك ليس هنا. أنه مجتمع بملك فرنسا الآن. وأنا يا سيدي ملكة نافار.. فهل تستطيع أن تطلعني على ما جئت من أجله؟

بدت الدهشة على وجه دي لامول. واستطردت مرجريت.

- تكلم يا سيدي. ولكن أسرع فإن الملكة الوالدة في انتظاري.

فمد دي لامول يده إلى جيبه وأخرج رسالة داخل غلاف حريري وقدمها إلى مرجريت.. فألقت عليها نظرة سريعة. ثم سألت:

– ألست أنت مسيو دي لامول؟

- نعم يا مولاتي. فهل بلغ أسمي المتواضع مسامع جلالتك قبل الآن؟

– نعم. فقد سمعت زوجي وأخي دوق دالنسون يتحدثون عنك..

ودست الخطاب في صدرها. ثم استطردت:

– أذهب مع أحد خدمي إلى الدهليز السفلي وأنتظر هناك ريثما يرسل جلالة ملك نافار في طلبك.

ثم غادرت الغرفة ودي لامول يكاد يلتهمها بعينيه.وتبع دي لامول الخادم إلى غرفة متسعة .ولشد ما كانت دهشته مندما وجد كوكوناس في نفس الغرفة هتف:

– يا لله. لقد قدر علينا ألا نفترق.

فابتسم كوكوناس وقال:

- لقد طلبوا إلي أن أنتظر هنا ريثما يرسل الدوق في طلبي .

وفتح الباب في تلك اللحظة.. ونفذ منه دي بيسم. وأشار إلى كوكوناس أن يتبعه. فلما صارا في الخارج. قال دي بيسم:

– عد الآن إلى النزل. فإذا جاء المساء عد إلى القصر وأنت تضع صليبًا أبيض في قبعتك. وأما كلمة المرور فهي "جيز".

– وفي أي وقت يكون ذلك يا سيدي؟

- عندما تسمع طلقًا ناريًا..

- حسنًا سأكون على إستعداد.

* * *

وفي تلك اللحظة فتح باب الغرفة ودخل منه أحد الخدم قال لدي لامول: إأن جلالة ملك نافار يطلب إليك أن تعود إلى النزل. وتنتظر هناك.. فإذا لم يرسل الليلة في طلبك فتعال غدًا. وأما كلمة المرور فهي "نافار".

* * *

وفي النزل تقابل الصديقان للمرة الثالثة .وكان كل منهما باسم الثغر متهلل الأسارير. وجلسا إلى المائدة.. وراحا يلتهمان الطعام في صمت.

الفصل الخامس

عندما كانت مرجريت دي فالوا تتحدث إلى دي لامول.. كانت كاترين دي مدسيس منفردة في جناحها تداعبا كلبها المحبوب الذي أهداه إليها زوج ابنتها هنري. وفتح باب السري في الغرفة.. وقال صوت حزين:

- كل شيء يسير من سيء إلى أسوأ.

فرفعت كاترين رأسها. ونظرت إلى القادم. ثم سألت:

– ماذا تعني يا هنري؟

فقال دي جيز:

– أعني أن الملك ألقى بنفسه في أحضان الهيجونوت الملاعين.. وإننا إذا انتظرنا ريثما يأمر بتنفيذ المشروع العظيم. فقد يطول إنتظارنا وقد لا يتحقق الحلم مطلقًا.

فقالت كاترين في هدوء عجيب:

- أخبرني ماذا حدث؟

– لقد تحدثت إلى الملك للمرة العشرين. وطالبته بأن يضع حدًا لأعمال العنف التي لجأ إليها الهيجونوت مذجرح أميرالهم. فكان رده أن هز كتفيه إَستخفافا وقال: «يا عزيزي الدوق. لا شك أن الهيجونوت يرتابون في أنك مدبر المؤامرة التي جرح فيها (أبي) الأميرال. فدافع عن نفسك.

وأما أنا فسأعرف كيف أدافع عن نفسي ضد كل إعتداء» ثم ولاني ظهره. وبدأ يطعم كلابه.

فسألت كاترين: – ألم تحاول أن تثنيه.

– نعم.. ولكنه أجابني بتلك اللهجة التي تعرفينها ثم حدجني بنظرة غريبة. وقال: (يا عزيزي الدوق. إن كلابي جائعة.. وليس في إستطاعتي أن أبقيها كذلك طويلًا).

لزمت كاترين دي مدسيس الصمت قليلًا. ثم نهضت واقفة.. وأمرت الدوق أن يتبعها إلى جناح الملك.

* * *

وبادرت الملكة الوالدة أبنها شارل قائلة:

- يا بني. لقد جئت أطلب تصريحًا بالإبتعاد عن باريس والإعتكاف في أحد القصور النائية.

فحدج شارل أمه بنظرة صارمة. وسأل:

– ولماذا يا سيدتي؟

– لأنني أصبحت هدفًا لإهانات أشياع الدين الجديد، ولأنني سمعت كذلك أنهم أهانوك اليوم.. وليس في مقدوري أن أصمت على ذلك طويلًا.

فقال شارل في صوت حاد:

– ولكنهم معذورون يا أماه.. فإن أحدهم حاول أن يقتل الأميرال.. ومن قبل قتل مسيو دي موي. فينبغي أن تأخد العدالة مجراها.

– إذا كان ذلك عين العدالة كما تعتقد.. فانتظر إذن.. وثق أن إنتظارك لن يطول حتى يقتلك البروتستانت بدعوى العدالة.

فدهش شارل.. وقال:

– لا تتعجلي الأمور يا أماه.. الهيجونوت رعاياي.. ومن الواجب علي أن أكفل لهم الحرية والعدالة كما أكفلهما لإخوانهم الكاثوليكيين.

فبدا الغضب على وجه كاترين. وأحنت قامتها لإبنها ثم غادرت الغرفة.

وتحول شارل إلى طيوره. وبدأ يطعمها وهو يقول لنفسه:..

– يا إلهي.. لو أن أحدًا جاءني يومًا وزف إلي بشرى الخلاص من أعدائي؟ إنني لا أعلم كيف أثيبه؟

وإذ ذاك سمع صوتًا يجيبه:

– ذلك سهل ميسور يا مولاي.

فدار شارل على عقبيه بسرعة كأنما مسه تيار كهربائي.. وصاح:

– أهذا أنت يا دوق؟ وهل حقًا تستطيع أن تخلصني من أعدائي جميعًا.

فأجاب دي جيز:

– نعم يا مولاي.

فهز الملك رأسه نفيًا وقال:

- وكيف يمكنك أن تقضي على عشرة آلاف بروتستانتي؟

– غدًا يا مولاي عيد سان بارثلميو. ذلك القديس الذي صلب حيًا.. ولدي من الرجال.. الحرس السويسري وألف ومائة رجل.. فضلًا عن حرس جلالتكم الخاص. وفي ذلك الكفاية. بل أكثر من الكفاية.

- إذن ماذا يدعوك يا ابن العم لأن تزعجني بهذا الحديث ما دمت على تلك القوة ؟

وتحول الملك مرة أخرى إلى كلابه.

وفتح الباب السري. وهمست كاترين دي مدسيس في أذن الدوق:

– كل شيء على ما يرام. أستمر في إقناعه حتى يرضخ.

ثم اختفت كما ظهرت دون أن يراها الملك.

قال الدوق: – ومع ذلك يا مولاي.. يجب أن أعرف رأي جلالتكم وهل ستوافقون على الخطة التي سأعمل على تنفيذها؟

فقال شارل في إصرار:

– إنني لن أسمح لكم أن تمسوا شعرة واحدة من رأس هنري ملك نافار.

– ومن قال أننا نطلب ملك نافار يا مولاي. إنه مدعو مع الأمير كونديه لزيارة دوق دالنسون الليلة..

فهز كتفيه وغادر الغرفة وهو يصفر لحنه الحزين.

* * *

عادت كاترين دي مدسيس إلى جناحها وقلبها يركض بين ضلوعها.وأمرت وصيفاتها جميعًا بالإنصراف. وبقيت منفردة من أبنتها مرجريت دي فالوا. حاولت أن تتكلم. ولكنها لم تقو على ذلك. فقد خانتها شجاعتها. وفجأة.. فتح باب الغرفة. ودخل منه هنري دي نافار.

ذعرت كاترين. ولكن سرعان ما hستردت هدوءها وقالت:

– أهذا أنت يا بني؟ هل ستتناول الليلة طعام العشاء في القصر؟

– كلا يا سيدتي. فإني مدعو لتناوله على مائدة دوق دالنسون مع أمير كونديه.

فأبتسمت كاترين، ولكنها لم تلبث أن قفزت واقفة.. وصاحت:

– من هناك؟

وفتح الباب السري وظهرت مدام دي سوف على عتبته.

وقالت:

- لقد جاء «رينيه» صانع العطور يا مولاتي.

فأرتسمت على شفتي كاترين إبتسامة عريضة. وأمرت الوصيفة

بإدخال القادم.ودخل صانع العطور وهو يحمل حقيبة.. فتحها.. فإذا بداخلها عدد كبير من زجاجات العطور. وصناديق المساحيق.

وكانت مدام دي لورين. أخت مرجريت الكبرى. قد دخلت إلى الغرفة خلف رينيه. وانتهزت فرصة إنهماك أمها في الحديث مع صانع عطورها. وأقتربت من مرجريت.. وقبضت على يدها في عنف ثم قالت هامسة:

– بإسم دوق دي جيز الذي يحاول أن ينقذ حياتك كما أنقذت حياته من قبل.. لا تذهبي الآن إلى جناحك.

فتحولت كاترين بحركة سريعة إلى أبنتها الكبرى وسألت:

– ماذا تقولين يا كلود؟

- لا شيء يا أماه. فقط كنت أبلغ رسالة من دوقة دي فيفرز الموجودة الآن في جناح دي جيز.

فنظرت كاترين إلى أبنتها في إرتياب.. وهتفت:

– تعالي هنا يا كلود ..

فأطاعت كلود.. وقبضت كاترين على معصمها بوحشية وقالت هامسة:

- ماذا كنت تقولين لها أيتها الأبنة العاقة؟

وقال هنري لزوجته:

- هل تسمحين لي يا سيدتي بتقبيل يدك قبل إنصرافي؟

ومال فوق اليد المرتعشة الممدودة إليه.. وغمغم:

- ماذا قالت لك؟

- توسلت إلي أن لا أخرج.. فبحق السماء لا تخرج أنت أيضا!..

كانت هذه العبارة كافية لأن توضح كل شيء لهنري..

واستطردت مرجريت: وهناك أيضًا رسالة جاء بها دي لامول.

فمد هنري يده.. وتناول الرسالة ووضعها في جيب صدريته.. ثم تقدم من صانع العطور. ووضع يده على كتفه. وقال:

–كيف حال العمل يا مسيو رينيه؟

فأجاب صانع العطور.. والسموم..!

- على خير حال يا مولاي.

فأردف هنري في تهكم:

– إذن تعال إلى جناحي غدًا أو بعد غد ومعك أزكى أنواع العطور.

وفي تلك اللحظة سمع الجميع صرخة مكتومة صادرة من فم مدام دي لورين.. فتحول الجميع إليها في دهشة.

وسألت مرجريت في جزع:

- ماذا حدث يا أختاه؟

فأسرعت كاترين وأجابت:

– لا شيء.. لا شيء.. إنها النوبة العصبية المعتادة.. فأرجو أن تذهبي الآن إلى جناحك يا مرجريت.

فغادرت الملكة الغرفة وهي تنتفض من الغضب والفزع.

وأما هنري فقد ولى الجميع ظهره.. وتظاهر بالنظر من النافذة.. ولو أنه كان يراقب كل ما يدور في الغرفة منعكسًا على زجاج النافذة.

وسألت كاترين:– وأنت يا هنري.. ألا تذهب؟

فأجاب هنري:

– نعم. نعم. لقد نسيت أنني على موعد. طاب مساؤك يا سيدتي..

وغادر الغرفة بخطى ثابتة متزنة. غير مفكر في الخطر الداهم الذي يهدد حياته.

وتحولت كاترين إلى وصيفتها وقالت:

أذهبي وأطلبي إلى مسيو دي جيز وتافانا أن يأتيا إلي. أما أنت فأبقي مع الدوقة دي لورين لأنها مريضة.

الفصل السادس

دي لامول وكوكوناس انتهيا من تناول طعام العشاء أقترح الثاني على الأول أن يقضيا شطرًا من الليل في لعب الورق، وقد قص كوكوناس على مسامع دي لامول ما حدث له في قصر اللوفر وكيف أنهم طلبوا إليه الحضور الليلة. عندما هم بأن يذكر كلمة المرور.. لاحظ أن لااوريبه أشار إليه محذرًا. فكف الشاب عن الكلام فجأة.

ودهش دي لامول.. ولكنه عزا صمت صديقه للخسارة التي مني بها في اللعب، فقد خسر كوكوناس ستة كرونات هي كل ما كان يملك.

قال دي لامول:

– والآن يا صديقي كوكوناس: هل تريد أن تستمر في اللعب لتثأر لنفسك؟

– بكل تأكيد.

– ولكن ألم تقل أن لديك موعدًا مع دوق دي جيز؟

فحول كوكوناس عينيه نحو المطبخ حيث وقف لااوريبه واصبعه فوق فمه محذرًا.

أجاب:

– نعم.. ولكن الموعد لم يحن بعد.

وأستانف الصديقان اللعب، فلم يبتسم الحظ لكوكوناس.. وظل على تجهمه. وفجأة حول عينيه ناحية المطبخ ولم يلبث أن هتف:

- يا لله. إن أوربيه يتحدث إلى ذلك الرجل ذو المعطف الواسع والقبعة العريضة.

وكان أوربيه قد ترك محدثه في تلك اللحظة.. وأقبل مسرعًا نحو كوكوناس وهمس في أذنه قائلًا:

- صه. تخلص من رفيقك بأسرع ما يمكن!

فألتفت كوكوناس إلى دي لامول وقال:

- سيدي، أرجو المعذرة. إنني لك الآن مدين بخمسين كرونًا. وفي ذلك الكفاية.

- كما تشاء يا سيدي..

وطلب دي لامول من صاحب النزل أن يصعد به إلى غرفته.. ثم أوصاه بأن يوقظه من نومه إذا جاءه رسول من قبل ملك نافار.

وفي تلك اللحظة دخل صاحب المعطف الكبير إلى الحانة. واقترب من كوكوناس ثم قال له:

- سيدي.. لقد كدت تفشي سرًا يتوقف عليه مصير مملكة بأسرها. فلو أنك نطقت بكلمة واحدة أكثر مما قلت لأطلقت عليك النار على الفور.

بهت كوكوناس. ونظر إلى محدثه في مزيج من الغضب والذعر.. وسأل:

– ومن أنت؟

– هل سمعت عن مورفيل؟

- آه.. قاتل دي موي الكبير والأميرال كولني.

– إنه أنا.

* * *

وسمع الرجلان صوت باب يغلق في الطابق الأول. وأعقب ذلك إغلاق باب آخر بالمزلاج. وعاد لاأورييه في تلك اللحظة.. ودقت ساعة سان جرمان إحدى عشرة دقة. وأمسك مورفيل حتى أحصى دقاتها. ثم قال موجهًا الحديث لكوكوناس:

– سيدي، لا شك عندي في إنك كاثوليكي مخلص. فهل أنت على إستعداد لأن تتبعنا إلى جيش الثروة والسعادة؟

فهز كوكوناس رأسه نفيًا.. وقال:

– كلا يا سيدي. فإن لدي موعدًا في اللوفر عند منتصف الليل.

– ونحن لن نذهب بك إلا إلى اللوفر. فإن دوق دي جيز ينتظرنا أيضًا.

وأخرج مورفيل عددًا كبيرًا من (الصلبان) البيضاء. وقدم لكل من كوكوناس ولااورييه واحدًا منها. ثم ثبت هو بدوره صليبًا في قبعته..

واستطرد السفاك:

– أصغ إلي يا سيدي. لقد تقرر أن يقوم دوق دي جيز مع المخلصين من أتباعه وفرقة الحرس السويسري بتطهير المدينة من هؤلاء الهيجونوت المشعوذين. وسنبدأ أولًا بذلك الأميرال الأحمق..

ونهض مورفيل. وتقدم من النافذة. ثم أومأ إلى كوكوناس. فلحق به.. وهناك أشار مورفيل إلى كتيبة من الفرسان. كانت تتنقل في أنحاء المدينة. وقال:

– أنظرا إلى رئيس هؤلاء الفرسان. إنه دوق دي جيز بعينه..

وأخذ كوكوناس. وامتقع وجهه. ثم سأل:

– ولكن لماذا يطرق كل باب يمر به؟

– إنه لا يطرق إلا الأبواب التي تعلوها علامة الصليب. وهي ذات العلامة التي تحملها.. وعما قليل سوف يطرقون باب النزل. فكن على استعداد لتلبية أمر الملك.

وطرق الباب في تلك اللحظة. ثم دخل دي بيسم.

قال:

- أهذا أنت يا مورفيل؟ هل أطلعت مسيو كوكوناس على كل شيء؟

فأجاب مورفيل:

- نعم يا سيدي.

– حسنًا. إنني ذاهب الآن لزيارة الأميرال.. فأبدأ والآن نضالكم في سبيل الوطن والعرش.

وانصرف دي بيسم.

* * *

ودقت ساعة سان جرمان منتصف الليل. فصاح مورفيل:

- ها هي العلامة المتفق عليها.

وأعقب ذلك طلق ناري. ثم ثان. وثالث.

أستطرد مورفيل:

– لقد حان وقت العمل. فلنبدأ. هلم بنا.

ومر كوكوناس بيده فوق جبهته المبللة بالعرق. وأحس بقلبه يغوص بين ضلوعه:

وتهيأ مورفيل للإنصراف فأستوقفه لاأورييه قائلًا:

– لحظة واحدة يا سيدي. إنني لا أستطيع أن أغادر المنزل دون أن أطمئن على سلامة عائلتي. وبالمنزل رجل بروتستانتي فوجب أن نتخلص منه قبل أن نرحل.

أنتفض كوكوناس. وأدار عينيه في يأس.. ثم صاح:

- تعني دي لامول؟

– نعم. يجب أن تقتله أولًا.

حاول كوكوناس أن يعترض، ولكن مورفيل صاح في وجهه:

– قد يكون دي لامول صديقك.. ولكن ثق أن صداقتكما لن تجديه شيئًا.. فإن نحن لم نقتله.. قتله غيرنا.

فسقط رأس كوكوناس فوق صدره.. ولم يحر جوابًا.

وأندفع ثلاثتهم إلى الدرج.. وأرتقوه.. وأمام باب غرفة دي لامول وقفوا برهة ينصتون.واستجمع لااوربيه قواه. وأنقض على الباب بكتفه.. فنحطم.

* * *

كان دي لامول متحصنًا خلف الفراش.. وحسامه بين أسنانه. وفي كلتا يديه غدارة محشوة.

ووقف الجميع على عتبة الباب.. وكأنهم سمروا في أماكنهم وصاح دي لامول في صوت متهدج:

– آه أيها الأوغاد.. لقد جئتم لتذبحوني.. فتقدموا إن كنتم تملكون الشجاعة الكافية لذلك.

فأطلق لااوربيه غدارته.. ولكن دي لامول ركع على ركبتيه بسرعة فأخطأه المقذوف.

صاح: – المعونة يا مسيو كوكوناس!

فأجاب كوكوناس في صوت حزين:

- يؤسفني ألا أستطيع مساعدتك يا مسيو دي لامول. وكل ما بوسعي أن أشير عليك به هو أن تحاول الهرب فقد صدر الملك أمره بإبادة جميع الهيجونوت في هذه الليلة.

- يا لكم من خونة! سفاكين!.. حسنًا.

ثم أطلق غدارته. فقفز لاوربيه جانبًا، وأصاب المقذوف كتف كوكوناس.

صاح المصاب وهو يصرف بأسنانه غضبًا:

– يا للشيطان! لقد أصابني المقدوف. ولكني سأكيل لك بنفس كيلك. وأستل حسامه وتهيأ لدخول الغرفة.

* * *

سقط في يد دي لامول.. وأدرك أنه هالك لا محالة. فأندفع إلى غرفة جانبية وأغلق الباب خلفه.

* * *

وعندما نجح مورفيل ورفيقاه في تحطيم باب الغرفة. ودخولها لم يجدوا فيها أحدًا.

كان دي لامول قد تسلق إلى سطح المنزل. وتمكن إلى الفرار.إستولى الغضب على كوكوناس، وهم باللحاق به. ولكن مورفيل منعه قائلاً:

– حذار يا سيدي. فإننا في الطابق الرابع. ولا شك أن الهارب قد سقط من حالق ودق عنقه.

والآن هلم بنا إلى منزل الأميرال كولني.

* * *

وعندما وصلوا إلى شارع بيتسي حيث يقع منزل الأميرال رأوا جمهرة كبيرة من الأهالي والجنود. وكان دوي الرصاص يصم الأذان.ورأى كوكوناس رجلاً عاري الرأس يعدو بكل قواه فصاح هذا بروتستانتي لابد من قتله. واندفع في أثر الهارب. واستطاع اللحاق به. إذ كان جريحًا. وتهيأ لإطلاق النار عليه. عندما سمع صوت طلق ناري صادر من الخلف. ثم سقط الهارب مجندلاً.

كان لا أورييه هو الذي أطلق النار.

وصاح القاتل:– حذار يا مسيو كوكوناس.

فوثب كوكوناس إلى الخلف. كان الجريح قد أستجمع قواه، وهم أن يطعن كوكوناس في ظهره إنتقامًا.

فهتف كوكوناس في غضب:

– يا لك من أفعى.

ودفن حسامه في صدر التعس

* * *

واستقبل محاصر ومنزل الأميرال أبطالنا الثلاثة بالصياح والتهليل، وقد رأى كوكوناس نفرًا من الرجال يحيطون برجل يتكئ على حسامه ويرسل بصره إلى شرفة قصر الأميرال.

وسمعه يغمغم قائلاً:

– ألم يجدوه بعد

فانتفض كوكوناس، وعرف في المتكلم الدوق دي جيز

وفجأة. فتح باب الشرفة. وأنبعثت من داخل المنزل صيحات التهليل والفرح! ورأى الواقفون في الساحة فريقًا من الرجال يخرجون إلى الشرفة وهم يحملون فيما بينهم جثة رجل.

وصاح صائح: أرجعوا إلى الوراء.

فتقهقر الجميع. وعندئذ صاح الرجل للمرة الثانية:

– إليكم جثة الأميرال!

وقذفوا بها إلى الشارع .

وتقدم الدوق من الجثة، ووضع قدمه فوق صدرها. وهو يقول في زهو:

– هأنذا قد انتقمت منك أخيرًا يا قاتل أبي.

وإختلجت الجثة اختلاجة عنيفة، وفتح البطل البروتستانتي عينيه.. وقال:

– لن يمضي وقت طويل حتى يضع أحد السفاكين قدمه فوق صدرك يا هنري دي جيز. إنني لم أقتل أباك.. فلتحل عليك اللعنة.

ثم أسلم الروح..

وانتفض الدوق.. ولكنه تولى عنه.. وصاح في جنده:

– والآن إلى العمل أيها الأصدقاء.

وفي هذه اللحظة ارتفعت صيحات ثاقبة صادرة من داخل منزل الأميرال ثم فتح باب الشرفة للمرة الثانية. وبرز منه رجلان.. قفزا فوق الحاجز.. وهما بالقفز منه إلى الشارع.. ولكن أحدهما أصيب بمقذوف ناري قضى عليه.. أما الآخر فإنه وثب إلى الشارع في جرأة وبغير وجل..

ورددت الساحة أصوات الجمهور الغاضب: أقتلوه! أقتلوه

ولكن الهارب ألتقط حسامه غير آبه بهذه الأصوات. ثم أطلق ساقيه للريح.

وكان كوكوناس قد تأهب لإعتراض طريق الهارب، فعاجله هذا بضربة من مقبض سيفه جعلته يصرخ من الألم.

وهتف الهارب: يالك من جبان!

فصاع كوكوناس في ذعر: مسيو دي لامول؟

ووثب كثيرون في أثر دي لامول، وهم يمطرونه بوابل من الرصاص دون أن يصيبوه..

* * *

واستطاع دي لامول أن يفلت من أعدائه، بالعدو في الأزقة والمنعطفات العديدة المتعرجة.. ولكنه شعر أخيرًا بأن قواه تخور تدريجيًا. وأن رئتيه توشكان على الإنفجار.. فهدأ من سرعته قليلاً ريثما يلتقط أنفاسه.. ثم أستأنف العدو.

ووصل إلى قصر اللوفر.. فعول على أن يستنجد بهنري ملك نافار واندفع إلى الباب، وأخترق نطاق الجنود، دون أن يعبأ بالطعنة الشديدة التي أصابته في جنبه.. ولا بالصيحات الحادة التي كانت تنبعث من خلفه. ونجح في الوصول إلى جناح هنري دي نافار.. فألقى بنفسه على الباب وطرقه بكل قوته.

وسمع صوتًا نسائيًا يقول من الداخل: من بالباب؟

فغمغم دي لامول في يأس:

– أفتحوا بحق السماء.. إنهم آتون.. فإني أسمعهم!

ثم نطق بكلمة المرور.. ففتح الباب على الفور.. وأندفع الشاب إلى الداخل دون أن يلقى ببصره إلى جيلون..

وأنطلق من غرفة إلى أخرى، حتى وصل إلى غرفة الضوء، يتوسطها فراش قد أسدلت فوقه ستائر من الحرير وخيوط من المخمل.

وسقط دي لامول على ركبتيه أمام مرجريت وهتف في لهجة القانط:

– مولاتي.. إنهم يذبحون أخواني.. وهم يطلبونني لهذا الغرض فأنقذيني بحق السماء.

ذعرت الملكة لمرأى ذلك الرجل الأشعث.. والدماء التي تقطر منه فأخفت عينيها خلف يديها.. وصاحتفي طلب النجدة.

وفتح الباب في تلك اللحظة.. وظهر على عينيه نفر من الرجال وهم يحملون السيوف والرماح والغدارات.. ووجوههم مسودة من دخان البارود وعليهم طابع القسوة والوحشية.كانوا أشبه بالنمور الهائجة، المتعطشة إلى الدماء.

هتف كوكوناس: آه. لقد عثرنا عليه أخيرًا.

وأدرك دي مول إنه هالك، فتلفت حوله، عله يجد مخرجًا. ولكن دون جدوى.

ووثبت إلى رأسه فكرة جريئة. فمد ذراعيه وعانق مرجريت.. وجعل منها حاجزًا بينه وبين مهاجميه.

وتقدم كوكوناس.. وكان الذعر قد أخذ من مرجريت كل مأخذ فدفعت دي لامول نحو أريكة تستند إلى الجدار. فتعثر وسقط، وسقطت فوقه.

ومال دي لامول برأسه فوق كتف مرجريت، وهتف في يأس:

– مولاتي.. أنقذيني!

ثم أغمى عليه.. فتراخت ذراعاه. وسقطتا إلى جانبيه ثم هوى إلى الأرض والدماء تنزف من جراحه بغزارة.

نهضت مرجريت واقفة، وهي مصفرة الوجه، مرتجفة الأوصال وصرخت في المهاجمين تأمرهم بالأنصراف.

وفتح باب جانبي في هذه اللحظة. ثم نفذ منه شاب في السادسة عشرة من عمره. يرتدي معطفًا أسود. وشعره غير مرتب.ولم يكد كوكوناس ورجاله يرون القادم حتى تراجعوا إلى الخلف وهتفوا في ذعر:

– دوق دالنسون. دوق دالنسون!

فأجال الدوق طرفه حوله.. فهاله إمتقاع وجه أخته، والدماء التي تلطخ ثيابها.. وظن إنها جريحة.. فتحول إلى المهاجمين، وصاح فيهم وشرر الغضب يتطاير من عينيه:

– أيها الأوغاد.. هل ستقتلون أختي؟ إلي يا رئيس الحرس.. إلى.. وأشنق جميع هؤلاء الأنذال

فكنص الجميع على أعقابهم وولوا مدبرين..

* * *

كانت مرجريت قد أنتهزت الفرصة، وألقت أحد الأغطية فوق دي لامول.. فلم يره أخوها..وقد أراد الدوق أن يستفسر من أخته عما حدث، ولكنها أستطاعت أن تصرفه بلباقة.

وعندما أغلقت جيلون الباب خلف الدوق.. أسرعت مرجريت برفع الغطاء عن دي لامول ووضعت يدها فوق قلبه، فأحست به ينبض..وانتفض الشاب.. وتأوه.. ثم فتح عينيه..

فهتفت مرجريت في فرح: شكرا لله.. إنه لا يزال حيًا. فغمغم دي لامول وهو يحدق في وجهها:

– أواه يا مليكتي!

ثم أغمض عينيه.. وعاوده الإغماء.

الفصل السابع

ألتقى كوكوناس ولا أوربيه بمورفيل وثلاثة من رجال الحرس السويسري عقب خروج الأولان من قصر اللوفر. وبعد أن تبادل الجميع الرأي فيما بينهم.. صحت عزيمتهم على التوجه إلى منزل دي موري عدو مورفيل اللدود لتصفية الحساب بينهما وتنفيذًا لأمر الملك!

وقبل كوكوناس الانضمام إليهم لأن أباه كان قد عهد إليه بإيصال مبلغ مائة جنيه، هو دين عليه لأحد البروتستانيين واسمه لامبرت مركاندون. ويقطن بمنزل مواجه لمنزل دي موي.

* * *

ووصل الجميع إلى الساحة، فألفوها تسبح في جو من السكون والهدوء.ورأى كوكوناس نورًا وهاجًا ينبعث من قصر فخم يطل على الساحة فتملكته الدهشة.. وسأل مورفيل عن صاحب القصر فأجابه هذا بأنه دوق دي جيز.

وأتفق مورفيل مع لاوربيه على أن يذهب الأخير ويطرق باب منزل دي موي. ثم يسأل عنه.. فإذا قابله أطلعه على الحوادث التي تجري في المدينة.

وختم مورفيل حديثه قائلاً:

– ولما أعلمه عن شجاعة دي موي.. أعتقد أنه سيبادر بالخروج

لمساعدة إخوانه الملاعين، وبذلك تحين لنا الفرصة للقضاء عليه.

وتقدم لاورييه من الباب، وطرقه بعنف، ففتحت إحدى نوافذ الطابق الأول وبرز منها رأس رجال عار

سأل: – من هناك؟

فقال لاورييه في نغمة حزينة:

– أواه يا مسيو دي موي.. ألم تصل إليك الأنباء بعد. يا إلهي لقد قتلوا الأميرال، وهم الآن يعملون الذبح والتقتيل في إخواننا في الدين فأسرع لنجدتنا بالله يا سيدي.

فهتف دي موي:

– حقًا.. لقد كنت أتوقع شيئًا من ذلك.. وكان يجب ألا أترك إخواني.. حسنًا.. إنني قادم.. فأنتظرني.

ثم أنسحب إلى الداخل. فبرز مورفيل وكوكوناس ومن معهما من جوف الظلام.. وأستلوا سيوفهم وغداراتهم.. وتجمعوا أمام الباب أستعدادًا للأنقضاض على دي موي عند خروجه.

وسمع المتربصون صوت المزلاج وهو يجذب.. ثم رأوا إمرأة تظهر في الشرفة.. ولكنها لم تلبث أن صاحت في ذعر عندما رأت المتربصين:

– عد.. عد فإنني أرى سيوفًا تلمع وغدارات مسددة! حذار من الخيانة.

فقال دي موي من الداخل:

– حقًا.. إذن دعونا نرى ما معنى ذلك؟

ثم أغلق الباب على الأثر. فتراجع المهاجمون حانقين.. وأعد لاوريية غدارته. وانتظر.

ولم يطل إنتظارهم.. فسرعان ما خرج دي موي إلى الشرفة وهو يحمل غدارتين ثم أجال ببصره في أنحاء الميدان.. وصاح:

– هأنذا أيها الأصدقاء.. فماذا تريدون مني؟

وساد الصمت.. وكان كوكوناس قد أعجب بشجاعة دي موي.. فتقدم إلى وسط الميدان.. وأجاب:

– سيدي.. إننا لم نجيء لقتلك غيلة وغدرًا. ونحن على إستعداد لمبارزتك.. هيا أيها الرفاق.. مورفيل.. تقدم بدل التقهقر فإن السيد على استعداد للمبارزة.

فصاح دي موي:

– مورفيل.. قاتل أبي، وأجير الملك! يا الله.. نعم إنني أقبل .

ثم صوب غارته إلى مورفيل.. وأطلق النار.. ولكنه أخطأه وأصاب المقذوف أحد الجنود السويسريين فأرداه قتيلاً

وساد الهرج وعلت الضوضاء، ففتحت نوافذ المنازل المطلة على الميدان وأطلت منها رؤوس كثيرة.

وصاح دي موي:

– النجدة! النجدة يا عزيزي مركاندون.

وفتحت نافذة في منزل مقابل. وأطل منها رجل طاعن في السن وصاح:

– أهذا أنت يا موي؟ تشجع فإنني قادم لنجدتك.

وهتف كوكوناس في فرح:

– مركاندون! حسنًا. لقد حان الوقت لتصفية الحساب الذي بيننا.

وكان مورفيل قد جمع رجاله في تلك الأثناء، وأنقض على دار دي موي وأشعل فيها النار.

أما كوكوناس، فقد عاد أدراجه ورفع أحد أحجار الرصيف وأنقض به على باب منزل مركاندون محاولاً تحطيمه.

وخرج دي موي في تلك اللحظة. وسيفه في يده اليمنى. بينما كان يطوق بذراعه اليسرى إمراة نصف عارية، على وشك الإغماء.

وإلتحم دي موي مع السفاكين في معركة حامية. وكان الشاب شجاعًا ماهرًا في إستعمال الحسام، وسرعان ما أخترق سيفه صدر لاورييه، وصرخ التعس على أثرها صرخة مروعة. ثم سقط على الأرض مضرجًا بدمائه.

وإشتدت الضوضاء. فأنتهز دي موي الفرصة، وأفلت من مهاجميه.

* * *

وبقي كوكوناس وحده. لقد لاذ مورفيل أيضًا، الفرار، عندما ظهر دي موي في الميدان. وفتح باب منزل مركاندون في تلك اللحظة. ونفذ منه الرجل الشيخ، يتبعه ولدا أخيه وابنه.

ورأى كوكوناس الخطر المحدق به.. فقفز إلى قصر دي جيز، واعتصم بجدرانه.. ووقف على قدم الإستعداد.

قال في تهكم: أهذا انت يا عزيزي مر كاندون؟ ألا تعرفني؟

فقال الهيجونوتي الشيخ:

– أيها التعس! إنني أعرفك جيدًا.. أتساعد أعدائي، على الفتك بي وأنا صديق أبيك؟

– إني ما جئت إلا لتصفية الحساب الذي بينكما.

وبضربة واحدة من حسامه، فصل كوكوناس رسغ أقرب الشبان إليه وكان يتهيأ لطعنه.

وصرخ الشباب التعس صرخة مؤلمة ثم خر على الأرض مغشيًا عليه.

وفتحت النافذة التي كان كوكوناس يقف بأسفلها في تلك اللحظة. قفز هذا جانبًا خشية أن يهاجم من الخلف..

لشد ما كانت دهشته مثلما رأى أمرأة بارعة الجمال تبرز من النافذة.. ثم ألقت إليه بباقة من الورد.. وقالت:

– أحذر لنفسك أيها الكاثوليكي الشجاع؟

فأنحني كوكوناس وألتقط الباقة.. فأنتهز أحد الشابين الباقيين الفرصة وطعن كوكوناس في كتفه.

وصرخت المرأة الجميلة محذرة.. فشكرها كوكوناس بإيماءة من رأسه.. ثم أنقض على الشاب المسكين ودفن حسامه في عنقه.

هتفت المرأة: – يا لك من فارس باسل. تشجع وسأرسل اليك النجدة.

فقال كوكوناس:

– لا تزعجي نفسك من أجلي يا سيدتي إن الكونت أنيبال دي كوكوناس لا يخاف هؤلاء الهيجونوت الأوغاد. وبحسبك لن تبقي لتشاهدي بعينيك ماذا سيفعل بهم.

وأنقض على أبن مركاندون كالوحش الضاري. ورفعه بين يديه ثم قذف به إلى الأرض. وجثم فوق صدره.

وأدرك مركاندون الشيخ أن ابنه هالك لا محالة، فراح يتضرع إلى كوكوناس أن يرحمه، ويبقي على وحيده، واعدًا إياه بكل ما يملك من ثروة ومجوهرات.

فقالت المرأة الجميلة تخاطب كوكوناس:

– وأنا على أستعداد لأن أهبك حبي أيها الفارس الجميل.. وتوقف كوكوناس ونهض عن غريمه وهو يوازن بين العرضين، وأخيرًا غمغم:

– كلا.. يجب أن يموت هذا الشاب، وأبوه.

فتحول الشيخ إلى المرأة، وقال في ضراعة:

– مولاتي الدوقة.. أعفي عن وحيدي!

فقالت الدوقة:

– إني على أستعداد لأن أعفو عنه وعنك أن أعتنقتم الكاثوليكية

فركع الأب إلى جوار الأبن، وبدأ يقرآن صيغة الإعتراف الكاثوليكي في صوت خافت.. وأنتهز أبن مركاندون الفرصة، ومد يده، وقبض على حسامة في هدوء..

ورآه كوكوناس، فوثب إليه وهو يصيح: أيها الخائن ودفن حسامه في عنقه. فصرخ الشاب من الألم، ثم سقط فوق ركبتيه. وأنكفا على وجهه، وأسلم الروح..

وسمع الجميع صرخة حادة صادرة من شرفة منزل مركاندو وأعقبها صوت نسائي يقول في حزن:

– أيها الوغد! لقد قتلت ولدي

كانت المتكلمة زوجة مركاندونورفعت الأم المسكينة وعاء من أوعية الزهور. وألقت به فوق رأس كوكوناس. فترنح هذا. ثم هوى في مكانه مغمى عليه.

وفتح باب قصر دوق جيز في تلك اللحظة. وبرزت منه الدوقة وبعض الجنود، وحملوا كوكوناس، وقفلوا راجعين إلى القصر.

الفصل الثامن

أفاق دي لامول من إغمائه، فعاونته مرجريت على النهوض ثم أدخلته غرفة صغيرة مجاورة لمخدعها.وأمرت الملكة وصيفتها جيلون أن تأتيها بصندوق عقاقيرها، فهرولت الوصيفة من الغرفة. وجثا دي لامول على ركبتيه عند قدمي المملكة وهتف في لهجة تدل على الشكر العميق

– مولاتي. إنني أفضل أن أموت على أن تلطخي يديك الجميلتين بدمائي!

وأراد أن يقرن القول بالعمل. وحاول النهوض. ولكنه كان أضعف من أن يستطيع الوقوف على قدميه. وسقط على الأرض فاقد الوعي .

وعادت جيلون تحمل الصندوق المنشود. ووعاء به ماء، وضمادات. وفتحت مرجريت صدريه الشاب. وأمرت جيلون بغسل الجراح. ثم فتحت صندوق العقاقير وتناولت منه (إبرة) طبية. وراحت تخيط الجراح في مهارة.

غمغمت جيلون: – مسكين هذا الشاب!

فسألت مرجريت في صراحة:

– ألا ترين إنه جميل!

– نعم يا مولاتي.. أرى أن ننقله إلى الفراش حتى يشعر ببعض الراحة التي هو في حاجة ماسة إليها.

وتعاونت المرأتان، وحملنا دي لامول.. ومددتاه فوق إحدى الأرائك بجانب النافذة..

وفتح الشاب عينيه.. وغمغم بضع كلمات غير مترابطة.. ولكن مرجريت منعته من الإسترسال بإشارة من يدها.

وسمع ثلاثتهم طرقًا عنيفًا على الباب الخارجي الموصل لجناحي الملك شارل والملكة كاترين دي مدسيس، فذعرت مرجريت، ولكنها أستعادت رباطة جأشها بسرعة، وأمرت جيلون بالبقاء مع الجريح ثم هرولت إلى الخارج بعد أن أغلقت بابها بالمفتاح.

وفتحت مرجريت الباب الثاني، ولكنها لم تلبث أن أرتدت عنه وهي تصيح بلهجة تدل على الحقد والبغضاء:

– مدام دي سوف، مدام دي سوف!

فأجابت القادمة في ذلة: – نعم يا مولاتي؟

وسقطت على ركبتيها.. وأستطردت:

– مولاتي.. إني أعرف مبلغ جرمي، وأعترف بأني أستحق بغضك وأحتقارك.. ولكني أضرع إليك أن تطرحيهما عنك في هذه اللحظة العصيبة..إنني أبحث عن جلالة ملك نافار، لأنهم يذبحون الهيجونوت.. وينكلون بهم أشد تنكيل.

فدهشت مرجريت.. وسألت:

– يالله! لقد نسيت ذلك.. ولكني على كل حال، أعتقد أن الملوك لا يتعرضون لما يتعرض له رعاياهم..

– بل يتعرضون لأكثر مما يتعرض له رعاياهم.. فقد أقسمت الملكة الوالدة أن توردە موارد التهلكة.

فصاحت مرجريت في ذعر:

– أحقًا تقولين؟

– نعم يا مولاتي. فبحق السماء أنقذيه قبل أن يفتكوا به

فمدت مرجريت يدها، وأنهضت مدام دي سوف. وشدت على يدها في حرارة وقالت:

– أطمئني فقد تعهدت بحمايته، وسأنطلق الآن إلى أمي لأسألها الإيضاح.

فقبلت مدام دي سوف يد مرجريت، وعادت إلى غرفتها.

* * *

وسارت مرجريت إلى جناح كاترين دي مدسيس. ولشد ما كادت دهشتها عندما رأت الجنود يملأون الردهات. وهم معفرو الوجوه. ملطخوا الثياب بالدم.

حاولت أن تدخل إلى غرفة أمها، ولكن الحراس تصدوا لها ومنعوها من ذلك، وتصادف أن فتح باب الغرفة في تلك اللحظة. وخرج منها دوق دي جيز، فأسرعت مرجريت إليه وصاحت:

– أواه يا هنري! أين ملك نافار.

فتلاعبت على شفتي الدوق إبتسامة ماكرة، وهز كتفيه إستخفافًا ثم أنطلق في سبيله دون أن يجيب.

وتحولت مرجريت إلى رينيه صانع عطور كاترين دي مدسيس.. وكررت السؤال.

فأجابها الرجل بقوله:

– أنت تعلمين يا مولاتي أن جلالة ملك نافار ليس صديقي، فهو يجرؤ على إتهامي بالتآمر مع جلالة الملكة الوالدة على قتل أمه بالسم.

ثم تولى عنها معرضًا. وأنصرف.

وسقط في يد مرجريت وتولاها الحنق.. فانطلقت إلى جناح أخيها الملك شارل. ولكنها لم تصادف نجاحًا هنالك أيضًا، فقد أعتذر لها الضابط المختص من عدم إستطاعته إدخالها على الملك. وقال أن لديه أمرًا صريحًا بمنع الجميع من الدخول بغض النظر عن الأشخاص والأسباب.

غمغمت مرجريت في قنوط:

– يا إلهي! لقد هلك.. نعم.. نعم.. لقد أدركت الآن كل شيء إنهم أتخذوا مني طعمًا لقضاء مآربهم.. ولكني لن أتراجع عن إنقاذ زوجي ولو لاقيت حتفي .

وانطلقت في الدهاليز على غير هدى، ولكنها لم تلبث أن وقفت أمام باب صغير، إذ سمعت صوتًا حزينًا يردد ترنيمة دينية..

عاودها الرجاء، وهتفت:

– آه.. هذه مادلين مربية أخي.. إنها هي التي تستطيع مساعدتي.

ثم طرقت الباب.

* * *

أنطلق هنري دي نافار على أثر التحذير الذي تلقاه من زوجته مرجريت فى غرفة كاترين دي مدسيس إلى جناحه الخاص.. وهناك وجد جماعة من أتباعه في إنتظاره.وقضي الملك ساعة مع أتباعه في الحديث.. ثم جاءه ضابط وطلب إليه أن يرافقه إلى جناح الملك شارل،لأن الملك يريد مقابلته.

وقاد الضابط ملك نافار إلى غرفة الإنتظار الملكية.. وبقى هناك ساعتين في الإنتظار لم ينقطع خلالهما صوت الطلقات النارية. وصيحات الذعر والفزع..

ولم يعر هنري إطلاق الرصاص بادئ الأمر أي إهتمام.. ولكنه لم يلبث أن أوجس خيفة عندما طال إنتظاره. واستمر إطلاق النار.

* * *

وأخيرًا فتح الباب.. ودخل الضابط يطلب إليه الذهاب إلى غرفة المكتب.

* * *

كان شارل جالسًا في مقعد كبير بقاعة أسلحته. وقد سقط رأسه فوق صدره، وحبات العرق تتلألأ فوق حبينه.

بادر هنرى بالتحية.. وأمر الضابط بالإنصراف. ثم قفز واقفًا، ومر بيده فوق جبينه وقال:

– لا شك أنك تشعر بالسرور لوجودك معي يا هنري؟

- بكل تأكيد يا مولاي.

– إذن تعال إلى هذه النافذة، وأنظر إلى ما يجري بالخارج.

فبدت الدهشة على وجه ملك تافار. ولكنه أذعن للأمر.

ونظر إلى الخارج؟ فرأى بعض السفاكين وهم يقومون بعملهم الجهنمي بين قتل وإغراق الأبرياء. فصاح هنري فى ذعر:

- ما معنى هذا بحق السماء؟

– إنهم يخلصونني الليلة من الهيجونوت جميعًا.. أنظر هنالك.. أنظر إلى قصر آل بوربون، حيث النيران تندلع والدخان يتكاثف.. إنهم يحرقون منزل الأميرال.. أنظر ها هم الكاثوليكيون الأمجاد يحملون جثته.. وهم بسبيل إلقاء جثة صديقك (تلني) في النهر.

فصاح ملك نافار وهو يتحسس عبثًا قبضة خنجره:

- ما معنى هذا يا مولاي؟

فبدا الغضب على وجه شارل.. وصاح بصوت كالرعد:

– معناه أنه لن يبقي هيجونوتي واحد في المملكة بعد اليوم.. فهل تسمعني يا هنري.؟ هل تسمع؟

فلزم هنري الصمت.. فقد زعزعت الكارثة كيانه وأرتج عليه القول.

واستطرد شارل:

- هل تفهم معنى ذلك يا هنري؟ لن يبقى في المملكة هيجونوتي واحد بعد اليوم.

وأندفع إلى المنضدة، وأختطف غدارة صوبها إلى صدر هنري. وصاح:

– والآن هل أنت على استعداد لإعتناق الكاثوليكية؟

ذعر هنري. وجمد في مكانه. وظل على صمته .وhنبعثت من حلق شارل ضحكة داوية مخيفة، أرتجت لها جدران اللوفر، وأستطرد في صوت جهوري:

– أيها تفضل.. الموت أو الكاثوليكية. أو الباستيل؟

سقط في يد هنري.. ولكنه كان قوي الذهن حاضر البديهة.. فأجاب:

– مولاي.. أتقتل زوج أختك؟

وكانت هذه العبارة سببًا في إنقاذ حياته. إذ لم يلبث شارل أن تحول إلى النافذة المفتوحة، وصوب غدارته إلى رجل كان يعدو. وقال:

– يجب أن أقتل أي شخص!.

ولمعت عيناه ببريق وحشي. ثم أطلق النار على الرجل فأرداه قتيلًا.

وتأوه هنري. واستمر الملك على حشو غدارته المرة بعد المرة. حتى أصاب ستة رجال.

وسمع هنري صوتًا نسائيًا صادرًا من خلفه يقول:

- هل انتهى كل شيء؟

كانت المتكلمة كاترين دي مدسيس.

وقذف شارل بغدارته فوق الأرض. وصاح:

– كلا بحق الشيطان! إن هذا الأحمق لا يريد الإذعان.

فلم تجب كاترين. إنما تقدمت من شارل ونظرت إليه نظرة معناها: «إذن لماذا يعيش؟». وكأنما أدرك شارل ما تعني أمه. فغمغم:

- إنه يعيش.. إنه يعيش لأن وشائج القربي قد ربطت بيننا.

فلاح على شفتي كاترين شبح إبتسامة. ورأى هنري إبتسامتها، فأدرك كل شيء.

تحول إليها وقال:

- سيدتي. إني أدرك كل ما حدث هو من تدبيرك. فأنت التي دفعت أبنتك إلى الزواج مني توسلًا إلى القضاء علينا وأنت التي أبعدتني عن زوجتي كيلا أقتل أمام عينيها.

فأجابه صوت من الخلف:

– نعم، ولكن هذا لن يكون!

فحول الجميع أنظارهم نحو الباب. وهتفوا في صوت واحد:

- مرجريت!

وقالت مرجريت تخاطب زوجها:

- سيدي.. إن كلماتك الأخيرة إتهام صريح لي. وأنت مخطئ ومصيب في وقت واحد. أما إنك مصيب فلأنني كنت الطعم الذي أعدوه للإيقاع بك. وأما إنك مخطئ، فذلك لأنني كنت أجهل أن حياتك معرضة للخطر. فلما عرفت ذلك تذكرت واجبي كزوجة يجب أن تشاطر زوجها سراءه وضراءه على السواء. وثق يا سيدي إنني سأكون شريكتك إذا نفيت، ورفيقتك إذا سجنت. أما إذا قتلت فلن أعيش بعدك.

ومدت يدها إلى زوجها. فشد هذا عليها بحرارة وعيناه تنطقان بأبلغ آيات الشكر وعرفان الجميل.

وتحولت مرجريت إلى أخيها شارل. وقالت:

- أخي. تذكر أن هذا زوجي. وإنك أنت الذي أخترته لي.

وألقت كاترين ببصرها إلى أبنها شارل. فقال :

– صحيح يا أماه.. إن مرجريت على حق، فهنري زوج أختي..

فهمست كاترين في أذنه:

- نعم. ولكن إذا لم يكن!..

الفصل التاسع

وفي اليوم التالي أستمر الكاثوليكيون في ذبح الهيجونوت. فلم يسلم منهم غير هنري دي نافار وأمير كونديه ودي لامول لوجودهم في قصر اللوفر.. وغير أولئك الذين استطاعوا الإفلات من مصيرهم المؤلم على يد الشعب الثائر المتعصب، وهم قلة، وكان دي لامول قد استعاد شيئًا من قواه، فانصرفت مرجريت عن العناية به إلى التفكير في الطريقة التي تمكنها من المحافظة على زوجها ضد الخطر الداهم الذي يتهدد حياته.

ولعله من الأوفق أن نكشف عن السر الذي حدا بها إلى الإهتمام بحماية زوجها.. فلم يكن ذلك بدافع من حبها له، ولكن لأنها كانت إمرأة طموحة، ترى في هنري دي نافار ملك فرنسا المقبل. فكأنها بفقدانه لن تفقد زوجها فحسب وإنما ستفقد العرش أيضًا.

* * *

وكانت مرجريت غارقة في أفكارها.. حين سمعت طرقًا على الباب السري.أنتفضت ثم قفزت واقفة.. وذهبت إلى الغرفة الجانبية وأشارت إلى دي لامول وجيلون أن يلزما الصمت. ثم عادت وفتحت الباب، فإذا بالقادم دق دالنسون.

وخطر لمرجريت بادئ الأمر أن تطلب إلى أخيها حماية زوجها من إعتداء أمها وأخيها شارل.. ولكنها عادت فتذكرت أن الدوق كان من أكبر المعارضين في زواجها بملك نافار.

* * *

وجلس الدوق فوق أحد المقاعد الوثيرة.. وبدأ يقف على أخته المذابح التي عمت باريس من أقصاها إلى أقصاها .وختم حديثه قائلًا:

– وإني مسرور لهذه النتيجة كل السرور لأنه سيترتب عليها إنفصام عري هذا الزواج البغيض إلى نفسك.

فرفعت مرجريت حاجبيها دهشة.. وسألت:

- ماذا تعني يا عزيزى دالنسون؟

– أعني أن هنري هيجونوتي.. هذا فضلًا عن أنه زوج غير مخلص، فهو يقضي كل لياليه مع عشيقته مدام دي سوف.

فصاحت مرجريت في حنق: – وكيف عرفت ذلك؟

- لأنه مما يهمني أن أعرفه.

فتجاهلت مرجريت إجابته وأردفت في حزن:

– ولماذا تطلعني على هذه الأنباء المؤلمة؟ أهي رسالة بعثتك بها الملكة الوالدة؟

– كلا.. وأقسم لك على ذلك. ولكن ما الذي يحملك على هذا الإعتقاد؟

– يحملني عليه أنك تريد الآن خرق التعاقد الذي بينك وبين هنري و....

فقاطعها الدوق:

– ولكن إستمرار التحالف بيننا أصبح الآن مستحيلًا. فأنا كنت أعتقد أن الهيجونوتيين قد أصبحوا في مركز يخولني التحالف مع مليكهم. ولكني عدت فعدلت عن رأيي بعد ليلة أمس. فلم يعد تحالفي معهم يفيد في شيء.

– إنك مخطئ ولا شك. فإن حياة الملك شارل لن تطول نظرًا للأزمات العنيفة التي تنتابه من وقت لآخر. وقد مات ملك بولندا، وأصبح من المقرر أن ينتخب أمير من بلاط فرنسا ليخلفه على العرش. تلك هي الظروف التي تجتازها المملكتان في هذه الآونة. فإذا كان ذلك فمن الواجب ألا يتخلى الإنسان عن حلفائه الذين يؤدون إليه أجل الخدمات أثناء الكفاح.

فنهض الدوق واقفًا، وراح يذرع الغرفة جيئة وذهابًا. ثم توقف فجأة. وصاح:

– إذن فأنت تفضلين زوجك على إرتقاء العرش؟ ولذلك طالبت شارل أمس بالإبقاء على حياته!.

- حسنًا ؟

– إذن فالوداع يا أختاه.. وأرجو ألا تتذمري مما قد يحدث لك.

فأصفر وجه مرجريت. ولزمت الصمت. واستطرد الدوق:

– وبهذه المناسبة، أرى لزامًا على أن أخبرك أن ملك نافار سيموت غدًا في ساعة معينة.

فأفلتت شفتا مرجريت صرخة ذعر. ودفنت وجهها بين يديها وأجهشت بالبكاء. وهز الدوق كتفيه إستخفافًا. ثم غادر الغرفة.

* * *

وجاء أحد الخدم بعد ساعة ليطلب إلى مرجريت أن تنضم إلى الملكة الوالدة والملك شارل في زيارتهما لمدافن العائلة.وكانت مدام دي سوف ضمن الحاشية فلما وقع بصر مرجريت عليها نظرت إليها الوصيفة نظرة فهمت الملكة منها أن لديها ما تريد إبلاغه لها.

وقد استقبل رئيس الدير الركب الملكي عند باب المدافن. ثم قاد الجميع إلى ربوة مرتفعة غرس في أرضها عامود خشبي قد صليت فوقه جثة الأميرال بغير رأس.

وانتهزت مدام دي سوف فرصة إنصراف كاترين إلى الإصغاء إلى حديث رئيس الدير. وأقتربت من مرجريت، وطلبت إليها أن تسمح بتقبيل يدها. وعندما أنحنت الوصيفة على يد مرجريت لتقبيلها. دست ورقة صغيرة مطوية في كم الملكة.

وبالرغم من دقة الوصيفة في إتمام مهمتها. فقد ظلت كاترين إلى المرأتين في إرتياب.

ولما انتهى الرئيس من خطابه. أشارت كاترين إلى أبنتها أن تقترب منها. ثم قالت:

- يخيل إلى أن العلاقات بينك وبين مدام دي ليست على ما يرام؟

فأبتسمت مرجريت. وأجابت:

- نعم يا أماه. فقد طلبت إلى الحية أن تعض يدي.

ووصلت جماعة أخرى إلى الدير في تلك اللحظة.

* * *

وكان دوق دي جيز، وفريق من النبلاء يحيطون بمركبة أنيقة ما إن وصلت إلى باب الدير حتى وقفت أمامه. وصاح شارل:

– آه.. لقد جاءت دوقة دي نيفرر. دعوا هذه الكاثوليكية الحسناء تأتي لتتقبل تهانينا لما أبدته من البسالة في صراعنا أمس مع الهيجونوت.

فتخضبت وجنتا الدوقة بحمرة الخجل. وأجابت:

– مولاي.. إنني لم أفعل شيئًا يذكر. كل ما هنالك أن شابًا كاثوليكيًا باسلًا فعل ما يشبه المعجزات.. وقد جرح خلال المعركة فرأيت من واجبي إنقاذه.

وكانت الزيارة قد انتهت.. وأستاذنت مرجريث أمها في الإنصراف

مع الدوق بدعوى أنهما ذاهبتان للإطلاع على بعض كتب نادرة عثر عليها عند أحد البروتستانتيين.

وعندما أنطلقت المركبة بالمرأتين.. أخرجت مرجريت رسالة مدام دي سوف من كمها. ونشرتها بين يديها. وقرأت:

"لقد صدرت إلى الأوامر أن أرسل مفتاحين لجلالة ملك نافار، أحدهما مفتاح الغرفة التي هو سجين فيها، والآخر مفتاح غرفتي..."

"وقد طلب إلى كذلك أن أبقيه في غرفتي حتى الساعة السادسة صباحًا.. ففكري جلالتك في الأمر، دون أي إبطاء أو تسويف"

غمغمت مرجريت:

– لم يعد الآن ثمة شك في أن تلك المرأة آلة يستخدمونها للقضاء علينا جميعًا. ولكن صبرًا. وسوف نرى على من ستدور الدوائر.

فسألت الدوقة: ماذا تقول تلك الرسالة يا عزيزتي مرجريت؟

فصاحت الملكة: أواه يا صديقتي.. إن لدي ما أريد أن أقوله لك. ولكن أخبريني أولًا أين نحن ذاهبتان الآن؟

– إلى قصر دي جيز يا عزيزتي مارجريت.

وتنهدت.. ثم استطردت:

– هل تحبين يا عزيزتي؟

فهزت مرجريت رأسها وقالت:

– يخيل إلى أنني على وشك الوقوع.. وقد يكون من دواعي دهشتك أن تعلمي أن عشيقي هيجونوتي.

– لا شك أنه ملك نافار؟

- كلا.. كلا..

ففغرت الدوقة فاها دهشة.. وهتفت:

- أما أنا فقد أخترت كاثوليكيًا.

فقالت مرجريت:

– هنيئًا لك يا عزيزتي.. وبهذه المناسبة.. إن لدي في الغرفة المجاورة لمخدعي جريحًا بروتستانتيًا.. ولما كنت أخشى أن تدخل أمي أو أخي شارل الغرفة فجأة فيفتضح أمره، فأرجو أن تتنازلي بقبوله ضيفًا عليك ريثما يبرأ من جراحه.

– توجد عقبة واحدة في سبيل تنفيذ رغبتك يا عزيزتي. ذلك أن القفص مشغول منذ أمس.

فصاحت مرجريت في دهشة:

– وهل أنت أيضًا أنقذت جريحًا؟

– نعم.. وهو ذلك الشاب الباسل الذي تحدثت عنه إلى الملك في الدير وقصت على صديقتها ما حدث خلال المعركة بالتفصيل.. وختمت حديثها قائلة:

– ولهذا ترين أنه ليس من المروءة أن أطرد مسيو أنيبال دي كوكوناس من منزلي.

فأبتسمت مرجريت.. وقالت: – يا له من أسم غريب.

وكانت المركبة قد وصلت إلى القصر في تلك اللحظة. فأسرعت الدوقة بالنزول. ثم مدت يدها تعاون الملكة على الهبوط.

وعندما دخلت المرأتان إلى القصر. قالت الدوقة:

– بودي أن أريك البطل كوكوناس.

– حسنًا يا صديقتي. ولكني أرى من الأوفق ألا يراني.

- ولماذا؟

– كيلا يعرفني فيما بعد. وأظن أن في استطاعتي أن أراه من ثقب الباب.

وقادت الدوقة صديقتها إلى باب غرفة كوكوناس. فأطلت الملكة من ثقب القفل فرأت الشاب جالسًا إلى منضدة أنيقة وهو يلتهم طعامه بشراهة..

بيد أنها لم تكد تتبين ملامحه حتى أرتدت عن الباب منذعرة.. وهتفت:

– يا إلهي! هذا مستحيل. إنه هو بعينه.

فسألت الدوقة في دهشة: هو؟ من هو؟

- إنه نفس الشخص الذي تعقب الهيجونوتي إلى مخدعي.

وبدأت الملكة تقص على الدوقة ما حدث في غرفتها.. فسألت هذه:

- وما اسم فارسك؟

– إن اسمه دي لامول. ولكن أرجو ألا تذكرى ذلك أمام كوكوناس.

فقالت الدوقة:

– مهما يكن الأمر.. فأرسلي صديقك إلي وأنا الكفيلة بإصلاح ذات البين بينهما..

– كلا.. كلا.. ليس الآن.

– متى؟

فنظرت مرجريت إلى صديقتها نظرة معنوية. وأجابت:

– عندما تبحثين لصديقك عن مكان آخر.

فأبتسمت الدوقة. وقالت:

– تعنين عندما أبحث عن عش جديد؟! حسنًا. ليكن ما تريدين.

وشاع السرور في وجه الملكة. وأردفت:

- حقيقة. إن لكيوبيد سلطانًا عظيمًا على القلوب!

– وهتفت المرأتان معًا:

– إذن فليحيا الحب. وإله الحب.

الفصل العاشر

أستقبلت جيلون مولاتها مرجريت وهي بادية القلق والإضطراب. وقالت الوصيفة إن مدام دي سوف جاءت في غيبة الملكة. وتركت مفتاحًا قالت إن الملكة الوالدة أعطتها إياه كي ترسله إلى ملك نافار.

وتذكرت مرجريت تهديد دوق دالنسون بأن هنري سيموت غدًا في ساعة معينة، وتبلجت الحقيقة أمام عينيها.

فنهضت إلى مكتبها، وكتبت الرسالة التالية:

"تعال الليلة إلى ملكة نافار عوضًا عن الذهاب إلى مدام دي سوف"

" مرجريت"

وطوت الرسالة.. وأودعتها تجويف المفتاح. ثم أمرت ميلون أن تدفعه من أسفل باب الغرفة التي سجن بها هنري دي نافار عندما يأتي المساء..

* * *

وذهبت مرجريت لزيارة دي لامول. ولشد ما كانت دهشتها عندما وجدته مرتديًا ملابسه كأنما يتهيأ للخروج.

سألت: ماذا حدث يا سيدي.. ولماذا تخالف أوامري؟

فقال دي لامول:

– مولاتي.. إنني أشكر جلالتك لإنقاذك حياتي.. وأتوسل إليك أن تسمحي لي بمغادرة القصر.

– تغادر القصر.. حقًا يا سيدي!؟ يخيل إلى أنك ناكر للجميل.

فهتف الشباب في حماس:

– ناكر للجميل؟! كلا وأيم الحق، فأنا لن أنسى جميلك ما حييت.

نطق الشاب بهذه الكلمات في لهجة مؤثرة. نفذت إلى قلب الملكة فقالت:

– إذن لماذا تريد مغادرتنا يا سيدي.؟ آه.. حقًا.. لقد نسيت أنك شاب و.

فقاطعها دي لامول:

- مولاتي.. أنت مخطئة، فأنا وحيد في هذه الحياة.. وجلالتك أول من قابلت في باريس من النساء.

رقص قلب مرجريت بين ضلوعها. وسألت:

- إذن لماذا تريد الرحيل؟

- لسببين يا مولاتي.. أولهما أنني لا أقبل أن أستمع إلى الأحاديث التي تدور بينك وبين زائريك. فقد سمعت حديثك مع مدام دي سوف ومع دوق دلنسون، ومع جيلون. وثانيهما أنني عزمت على إعتناق الكاثوليكية..

فرفعت مرجريت حاجبيها دهشة.. وقالت:

- إذن فقد سمعت كل ما قيل في مخدعي؟

فتأوه الشاب.. وقال: – نعم يا مولاتي.

غمغمت مرجريت في لهجة المشفق:

- مسكين أيها الشاب.

ودهش دي لامول بدوره.. فقد كان يتوقع منها أن تسمح له بالرحيل. فإذا هي ترفض رفضًا باتًا.

– مولاتي.. إننى واثق أن جلالة ملك نافار سيأتي الليلة إلى مخدعك فقد سمعتك تتحدثين لجيلون عن ذلك.. وأنا لا أقبل أن أسترق السمع لما يدور بين زوجين على انفراد.

ونهض الشباب واقفًا وتأهب للإنصراف. ولكنه لم يكد يخطو خطوتين حتى ترنح وكاد يسقط، لو لم تخف إليه مرجريت وتتلقاه بين ذراعيها.

وصاحت: ها أنت ذا ترى يا سيدي.. إنك ما زلت بحاجة إلي.

فغمغم دي لامول:

– هذا صحيح.. فأنت ألزم إلى من الهواء الذي أستنشقه وسمع الأثنان ثلاث طرقات على الباب السري.. ودخلت جيلون مسرعة.. وقالت:

- مولاتي.. يخيل إلى أن جلالة ملك نافار قادم إلى هنا.

وحاول دي لامول أن ينهض، وهو يقول:

– أتوسل إليك أن تدعيني أنصرف. يا لله. إنك لا تجيبين! إنني..

فوضعت مرجريت يدها البضة المعطرة على فم الشاب وقالت: صه.

– ما أقساك يا مولاتي! فأنت تتجاهلين عذابي وآلامي.. إذن فأعلمي أنني..

- صه أيها الطفل!.

وغادرت الغرفة، وأغلقت الباب خلفها ثم أمرت جيلون بفتح الباب السري..

* * *

ودخل هنري دي نافار.. وعلى شفتيه إبتسامة عريضة.

قال: سيدتي.. لقد وصلتني رسالتك، وفيها تطلبين إلي موافاتك في مخدعك..

– نعم يا مولاي..

- أقول لك الحق إنني دهشت من تلك الرسالة العجيبة وبخاصة في هذه الظروف العصيبة التي يجمع فيها أعدائي على الأحداق بي متآزرين.

فابتسمت مرجريت.. وقالت:

- إنك تتكلم بلهجة ساخرة يا مولاي. ولكني أثق أن هناك إمرأة تحبك وتعمل على الأخذ بيدك وإنقاذك ما وجدت إلى ذلك سبيلًا.

أنتفض الملك.. وحدج زوجته بنظرة نفاذة.. وتفرس فيها مليًا.

وابتسمت مرجريت.. وأستطردت:

- طب نفسًا يا مولاي، فأنا لست تلك المرأة.

– ولكن يا سيدتي.. إن الرسالة مكتوبة بخطك، وأنت التي أرسلت المفتاح.

– نعم.. إنني كاتبة الرسالة.. أما المفتاح فله قصة أخرى. ويكفي أن أذكر أن أربع نساء تبادلنه. الملكة الوالدة ومدام دي سوف وجيلون وأنا..

فبدأ التفكير على وجه الملك حيال هذا اللغز المغلق.

واستطردت مرجريت:

– دعنا نتكلم بصراحة.. لقد بلغني أنك تنوي اعتناق الكاثوليكية.

– إنني لم أعلن ذلك بعد.. ولو إني أعترف بأن شيئًا من ذلك يجول بخاطري.

– ولماذا؟

فابتسم هنري.. وقال:

– لقد كنت ملكًا.. ولكنهم أسقطوني عن عرشي، ومثلوا بشعبي الوديع أشنع تمثيل. ثم حاولوا بعد ذلك الفتك بي.. والحياة كما تعلمين أعز من الزهد فيها بهذه السهولة.

وأمسك عن الكلام.. وأدركت مرجريت أن آمالها توشك على الإنهيار.. فقالت:

- وهل نسيت تحالفنا؟ ألا تثق بإبنة فرنسا؟

- أنت مخطئة.. فالفرق بين الثقة بالشخص والثقة بقوة الشخص.. والمعروف أن قوة المرأة لا تكون في عنفوانها إلا حيث يكون الباعث هو القوة. وباعث القوة في المرأة لا يخرج عن أحد أمرين. أما الحب أو المصلحة الشخصية. وأنا لا أستطيع الاعتماد على حبك.

وفجأة.. سمع الأثنان طرقًا خفيفًا على الباب السري أعقبه صوت مدام دي سوف تقول:

– جلالة الملكة الوالدة قادمة إلى مخدع جلالتك.

ودهش هنري.. فقالت مرجريت:

– لقد كنت واثقة من ذلك. والآن أسرع يا سيدي.

- إلى أين؟

فهمست في أذنه بضع كلمات. فقفز إلى الفراش.. وأرخى ستائره. بينما أسرعت مرجريت إلى الغرفة الجانبية. وأقتربت من دي لامول حتى لفحت أنفاسها الملتهبة وجهه وهمست:

– صه. وألزم الصمت التام.

وبأسرع من لمح البصر، شقت فستانها، وخلعته ثم قفزت فوق الفراش.

* * *

وفي اللحظة التالية، أدارت كاترين المفتاح في قفل الباب السري. ثم نفذت إلى الغرفة بعد أن تركت حراسها الأربعة الذين يلازمونها كظلها، لدى الباب.

ورفعت مرجريت نفسها في الفراش معتمدة على مرفقيها وصاحت بصوت من يهب من نومه فجأة:

– من هناك؟

وقفزت من الفراش، وهي بقميص النوم الأبيض، كأنما لتدفع عدوان القادم. ولكنها لم تلبث أن تظاهرت بالدهشة. ثم تقدمت من أمها. وقبلت يدها في احترام وخضوع.

* * *

وألقت الملكة الوالدة نظرة سريعة على محتويات الغرفة.. فرأت حذاء مرجريت أسفل الفراش وملابسها الخارجية ملقاة فوق المقاعد بإهمال. فلم يعد لديها شك في أنها أزعجت ابنتها من نومها.

أبتسمت.. إذ خيل إليها أن خطتها قد نجحت. ثم جلست فوق أحد المقاعد.. وقالت:

– لقد جئت لأتحدث إليك في أمر هام يا مرجريت.

– تكلمي يا سيدتي. فكلي آذان صاغية.

فأغمضت كاترين عينيها. وأردفت:

- لقد حان الوقت لأبرهن لك على شدة إهتمامي بأمر سعادتك يا مرجريت..

ودهشت مرجريت لهذه المقدمة غير المتوقعة. وتساءلت: (ترى ماذا هي بسبيله؟)

واستطردت كاترين.

– نعم لقد كنا نرجو أن نتم عملًا سياسيًا هامًا تحكمه مصلحة المملكة حين زوجناك بهنري ملك نافار. ولكني أعترف مع الأسف الشديد أننا أخطانا التقدير وكنا سببًا في شقائك.

فنهضت مرجريت واقفة. وأحنت قامتها لأمها إحترامًا.

– لقد بلغني الليلة فقط أن زوجك لا يحوطك بالرعاية الواجبة بصفتك زوجته وإحدى أميرات البيت المالك.

فتنهدت مرجريت وتشجعت كاترين. فاستطردت:

– بل إنه ليحزنني أن أسمع فوق ما سمعت أن لملك نافار عشيقة بين وصيفاتي وانه لا يتورع عن إظهار حبه لها أمام الجميع. ولكني لم أصدق تلك الشائعات بادئ الأمر. بل وضربت عنها صفحًا، غير أني لم ألبث أن

تأكدت من صحتها، فقررت أن أعالج الموضوع بصفة جدية ضنًا بكرامة البلاط الفرنسي أن تهدر هكذا على مرأى ومسمع من الملأ.

فقالت مرجريت بتهكم لاذع:

– أماه.. أرجو ألا يذهب بك الحماس إلى أن تنسي أن ملك نافار زوجي.

فبدا الغضب على وجه كاترين.. وصاحت بلهجة لا تقل عن لهجة أابنتها سخرية:

– زوجك؟ وأين هو ذلك الزوج الذي تدافعين عنه؟ إنه بين أحضان عشيقته مدام دي سوف في تلك اللحظة.

هلمي بنا إلى مخدعها لتري بعينيك أنني لم أصدر في أقوالي إلا عن ثقة ويقين.

فقالت مرجريت:

– هدئي من روعك يا أماه، وأرجو أن تخففي من حدة صوتك. وإلا أزعجت زوجي.

ونهضت واقفة. واقتربت من الفراش. وأزاحت الستائر جانبًا. ثم أشارت إلى ملك نافار وهو ممدد في الفراش وعيناه مغمضتان شأن المستغرق في النوم.

وأصفر وجه كاترين، وانكمشت في مقعدها ورفعت يديها كأنما لتتجنب طعنة قاتلة مصوبه إليها. وأفلتت شفتاها صرخة مكتومة.

قالت مرجريت:

– ها أنت ترين يا أماه إنك أخطأت التقدير.

ظلت كاترين تنقل بصرها بين أبنتها والملك النائم لحظات قلائل. وأخيرًا نهضت. وغادرت الغرفه دون أن تنبس ببنت شفة .

* * *

وما إن تلاشي وقع أقدامها حتى قفز هنري من الفراش وجثا عند قدمي زوجته وصاح:

– يا لله يا سيدتي. كيف أستطيع أن أعبر لك عن تقديري لهذا الصنيع.!؟

فقالت مرجريت:

– أرجو أن يتذكر مولاي أن حياة مدام دي سوف معلقة الآن في كفة القدر. فتلك المرأة النبيلة نسيت غيرتها وأرسلتك إلي، مع علمها بأن ذلك قد يكلفها حياتها.

فانتفض هنري. واستطردت الملكة:

– أعتقد أن مدام دي سوف لن تعدم وسيلة للخروج من مأزقها. وقد يهديها التفكير إلى القول بأنك فضلت أن تأتي إلي بدل الذهاب إليها.

فصاح هنري:

– الواقع أني لن أنسى صنيعها..

فقاطعته مرجريت:

- صه يا مولاي.. وإلا سمعك من في الغرفة الجانبية..

فأبتسم هنري إبتسامة مغتصبة. وغمغم قائلًا:

– آه. حقًا لقد نسيت..

فأردفت مرجريت:

– أرجو أن يتنازل مولاي بدخول هذه الغرفة، فإني أريد أن أقدم إليك شابًا باسلًا جرح أثناء محاولته الوصول إلى اللوفر لينذر جلالتكم في الوقت المناسب من الخطر الذي يتهددكم..

وتقدمت من الباب.. وفتحته فتقدم الملك إلى الداخل وهو كالمأخوذ..

ولم تكن دهشة دي لامول بأقل من دهشة هنري.. فراح ينتقل ببصره بين مرجريت وزوجها في وجوم وصمت.

قالت مرجريت:

– مولاي.. إني أخشى أن يصيب هذا البطل مكروه إذا ظل في هذه الغرفة، فأرجو أن تتنازلوا بحمايته.

وقال دي لامول يقدم نفسه:

– أسمي الكونت ليراك دي لامول. وأنا الذي حدثكم بشأني المرحوم مسيو "تلني"

– آه.. إني أذكر ذلك تمامًا.. وأذكر أن جلالة الملكة أعطتني الرسالة التي جئت بها. على أني أعتقد أن لديك رسالة أخرى غير هذه.

– نعم يا مولاي. إن معي رسالة لجلالتكم من حاكم (لاجندوك). وقد أوصاني ألا أعطيها لأحد غير جلالتكم،

وأخرج دي لامول غلافًا مغلقًا من جيبه.. تناوله الملك. وفضه وشرع يقرأ الرسالة.. وما كاد يفرغ من القراءة حتى تجهم وجهه وصاح.

– يا الله.. لو أن هذه الرسالة وصلتني في حينها.. لاستطعنا أن نتجنب الكارثة التي حلت بنا.

وكأنما شعر دي لامول بأن الملك يتهمه بالإهمال.. فصاح:

– مولاي.. إنني بذلت أقصى جهد في الاسراع إليكم، ولكني لم أستطع الوصول إلى باريس قبل أمس مساء..

وهنا تدخلت مرجريت في الحديث قائلة:

– مولاي. لندع الماضي بفجائعه وكوارثه. ولتفكر في المستقبل.. إن مثل جلالتكم في موقفكم الحالي كمثل لاعب في مباراة لها أشواط ثلاثة.. وقد مني بالهزيمة في الشوط الأول.. فتعين عليه لكي يكسب المباراة أن يعمل على إحراز النصر في الشوطين الباقيين.

فغمغم هنري: – هذا رأي صائب..

ـ وأرجو أن تذكر جلالتكم ما بيننا من تحالف.. وأنه ليس من حقك أن تخرقه دون إبداء الأسباب

– هذا صحيح.. يا لي من ناكر للجميل. مهما يكن من شيء فإني أرجو أن نتمكن من إصلاح الماضي.. على أني أرى أولًا أن نبحث عن مكان آخر أمين لإيواء الكونت دي لامول..

- ألا يمكنه الإنتقال إلى جناح جلالتكم؟

فهز الملك رأسًا نفيًا. وقال:

- هذا مستحيل، فلم يعد لي من النفوذ ما يمكنني من حمايته..

فوجمت مرجريت.. وأدركت أن الملك لن يشمل دي لامول بعد بحمايته.. فرأت أن تؤجل الحديث ريثما تجد حلًا لهذه المشكلة..

قالت: مولاي.. يخيل إلى أننا نسينا أن الجريح المسكين في حاجة إلى الراحة. كما أنني مثقلة الجفون.

وكان وجه دي لامول شديد الإمتقاع في تلك اللحظة، إذ استولت عليه نوبة مفاجئة من الضعف الشديد.

قال هنري: حسنًا يا سيدتي.. أرى أن أعود إلى جناحي ليتمكن مسيو دي لامول من الراحة..

فنظر دي لامول إلى مرجريت نظرة كلها ضراعة، وتهالك فوق أحد

المقاعد من الألم والإعياء.. وأدركت مرجريت مغزى نظرة الشاب المملوءة بالعاطفة المكبوتة..

فقالت: – مولاي.. أرى أن تتنازل جلالتكم بالرقاد على هذا الفراش، بينما تأتي جيلون بفراش آخر لمسيو دي لامول فتتهيأ لكما بذلك فرصة الحديث عن الشئون الحاضرة على إنفراد..

وغادرت مرجريت الغرفة وأغلقت بابها بالمفتاح.. ثم نادت جيلون وأمرتها أن تحتال على إحضار الدوق دالنسون إلى غرفتها بأي عذر قبل الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي..

وآوت إلى مخدعها.. وهي تقول لنفسها:

– إنه شاب خجول ولكن عينيه غنيتان بالعاطفة والسحر لله در هنريت "دوقة دي نيفرز" تلك المرأة المجرية حين تقول على المرء أن يستسلم للحب حين يغزو قلبه.. فإن الحياة بدونه أشبه بصحراء جرداء .

الفصل الحادي عشر

كانت مدام دي سوف تتوقع زيارتين. الأولى من الملك هنري والأخرى من كاترين دي مدسيس.. ولكنها فقدت الأمل في الزيارة الأولى عندما أنقضى شطر كبير من الليل دون أن يحضر هنري.. فآوت إلى فراشها.. مهمومة حزينة. وأوشكت عيناها أن تغفو لولا أن راحت تعلل النفس بحضور ملك نافار في اللحظة الأخيرة.. فتمسكت بأهداب الأمل وطردت النوم عن جفنيها.

وفجأة، فتح باب سري، وبرزت منه كاترين دي مدسيس.

كانت بادية الهدوء.. ولكن مدام دي سوف الخبيرة بطباع مولاتها لم تنخدع بهذه الظواهر المصطنعة.. وهمت بالقفز من الفراش ولكن كاترين أشارت إليها بالبقاء حيث هي.. فأدركت المسكينة أن العاصفة على وشك الهبوب.

وسألت كاترين في لهجة مرة:

- هل أوصلت المفتاح إلى ملك نافار؟

فأجابت شارلوت بصوت حاولت عبثًا أن تجعله طبيعيًا.

- نعم يا مولاتي..

- وهل جاء لزيارتك؟

– كلا يا مولاتي. ولكن كنت أتوقع قدومه عندما سمعت المفتاح يدار في قفل الباب..

أهاج ذلك الرد كاترين.. فصاحت في غضب:

– حقًا.. وكيف تتوقعين قدوم الملك إلى مخدعك وأنت واثقة أن ذلك بعيد الإحتمال إن لم يكن مستحيلًا. ألا ترين أن ذلك من الغرابة بمكان؟.

- وكيف ذلك يا مولاتي؟

– نعم. أؤكد لك أنك كنت على يقين من أن ملك نافار لن يزورك الليلة..

– إنني لا أكون على يقين إلا إذا كان الموت، والموت وحده هو الذي سيحول بينه وبين زيارتي.

فسألت كاترين بتلك اللهجة التهكمية المشهورة عنها:

- ألم تكتبي إلى الملك يا (شارلوتا) الحسناء؟

– كلا يا مولاتي.. فإنك لم تصدرى إلي أمرًا بذلك.

وساد الصمت.. وراحت كاترين ترمق ضحيتها بنظرة حادة كأنما تريد أن تنفذ إلى أعماقها لتقرأ ما يجول بخال الوصيفة الحسناء وأخيرًا سألت:

– هل تعتقدين أنك فاتنة.. قادرة على اجتذاب الرجال.

– كلا يا مولاتي. ولكن أذكر أن ذلك كان رأيك حين أمرتني بإتمام هذه المهمة..

فقالت كاترين في سخط:

– مهما يكن الأمر، فأنا الآن أعتقد أنك قد أخفقت بالنسبة إلى ابنتي مرجريت..

– هذه حقيقة لا أستطيع نفيها يا مولاتي.

– ولهذا فقد فضل ملك نافار أن يقضي هذه الليلة معها وهو أمر لم يكن متفقًا عليه بيننا.

فأجهشت شارلوت بالبكاء. وقالت:

– وا أسفاه يا مولاتي. لقد كان ذلك من سوء حظي بغير شك.. على أني أعود فأقرر أني لم أهمل قط في تنفيذ أوامرك جميعها بكل دقة..

فبدأ التفكير على وجه كاترين. ثم قالت:

- إذا كان حقًا ما تقولين فإني أطالبك بالبرهان العملي.. يجب أن يقع هنري دي نافار في براثن حبك.. وينسى أن له زوجة..

فأطرقت شالوت برأسهما إلى الأرض.. وغمغمت:

- إني طوع أمرك يا مولاتي..

– وغادرت كاترين الغرفة دون أن تزيد حرفًا واحدًا..

* * *

أفاقت مرجريت من نومها مبكرة.. فنهضت من فراشها ودعت إليها وصيفتها جيلون ثم أمرتها بإستدعاء حاشية ملك نافار إلى جناحها.. وتقدمت نحو الغرفة الجانبية وفتحتها. وألقت نظرة تفيض

بالحنان على دي لامول K ثم تحولت إلى زوجها.. وقالت:

– مولاي.. من الواجب أن نلقي في روع جميع أفراد البلاط أن العلاقة بيننا على أوطد ما تكون حتى نذر الرماد في عيني أمي..

وابتسم هنري.. وأذن لضباطه بالدخول.. وعندما كان يستقبلهم تظاهر بأنه نسي وشاحه. وألتفت إلى مرجريت ونظر إليها نظرة ذات معنى.. فتقدمت من أحد المقاعد.. وألتقطت الوشاح وقدمته إلى زوجها وعلى شفتيها إبتسامة سعيدة.. وقد أخذ الضباط لهذا التطور العجيب في العلاقة بين الزوجين. ولكن هنري تظاهر بأن المسألة طبيعية. وبدأ يتحدث إلى ضباطه عن الحالة الحاضرة..

ودخل أحد الخدم في تلك اللحظة يعلن قدوم دوق دالنسون مع بعض ضباط حاشيته..

* * *

كانت جيلون قد لجأت إلى حيلة بسيطة لإرغام الدوق على الحضور، فقد أنبأته بأن ملك نافار قضي ليلته في مخدع زوجته.. وبهت الدوق.. وأسرع إلى جناح أخته يستطلع جلية الأمر..

وحيا هنري الدوق باحترام.. واستقبلته أخته بإبتسامة عذبة.. فوقف كالمأخوذ لا يدري شيئًا مما يدور حوله..

واستطاع الدوق أن يتغلب أخيرًا على شعوره. ودعا زوج أخته للإنضمام إلى مباراة التي يقيمها الملك شارل.

وعندما تهيأ الرجلان للإنصراف أستوقفت مرجريت أخاها بدعوى أن لديها ما تقوله له.. وعجب الدوق للأمر.. وامتقع وجهه.. ولكنها قالت على عجل موجهة الحديث إلى زوجها:

– إنني أترك لك أمر إيضاح السبب الذي دعاني للإهتمام بأمر مسيو دي لامول..

وسقط هنري في الشرك.. وأضطر أن يقنع بقصة الشاب. ودعت مرجريت أخاها لرؤية مسيو دي لامول.. وقالت تقدم كلًا منهما للآخر:

– أخي.. إن مسيو دي لامول على استعداد لأن ينضوي تحت إمرة أي شخص يتعهد بحمايته ريثما يبرأ من جراحه. وأنا واثقة من أنه سيكون مثال الإخلاص والتفاني في خدمة من يشمله بهذه الحماية..

وسقط الدوق بدوره في الشرك. ولم يستطع التخلص من ذلك الطلب الشاذ. فأجاب:

– إنني على إستعداد لأن أكون ذلك الشخص.. وسآمر بنقل مسيو دي لامول إلى جناحي الخاص في الحال. وآمل أن أجد من اخلاصه ما يحملني على إبقائه في خدمتي..

وقالت مرجريت لنفسها: عظيم. الآن فقط أطمأننت إلى سلامة هذا الفارس الجميل..

* * *

وبعد نصف ساعة أنتقل دي لامول إلى جناح الدوق بعد أن ودع مرجريت وداعًا حارًا خالصًا يفيض بدموع الإمتنان والشكر الجزيل..

* * *

ومضت عدة أيام والعلاقات بين مرجريت وزوجها تتطور من حسن إلى أحسن.كان الملك يكثر من التردد على جناح زوجته. ويدخل من الباب العمومي.. ويقضي شطرًا من الليل معها، يتكلمان خلاله في تحالفهما وفي تطورات الموقف.. ثم ينصرف من الباب السري.. وينطلق إلى جناح مدام دي سوف التي كانت توافيه بما يدور بينها وبين الملكة الوالدة من أحاديث بشأنه.

وقد اعتنق هنري الكاثوليكية.. ولكنه طلب إلى الملك شارل أن يرجئ إعلان ذلك رسميًا إلى فرصة أخرى تناسب الظروف.

* * *

وفي أحد الأيام ذهب شارل لزيارة أمه..كان بادي الإنشراح والغبطة، يصفر بشفتيه ذلك اللحن المؤثر المحبب إلى قلبه.

وبادر أمه قائلًا:

– إني أحمل إليك أنباء سارة يا أماه، فقد بلغني أن الكاثوليك الأمجاد عثروا على رأس الأميرال كولني. وصلبوه على ربوة مونتفوكن..

– حسنًا..

– وأي حسن يا أماه.. إني أشعر برغبة قوية لرؤية رأس الأميرال، والإنسان لا يستطيع أن يدرك كنه ذلك الشعور الذي يستولى عليه عندما يرى ثمرة انتصاره على أعدائه.. ولهذا فقد عولت على دعوة رجال البلاط. والنبلاء لزيارة ربوة مونتفوكن اليوم.

فرفعت كاترين حاجبيها دهشة.. وقالت:

– إني أشاركك هذا الشعور. ولكني مضطرة إلى التخلف لآن لدي موعدًا عامًا.. اللهم إلا إذا أجلت تلك الزيارة إلى غد..

– كما تشاءين يا أماه..

وانصرف شارل وهو يصفر لحنه الحزين..

* * *

وعلى أثر إنصراف الملك من غرفة أمه.. أعلنت إحدى الوصيفات قدوم (رينيه) صانع عطور الملكة.. وقد استقبلت الملكة الوالدة صانع العطور على إنفراد..

وسألته:

– هل أعدت إجراء التجربة.. لتتأكد من فساد نبوءة (رجيري) التي تقول بأن أبنائي الثلاثة سيعتلون العرش؟

– نعم يا مولاتي. فإن واجبي يقضي علي بإطاعة أوامرك..

– والنتيجة؟..

– واحدة يا مولاتي..

فغمغت كاترين في دهشة:

- تعني أن ثلاثة من أفراد أسرتي سيموتون ميتة بشعة؟

- تلك هي الحقيقة بكل أسف.

فصاحت كاترين في غضب يخالطه الذعر:

– ماذا؟ تعني أن جميع التجارب أثبتت ضرورة تغيير نظام ارتقاء العرش في فرنسا؟ كلا. كلا. لا أظنك تعني ذلك..

هز رينيه راسه عدة مرات. وأجاب:

– إني لم أقرر غير الحقيقة يا مولاتي. سينتقل عرش فرنسا إلى بيت آخر..

فأطرقت كاترين برأسها إلى الأرض قليلًا.. ثم عادت فرفعته وقالت:

– وهل وصلتك العطور الإيطالية؟

- نعم يا مولاتي..

– إذن أرسل إلى صندوقًا منها..

– ولم ذلك يا مولاتي.. وأنت الآن مثل خبيرة بكيفية تحضيرها؟

– أحقًا تقول؟.. آه.. يخيل إلي أن هذه العطور عظيمة المفعول.. مؤكدة النجاح.

فسأل رينيه: هل من تعليمات أخرى؟..

– كلا.. فقط أرجو أن تعيد التجربة.. متخذًا الحملان بدل الدجاج فقد تتغير النتيجة.

فهز الرجل رأسه نفيًا وقال:

– وا أسفاه يا مولاتي.. إن تغيير الضحية لن يغير من النتيجة بحال..

فقالت كاترين غاضبة: أفعل ما آمرك به..

فأحنى رينيه رأسه.. وغادر الغرفة..

* * *

وفي صباح اليوم التالي، نهض دي لامول من نومه مبكرًا وhرتدي ثيابه الجديدة إستعدادًا للإنضمام إلى جماعة الملك الذاهبة إلى مونتفوكن..ودعا الخادم.. وطلب إليه إبلاغ رغبته هذه لمولاه.. وبينما كان دي لامول منهمكًا في التزين والتأنق.. كان هناك شاب آخر لا يقل عنه نهمًا في إرتداء ثياب جديدة أهديت إليه في نفس اليوم..

وكان الشاب يحاول أن يطمس معالم جرح غائر في وجنته فلما أعيته الحيلة هز كتفيه وأنطلق إلى الخارج.. كان ذلك الشاب هو كوكوناس بعينه..

وقد لقي جوادًا أصيلًا في إنتظاره أمام الباب.. فامتطاه وراح يعرض على بعض المتسكعين مقدرته في الفروسية..

وفتحت نافذة في الطابق الثاني، وهتفت دوقة دي نيفرز تخاطب صديقًا معها:

– أنظر.. ألا ترى إلى صديقنا كوكوناس كيف يعالج الجواد ببراعة الفارس المحنك؟

ثم أغلقت النافذة، وأسرعت إلى الخارج، فأمتطت جوادها وحيت كوكوناس بإبتسامة عذبة ..

وانطلق الجميع إلى قصر اللوفر.

الفصل الثاني عشر

وبدأ الموكب الملكي سيره في الساعة الثانية بعد الظهر.. وما كانت العين لتقع وقتئذ على غير الثياب الفاخرة المزركشة والمجوهرات الثمينة المتألقة، والجياد الأصيلة المطهمة ..وكانت جماهير الشعب المتحمس تتبع الركب عن كثب.. وهتافاتها تشق عنان السماء..

وكان الملك شارل قد دعا هنري دي نافار لمرافقتهم، وهو يتوقع – مثل أمه كاترين – أن يرفض هنرى الذهاب.. ولكن لشد ما كانت دهشتهما حين أعلن ملك نافار إغتباطه بالإنضمام إلى الركب الملكي..

* * *

واجتمعت مرجريت مع صديقتها هنريت (دوقة دي نيفرز) أثناء الرحلة.. وكانت كلتا المرأتين مثالًا للجاذبية والسحر وقد أبدت من ضروب العناية بالمظهر.. والتفنن في إختيار الثياب الأنيقة المنسجمة مما جعلهما موضع إعجاب الرجال وحسد النساء..

سألت مرجريت: – حسنًا يا هنريت. هل من أخبار؟

- كلا يا مولاتي.. ولكن ماذا حدث للبروتستانتي؟..

– لقد عثرت له على مأوى أمين.. أخبريني ماذا فعلت بصديقك السفاك؟

– تصوري يا مولاتي أن هذا البطل الشجاع أبى إلا أن ينضم إلى

الموكب.. رغم أنه لا يزال يعاني من جراحه ولم يسترد قواه بعد تمامًا..

وفي هذه اللحظة hرتفعت صيحات الجماهير تهتف للدوق دالنسون.. فألتفتت المرأتان خلفهما.. فوقع بصرهما على كوكبة من الفرسان قادمة في أثر الركب.. وعلى رأسها فارس جميل في ثياب الأمراء.

وهتفت الدوقة: آه.. هو ذا دوق دالنسون قد أقبل.. فقالت مرجريت:

– أسرعي يا هنريت. وحذري ذلك الفارس الذي يعترض طريق حاشية الدوق وإلا وطئته خيولهم بأقدامها..

فألقت الدوقة ببصرها إلى حيث أشارت مرجريت.. فرأت فارسًا من أتباعها يحاول أن يخترق الطريق ليصل إليها.. فهتفت في دهشة:

– يا لله.. إنه كوكوناس..

وكان أحد أتباع دوق دالنسون قد خرج إلى عرض الطريق وتصدره متعمدًا الإصطدام بجواد كوكوناس، وكاد الأخير أن يسقط من فوق جواده لو لم يتشبت بمعرفة الجواد..

وهمست الملكة في صوت خافت:

- يا إله السموات.. إنه مسيو دي لامول..

فصاحت الدوقة في دهشة:

- أهو ذلك الشاب الجميل الممتقع الوجه؟

– نعم.. نعم.. لقد كاد يوقع صديقك عن ظهر جواده.

فصاحت الدوقة منفعلة:

– أنظري.. لابد أن شيئًا مخيفًا سيحدث بينهما. أنظري كيف يتبادلان النظرات..

والواقع أن الشابين راحا يتراشقان بنظرات تجلى فيها الحقد والغضب معًا..وأدار لامول بصره حوله.. ثم هز رأسه، وكأنما أدرك أن المكان لا يصلح لتصفية الحساب، فلكز جواده في بطنه.. وأسرع بالإنضمام إلى حاشية دوق دالنسون..

وظل كوكوناس جامدًا في مكانه بضع لحظات.. ثم حذا حذو غريمه.. وأنطلق بجواده حتى لحق بحاشية دوق دي نيفرز..

غمغمت مرجريت وهي تصرف بأسنانها:

– يا الله.. لقد خدعني ذلك الأحمق.. يا له من جبان عنيد ..

فقالت الدوقة شامتة: إنه جميل على كل حال..

وكان دي لامول في تلك اللحظة قد تقدم بجواده حتى واجه الملكة.. فخلع قبعته، وأحنى رأسه حتى مس رأس الجواد ولكن مرجريت أشاحت بوجهها وفي عينيها نظرة تدل على الإحتقار..

فقالت الدوقة: ما أقساك يا مولاتي.. إنه على وشك الإغماء..

والواقع أن دي لامول قد شعر بما هنالك. وأدرك الإهانة الموجهة

إليه، فامتقع وجهه، وكاد ينحدر عن جواده، ولكنه أستجمع قواه وعاد أدراجه..

* * *

ووصل الموكب إلى التل.. وتقدم الملك شارل وأمه ودوق دالنسون وهنري دي نافار حتى صاروا على مسافة قريبة من موضع العامود الذي صلبت فوقه الجثة.. ثم كفوا عن التقدم.

كان المنظر مؤثرًا.. ولم يكتف القتلة بصلب جثة الأميرال التعس فعلقوا الرأس في «خطاف» شد إلى عامود آخر بجانبه الجثة..

وكانت الجثة في حالة تعفن شديد.. لم ترتح لمنظرها الأعين.. فاستدارت الرؤوس.. ولم تطق رائحتها الأنوف فارتفعت إليها الأيدي بالمناديل.. ولم تطق كاترين البقاء.. فطلبت إلى أبنها أن يصدر أمره بالعودة إلى اللوفر..

* * *

وبعد عشر دقائق أقفر المكان من زائريه.. وخيم على المكان سكون عميق.. بيد أن شخصًا كان قد تخلف عن الركب.. وقف يجيل بصره في أرجاء المكان كأنما يبحث ش معين..

وقد بحثت دوقة دي نيفرز عن هذا الشخص بين رجال حاشيتها.. فلما لم تعثر به، أأنتابها القلق لغيابه..

ولم تكن الدوقة وحدها هي التي بحثت عن كوكوناس.. فإن دي

لامول راح يدير ببصره حوله باحثًا عن غريمه.. ولكن حظه لم يكن بأفضل من حظ الدوقة..

وخطر له أن يلقي نظرة إلى الخلف، وحينئذ أبصر بكوكوناس يذرع المكان أمام جثة الأميرال، فأنسلخ من الجماعة وعاد أدراجه متخذًا طريقًا دائريًا..

ولم يخف غرض دي لامول على الدوقة.. فأسرعت ونبهت مرجريت إلى الخطر.. وأنتهزت المرأتان أول فرصة سنحتت لهما.. وأنفصلتا – مع جيلون ورئيس حرس الدوقة – عن الموكب، ثم عادوا إلى التل متخذين الطريق الدائري الذي سلكه دي لامول..

ووصلوا إلى دغل قريب.. فترجلوا. ثم تقدموا حتى وجدوا فرجة صغيرة عند حافة الدغل.. فربضوا هنالك..

ومد دي لامول يده، ولمس كتف كوكوناس، فأدار هذا رأسه بحركة سريعة..

هتف كوكوناس:

- آه.. إذن فأنا لم أكن حالمًا، وأنت لا تزال حيًا ترزق؟

- نعم يا سيدي.. إنني حي أرزق، ولو أن ذلك ليس نتيجة خطأك..

فأنبعث من حلق كوكوناس ضحكة تهكمية مخيفة.. وصاح:

– من عجب حقًا أن يترك هيجونوتي مثلك مطلق السراح.

فقال دي لامول في هدوء:

– أنت مخطئ يا سيدي، فقد أقسمت أن أعتنق الكاثوليكية إذا نجوت من المعركة.. وأن أشنقك فوق أحد هذه الأعمدة القائمة فوق الربوة..

– ماذا تقول؟ أتريد أن تصلبني حيًا.. لا شك أنك فقدت صوابك؟.

- كلا يا سيدي.. إنني على تمام صوابي.. وسأدفن حسامي أولًا في قلبك.. ثم أفصل رأسك القبيح وأعلقه هناك.

فأنتفض كوكوناس من الغضب، وصاح وهو يترجل عن جواده:

– وجهي القبيح! يا للقحة.. ترجل يا سيدي الكونت ودافع عن نفسك..

وترجل دي لامول.. وأمتشق الرجلان حساميهما.. وتأهبا للقتال.. ورفع كل منهما ذراعه.. وأفلتت من فميهما معًا صرخة مكتومة تدل على الألم، كانت جراحهما ما زالت تؤلمهما..

ولم تخف آلام الشابين على أصحابهما، فضحكوا، ولكنهم لم يلبثوا أن أدركوا خطورة الموقف.. فصاحت مرجريت:

– ألا كفا عن القتال بحق السماء أيها السيدان!

ولكن الدوقة قبضت على ذراعها بعنف.. وقالت: دعيهما

وشأنهما ..وتقارع السيفان.. وسرعان ما عرف كوكوناس أنه يقاتل ندًا لا يقل عنه دراية بفنون القتال، فلم يلبث أن تقهقر، وظل يتقهقر، حتى وصل إلى حافة الدغل..

هتفت الدوقة: تشجع..

وغمغمت مرجريت: مسكين يا دي لامول..

وسمع دي لامول صيحة الملكة فألقى عليها نظرة كلها حب ثم أنقض على غريمه بخفة النمر..

وارتفعت يد كوكوناس، ثم هوت على كتف دي لامول.. فأنبثق الدم بغزارة، ولطخ صدريته البيضاء.. وترنح دي لامول، واستجمع قواه.. ثم دفن حسامه في صدر غريمه بقوة حتى نفذ النصل من ظهر الشاب التعس..

وأنطلقت صرخات الرعب من الأفواه.. وظل الشابان جامدين في مكانهما لحظة. ثم هويا إلى الأرض فاقدي الشعور، والدماء تتدفق من جراحهما بقوة..

صاحت مرجريت في حزن:

– لك الله يا دي لامول.. لقد شككت في شجاعتك.. فمعذرة..

وانهمرت الدموع من عينيها ..وغمغمت الدوقة.. مسكين يا صديقي الباسل..

وسمع الجميع قرقعة عجلات مركبة تقترب، فأسرع الضابط ونادي الحوذي.. ولم يكد بصر الأخير يقع على الجريحين حتى هتف في ذعر:

– يا لله.. إن جراحهما مميتة..

وسألت مرجريت: من أنت يا سيدي؟..

فأجاب الرجل.. وهو يحني قامته بإحترام:

– إنني كابوس جلاد باريس.. وقد أستدعيت خصيصًا لشنق بعض الهيجونوت..

وقالت الملكة: وأنا ملكة نافار يا سيدي أرجو أن تحمل هذين الجريحين إلى قصر اللوفر..

ونقل الجريحان إلى جناح دوق دالنسون، وأستدعى الدكتور أمبرواز بارييه لتضميد جراحهما..ولم يستطع الطبيب أن يتكتم حالة كوكوناس الخطرة.. وقال إن الأمل ضعيف في شفائه.. فحزنت الدوقة لذلك حزنًا عظيمًا.. وتوسلت إلى الطبيب ألا يدخر وسعًا في دفع الخطر عنه..

وبالرغم من التكتم الشديد الذي تمسكت به مرجريت وصاحبتها.. وإختلاق قصة وهمية عن الأسباب التي أدت إلى إصابة الشابين بهذه الإصابات الخطرة. فإن القصة الحقيقية لم تلبث أن شاعت على لسان ضباط حرس دوقة دي نيفرز وأصبح الشابان موضع حديث الجميع وعطفهم..

*** *

وبالرغم من أن الغريمين كانا يحتلان غرفة واحدة.. إلا أن دي لامول تجاهل وجود رفيقه الذي ظل يعالج سكرات الموت أيامًا طويلة..

وفتح كوكوناس عينيه أخيراً.. وراح يديرهما في أرجاء الغرفة.. ولم يكن يرى دي لامول حتى أرتسمت على وجهه دلائل الحقد والبغضاء.. ولشد ما دهش كوكوناس حين رأى غريمه ينهض من فراشه ذات يوم ويسير متكئًا على ذراع الطبيب.. حتى إذا أنقضت بضعة أيام رآه يسير بمفرده في الغرفة وهو يسترد قواه سريعًا..

وكان كوكوناس في حالة سيئة من تأثير الحمى.. فأول حركات غريمه تأويلًا خاطئًا.. وظن أنه يأتمر به ليقتله..

فأجمع أمره على التأهب للثأر منه، وحاول الوصول إلى الجسيمة كانت تمنعه من الحراك، غير أنه شد على نواجده حتى لا يغلبه الألم على أمره وبذل كل جهده حتى أستطاع أن يظفر بحسامه ويخفيه تحت غطاء فراشه للحظة الحاسمة..

وكان دي لامول قد غادر الغرفة منذ ساعتين.. وعندما كان يرافقه رجل قصير القامة، كث اللحية.. يرتدي صدرية من الجلد تنتشر فوقها بقع كبيرة من الدماء..

وإذ شعر كوكوناس بإقتراب الرجل القصير من فراشه.. أغمض عينيه، وحبس أنفاسه..

وألقي الخادم نظرة سطحية على الشاب.. ثم هز رأسه وقال:

– إن حالته لم تتحسن بعد.. وأرى أن نسعفه بالعلاج أو تزول عنه آلامه..

أصغ إلي يا سيدي.. سأرسل إليك الدواء في المساء.. فعليك أن تعطيه منه جرعة عند منتصف الليل، وأخرى بعد ساعة من الأولى والثالثة في الساعة الثانية..

فقال دي لامول: حسنًا يا سيدي..

- ولكن حذار من التسويف وإلا فقد الجريح حياته..

* * *

وبر الرجل بوعده فأرسل الدواء في المساء. وظل دي لامول يذرع الغرفة جيئة وذهابًا بخطوات مضطربة، وكوكوناس يرقبه من طرف وخفي، ودقت الساعة منتصف الليل.. فأقترب دي لامول من كوكوناس وهو يحمل له قدحًا مملوءًا بالدواء.. وخيل للجريح أن غريمة يهدده بقبضته، فمد يده يتحسس حسامه ولكنه شعر بألم شديد في ذراعه، فتركها تسقط إلى جانبه وهو يتأوه..

ورفعه دي لامول بين ذراعيه.. وقال:

- هيا أشرب يا صديقي المسكين..

وأطاع كوكوناس صاغرًا. ولم يكد السائل يستقر في جوفه حتى أحس بالدم يتدفق في عروقه.. وبالقوة تعاوده وبالحمى تفارقه..

وتدحرجت دمعة على خد كوكوناس.. وغمغم:

– يا إلهي.. إذا قدر لي أن أعيش.. فإني سأكون لك خير صديق وأفضل صاحب..

* * *

وبعد بضعة أيام برأ كوكوناس من جراحه، واستطاع أن يقف على قدميه.. وينشطهما متوكئًا على ذراع دي لامول، وفي خلال ذلك لم تنقطع جيلون وضابط الدوقة عن زيارة الجريحين للإطمئنان عليهما والإستفسار عن حالتهما، ولكن أحدًا منهما لم يذكر أنه رسول سيدته..

وعلى مرور الأيام توثقت العلاقة بين دي لامول وكوكوناس حتى رفض الأول أن يغادر القصر أو يبرأ صديقه برءًا تامًا، وحدث يومًا أن أستيقظ الأثنان، فوجدا بجانبهما ثيابًا جديدة فاخرة، وكيسي نقود منتفخين بالذهب..

بدأت آمالهما تنتعش.. وقررا أن يغادرا القصر بعد ظهر اليوم بالذات.. فإذا كانت الساعة الثانية، أنطلقا من اللوفر لزيارة ذلك الشخص المجهول الذي أستطاع أن يعيد الحياة إلى كوكوناس في ليلة واحدة بينما كاد يقتله طبيب الملك بعقاقيره التي لا تحصى.

وقد سار دي لامول بصديقه حتى وصلا إلى دار الحقانية، ثم أنعطفا في طريق جانبي يفضي إلى السجن.. ودهش كوكوناس ولكنه لزم الصمت.. حتى إذا سارا بضع دقائق وقف دي لامول أمام منزل قذر في زقاق معتم

أشبه بالبؤر وأكراخ اللصوص، وطرق الباب.. فأطل رأس من نافذة في الطابق الثاني. ثم صاح صائح:

– آه.. أهذا أنتما ؟..

وفتح الباب، وبرز على عتبته ذلك الرجل المجهول الذي أنقذ حياة كوكوناس.. وبهت الشاب، وتحول إلى صديقه وسأله: من هذا الرجل؟

فأجاب دي لامول: إنه منقذك يا صديقي العزيز.. إنه هو الذي أحضر لك ذلك السائل السحري العجيب..

فهتف كوكوناس في حماس: إذن فهو صديقي..

وبسط يده، ولكن الرجل تراجع إلى الخلف وأبى أن يتناول تلك اليد التي أمتدت لمصافحته..

وصاح: سيدي.. إنني لا أستحق كل هذا الشرف.. ولا أدري كيف أشكرك.. ولكنك لو عرفت من أنا لقبضت يدك ورفضت أن تصافحني..

فدهش كوكوناس.. وقال:

– حقًا، ولكني أدين لك بحياتي حتى ولو كنت الشيطان بعينه.

ـ ولكني بشر ولست بشيطان.. ولو أني أعتقد أن كثيرين ممن وقعوا تحت قبضتي كانوا يؤثرون أن يروا الشيطان على رؤيتي، ألم تسمع بأسم كابوش جلاد باريس يا سيدي؟

فجذب كوكوناس يده على عجل، وأمتقع وجهه، فأستطرد الرجل:

– ألم أقل ذلك يا سيدي؟..

– كلا. كلا. إنني على إستعداد لمصافحتك. وهاك يدي. ومد يده إلى الجلاد، وصافحه بحرارة، ثم دفع إليه بحفنة من الذهب..

وقال: إذن فأنت الجلاد.. يسرني أننا أصبحنا أصدقاء.

فقال كابوش:

– إنني لا أتولى شئون العمل جميعها بمفردي، فكما أن لأمثالكما من السادة ذوي المكانة خدمًا وعمالًا.. فإن لي مساعدين يقومون بالأعمال التمهيدية، اللهم إلا إذا كان المحكوم عليه شخصًا ذا حيثية، فإنني أفعل كل شيء بنفسي.

فأرتجف الشابان، ولكن كوكوناس قال باسمًا:

– إذن اتفقنا، فعندما يجيء دوري للصعود إلى المشنقة فلن أسمح لأحد غيرك بفصل عنقي

– وأنا أعدك بذلك يا سيدي..

وتصافح الرجلان كأنما أبرما صفقة هامة.

الفصل الثالث عشر

كان رينيه صانع عطور الملكة كاترين يروح ويغدو في معمله بخطى قلقة مضطربة وكان يتوقف بين الفينة والفينة ليصيخ السمع.. ثم يعود إلى ذرع القاعة..

وفجأة.. وقف أمام ساعة معلقة في الجدار وغمغم:وسمع صوتًا صادرًا من ناحية قنطرة سان ميشيل.. فأسرع إلى أنبوبة في الجدار.. ووضع أذنه فوقها.. ولم يلبث أن قال:

– كلا.. إنها ليست هي.. ولا هما.. هذه خطوات رجال وها هم يقفون ببابي..

وفي هذه اللحظة طرق الباب فهبط الدرج.. ووضع أذنه فوق أنبوبة بالباب.. وسأل:

– من هناك؟

– إنني الكونت أنيبال دي كوكوناس..

وقال صوت آخر:

– وأنا الكونت ليراك دي لامول..

- حسنًا.. صبرًا لحظة.

وسحب المزلاج على الأثر، وفتح الباب ودعاهما إلى

الدخول.ودخل الشابان فأغلق رينيه الباب خلفهما ثم قادهما إلى قاعة واسعة تنتشر فيها الجماجم، والعظام البشرية وشتى الأدوات المختلفة الأحجام والأشكال.. وكان دي لامول ممتقع الوجه بادي الإضطراب بعكس زميله الذي كان مرحًا بادي الإنشراح..

وجلس الشابان.. ووقف رينيه ينتظر بداية الحديث.

قال كوكوناس:

– إنك رجل نابه يا مسيو رينيه.. وقد جئت لأشكو إليك من ضيق التنفس الذي أصبح يمنعني من إمتطاء صهوات الجياد أو المبارزة أو الأكل بشهية..

فوضع رينيه أذنه فوق صدر الشاب.. وأصغى إلى تنفسه بإنتباه.. ثم قال:

– بل ستبرأ من علتك يا سيدي

– أحقًا تقول؟

– نعم يا سيدي..

– إذن أخبرني.. هل أنا صريع الحب؟

فأجاب رينيه:

– نعم يا سيدي..

– وكيف عرفت ذلك؟

- من السؤال نفسه..

- يا الله.. إنك على حق. ولكن من أحب؟

- المرأة التي تقلدت في الإكثار من قسمك الذي تكثر من القسم به..

فذهل كوكوناس.. وهتف:

– الواقع أنك رجل مدهش يا سيدي.. والآن تقدم يا عزيزي دي لامول.. لقد جاء دورك..

وغمغم دي لامول:

– أما أنا فأعترف بأنني صريع الهوى.. ولكني أريد أن أعرف هل أنا محبوب؟

فهز رينيه كتفيه hستخفافًا.. وقال:

- إن المسألة في منتهى البساطة.

ونهض إلى تمثال شمعي صغير، فقدمه إلى دي لامول..

وقال: أحصر كل تفكيرك فيمن تحب..

وسمع الجميع طرقًا خفيفًا على الباب الخارجي.. فأسرع رينيه، ووضع أذنه على الأنبوبة.. ثم غادر الغرفة.. وبعد عدة لحظات سمع الشابان وقع أقدام خفيفة في الطابق الأسفل.

وعاد رينيه، وهو يحمل في يده التمثال، ولشد ما كانت دهشة دي

لامول حينما رأى وجه التمثال وقد أتخذ صورة وجه مرجريت، وفوق رأسه تاج ملكي..

وسأل رينيه:

– أتريد أن تكون محبوبًا إلى الأبد من الأميرة الملكية..

- نعم.. ولو أدى الأمر إلى التضحية بذاتي..

فمد صانع العطور يده إلى وعاء من الأوعية.. وذر بضع قطرات من سائل فيه فوق التمثال وهو يغمغم ببضع كلمات لاتينية ..

وأخذ دي لامول، وسأله عن معنى ذلك.. فأجاب رينيه:

- إنني (أعمد) التمثال بإسم مرجريت..

– ولماذا؟

- لأجعل بين قلبيكما اتصالًا روحيًا..

وعمد رينيه إلى ورقة حمراء، وكتب فوقها بضع كلمات ثم جاء بإبرة دقيقة غرسها في الورقة. ثم دفن الإبرة في قلب التمثال.. وكم كان عجيبًا أن تظهر نقطة دم مكان ثقب الإبرة. وأحرق رينيه الورقة.. فامتلأت الحرارة إلى الإبرة، ومن ثم تجمدت نقطة الدم..

وقال صانع العطور: وهكذا سيحرق حبك قلب المرأة التي تحب..

فضحك كوكوناس.. في حين تصبب العرق البارد فو جبين دي لامول..

واستطرد رينيه:

- والآن.. ضع شفتيك فوق شفتي التمثال وقل "مرجريت.. إنني أحبك.. تعالي يا مرجريت.. تعالي"

فأطاع دي لامول. وحينئذ سمع الجميع وقع خطوات تقترب من باب الغرفة.. فأسرع كوكوناس وأزاح الستار.. ولم يلبث أن هتف في دهشة:

– يا لله.. إنها الدوقة دي نيفرز وجلالة الملكة مرجريت.

وخيل لدى لامول أنه يحلم.. ولم يسلم كوكوناس من هدا الشعور ولكنه ألقى بنفسه عند قدمي الملكة.. وهتف ببساطة:

– مولاتي.. في هذه اللحظة العجيبة، أسمحي لي أن أعبر لك عن إحترامي. وأرجو أن تتنازلي بقبول حب صديقي البائس الكونت دي لامول..

فأغرقت الملكة في الضحك، ومدت يدها إلى كوكوناس في عطف.. فقبلها هذا في احترام وقال بلهجة مرحة:

– والآن تعال هنا يا (شبح) صديقي دي لامول..

وتقدم دي لامول وهو كالمأخوذ.. فوضع كوكوناس يده على كتفه وقال: والآن .. هل لك أن تصل بين روحي.. وروح حبيبتي ردًا لجميلي؟.

فركع دي لامول عند قدمي الدوقة. وقال:

– مولاتي.. من عجب حقًا أن يجد صديقي كوكوناس من نفسه

القدرة على إخفاء العاطفة المتأججة بين جوانحه، فأسمحي أن أكون شفيعة لديك لعلك ترثين لحاله..

ومدت الدوقة يدها إلى دي لامول.. فقبلها في احترام.

* * *

ونفذ رينيه إلى الغرفة في تلك اللحظة.. وهمس:

- إن الملكة الوالدة تصعد الدرج السري..

فاندفعت مرجريت وأصحابها إلى الخارج، إندفاع الطير من جعبة الصياد..

* * *

وأدارت كاترين المفتاح في قفل الباب السري، ثم نفذت إلى الغرفة وألقت حولها نظرة تنطوي على الحذر والريبة..

وسألت: هل أعددت غرفة الضحايا؟

فأجاب رينيه: نعم يا مولاتي.

– إذن هلم بنا..

وأنطلقا إلى غرفة صغيرة معتمة. فأضاء رينيه مصباحًا صغيرًا معطرًا. وكانت بالغرفة دجاجتان سودوان منكمشتان في أحد الأركان.. فأقترب رينيه في إحداهما. وقبض عليها. ثم شدها إلى حلقتين مثبتتين في مذبح صغير. وصدرها إلى أعلا.

ومدت كاترين يدها.. وألتقطت مدية حادة. ثم هوت بها فوق صدر الدجاجة فشطرته إلى شطرين..

وصرخت الدجاجة ثلاث مرات.. ثم خمدت حركتها.

فهتفت كاترين في جزع: يا لله! دائمًا ثلاث صرخات. ثلاث علامات على الموت!

ثم شقت بطن الطائر. وصاحت:

– والكبد دائمًا إلى اليسار. نفس الميل.. ونفس الإتجاه.. دلالة على ثلاث ميتات مفزعة يعقبها إنهيار عرش. هذا مريع يا رينيه.

– إذن دعينا يا مولاتي لا تجري التجربة الأخرى.

وقبض على الدجاجة الثانية وشد وثاقها إلى الحلقتين. وبضربة واحدة فصلت كاترين العنق عن الجسد.

وفتحت الدجاجة منقارها ثلاث مرات دون صوت. ثم اختلج جسمها. وسكنت حركته.

فهتفت كاترين في يأس:

– إنها لم تصرخ. ولكنها تأوهت ثلاثًا! سيموت أبنائي الثلاثة تباعًا ويرتقي على أثرهم هنري دي نافار اللعين العرش بإسم هنري الرابع.

ومدت يدها، فأخذت رأس الدجاجة. وأخرجت المخ بعناية. ثم نظرت إلى موضع اتصال جزئية وصرخت في فزع:

– أنظر يا رينيه أن حرف «هـ» مطبوع فوق المخ بوضوح.. ألا فلتحل عليه اللعنة!

فقال رينيه بهدوء:

– مولاتي. لقد كتب في سجل القدر أن يحكم هنري دي نافار فرنسا..

فبدأ التفكير على وجه كاترين. ثم سألت:

– هل تذكر يا رينيه قصة ذلك الطبيب الذي قتل أبنته وحبيبها بواسطة سم فتاك لم يستطع الطب أن توصل إلى معرفته أو اكتشافه؟!

– نعم يا مولاتي.. وإن لدي كتابًا عن هذا الحادث .

– إذن علي به..

وجلست كاترين للإطلاع على فحوى الكتاب وبعد فترة وجيزة رفعت رأسها وغمغمت:

– حسنًا .. هذا كل ما أريد معرفته.

وراحت تذرع الغرفة جيئة وذهابًا.. ثم توقفت، ونظرت إلى رينيه بإمعان. وسألت:

- أعترف أنك أعطيت مدام دي سوف شيئًا جعلها تقع فريسة حب هنري اللعين.

فقال رينيه في دهشة:

– إنك على خطأ يا مولاتي، وأقسم ذلك على ذلك.

– إذن لابد أن في الأمر سحرًا. فإن هذا الأحمق يلاحقها أينما ذهبت.

ونفذا إلى معمل العطور.. فسألت الملكة الوالدة:

– وبهذه المناسبة.. هل أعددت لي «الدهان» الذي أطلي به يدي وشفتي في الشتاء؟

– نعم يا مولاتي.. وسأقدمه لجلالتك غدًا.

فقالت كاترين في غير مبالاة:

– الواقع أن لمدام دي سوف شفتين جميلتين ويدين بغستين.. أخبرني أي نوع من الطلاء تستعمل؟

– لا أعلم.. ولكنها تنتظر مني نوعًا جديدًا من تحضيري لتجربته وفي نيتي أن أقدم لجلالتك صندوقًا من هذا "الطلاء".

فأطرقت كاترين برأسها قليلًا.. ثم غمغمت:

- هل لك أن تريني هذا الطلاء يا رينيه؟

فتقدم صانع العطور من درج صغير، وفتحه. ثم أخرج منه ستة صناديق صغيرة وضعها أمام الملكة الوالدة.

وفتحت كاترين أحد هذه الصناديق.. فأخذت أنفها رائحة عطرية جميلة..

قالت: هل أستطيع أن أجد عندك قليلًا من الطلاء ليدي.. إذ لم يعد لدي منه شيء؟

وعندما تحول رينيه لإحضار الطلاء. أنتهزت كاترين الفرصة، وأخفت أحد الصناديق الستة في ردائها.

ولم تخف فعلة كاثرين على رينيه، ولكنه لزم الصمت.

* * *

وعندما انصرفت كاترين.. وعاد رينيه ليجمع صناديقه وجدها تنقص واحدًا.

الفصل الرابع عشر

لم تخطئ كاترين حين قالت لرينيه أن ملك نافار عاد سيرته الأولى من ملاحقة مدام دي سوف.. فقد بدأ هنري ينسى حذره، ويتردد على جناح عشيقته دون حرص، حتى عادت الشائعات إلى الظهور، وبدأت الألسنة تلوك علاقة الملك بزوجته، وقد ذهب هنري لزيارة عشيقته في الليلة التالية للحوادث التي مر ذكرها واستقبلته شارلوت في مخدعها، وهي ترتدي ثيابًا حريرية شفافة زادتها بهاء وجمالًا.

قال هنري في إكتئاب:

– إني أريد أن ألقي عليك سؤالًا، ورجائي أن تجيبيني عنه بصراحة لقد خيل إلي أن حبك يزداد عنفًا وثورة في الأيام الأخيرة، ولكنها ثورة توحي إلي بأن للملكة كاترين ضلعًا في حدوثها.

فأحمرت وجنتا شارلوت.. وقالت هامسة:

– يا سيدي ومولاي. أرجو ألا يرتفع صوتك عند ذكر اسم الملكة الوالدة..

فأردف الملك غير عابئ بتحذيرها:

ـ إني ما زلت مصرًا على أن قلبك الآن أصبح خاضعًا لأوامر كاترين دي مدسيس ونواهيها. ولكن ثقي أن ذلك لن يؤثر على حبي.

فأغرورقت عينا شارلوت بالدموع. ولزمت الصمت، ورفع الستار في تلك اللحظة، وبرز رأس داريول وصيفة شارلوت .

قالت: سيدتي.. لقد جاء مسيو رينيه صانع عطور الملكة، وهو يريد أن يراك.

وهمت مدام دي سوف بالإعتذار، ولكن هنري منعها من ذلك. وقال:

– بل دعيه يدخل. فإني واثق أن وجودي هنا ليس بخاف عليه. بل إني أعتقد أن مجيئه في هذا الوقت بالذات ليس من قبيل الصدفة.

* * *

ونفذ رينيه من الباب وهو يلقي نظرة فاحصة حوله. فرأى مدام دي سوف جالسة أمام منضدة الزينة. وهنري شبه مضطجع فوق أريكة وضعت في ركن معتم. وبدأ صانع العطور حديثه بالإعتذار عن مجيئه في تلك الساعة المتأخرة.

فقالت شارلوت:

– أجئت تعتذر لأنك توانيت في إرسال طلاء الشفتين حتى اليوم؟ إني على كل حال أشكرك على « العينة» التي أرسلتها إلي هذا المساء.

وبدت الدهشة على وجه رينيه. ونظر إلى الصندوق الصغير الموضوع أمام الوصيفة الحسناء فإذا به نفس الصندوق الذي فقد من معمله، قال:

ـ حقًا. لقد نسيت ذلك. ولكن هل أستعملت هدا «الطلاء» يا سيدتي؟

– كلا. ولو أني كنت على وشك تجربته عند قدومك.

وبدأ التفكير على وجه رينيه، ولم يخف إضطرابه على هنري فسأل:

– ماذا هنالك يا رينيه؟

– لا شيء يا مولاي. لا شيء.

ولكن هنري كان خبيرًا بطبائع النفوس، فأدرك أن وراء الأكمة ما وراءها! وأن صانع العطور يخفي أمرًا خطيرًا.

قال:

– أصغ إلي يا رجل، يخيل إلي أن لديك شيئًا تخفيه. فلا تحاول الإنكار، فإن ملامحك تنبئ عن سريرتك.

وكانت شارلوت ترقب ما يدور بين الرجلين بلهفة، وخشيت أن يتطور الموقف بينهما، فقالت لرينيه:

– الواقع أني عاجزة عن شكرك لهديتك الثمينة.. دعني أجربها في حضورك..

وغمست إصبعها في الماء.. ثم أنتقلت إلى الطلاء وتناولت قليلًا منه ورفعت يدها إلى شفتيها.

وأنتفض رينيه.. ورفع يده كأنما ليحول بينها وبين طلاء شفتيها.

ولم تفت هنري حركة صانع العطور. ولشد ما كانت دهشته حين رآه يقبض على ذراع البارونة قبل أن تبلغ فمها.

وصاح رينيه بصوت مرتجف:

- لحظة واحدة يا سيدتي.

– لماذا؟

– لأن لدي تعليمات بشأن هذا الطلاء لابد من إطلاعك عليها.. ولكن أرجئ ذلك مؤقتًا ريثما أفرغ من حديثي مع جلالة ملك نافار.

ففغرت شارلوت فاها دهشة. ونهض هنري واقفًا، وقبض على ذراع البارونة. ثم رفعها إلى شفتيه. كان خاطرًا مخيفًا قد ومض بذهنه .وذعر رينيه وصاح في لهفة:

– صبرًا لحظة يا مولاي! أرجو أن تتكرم البارونة أولًا بإزالة الطلاء عن أصبعها بهذا الصابون الفاخر.

وقدم إلى شارلوت قطعة من الصابون ذات لو أخضر.ثم ركع على ركبة واحدة أمامها وهو ممسك بوعاء الماء.

فصاح هنري في مزيج من الدهشة والإرتياب:

– الواقع أن سلوكك هذا يدعو إلى الدهشة والإرتياب يا مسيو رينيه.

وهتفت شارلوت وهي تغسل يديها:

- يا الله أن لهذا الصابون رائحة مدهشة.

وعاد هنري إلى مقعده.

* * *

قال رينيه لملك نافار:

- مولاي.. لقد أردت أن أتحدث إليك من أمر شغل تفكيري طويلًا.

فابتسم هنري. واستطرد صانع العطور:

- مولاي.. لقد عاد أحد أصدقائي حديثًا من «فلورنسا».. وهذا الصديق قضي وقتًا طويلًا في دراسة علم الفلك.

- حسنًا

- ولشدة شغفه بهذا الفن فإنه اهتم بإستطلاع مستقبل الرجال البارزين في أوربا.

فقال هنري في هدوء: أحقًا تقول؟

- نعم يا مولاي. وقد اهتم ذلك الصديق بمستقبل جلالتكم بنوع خاص بصفتكم أحد أحفاد سان لويس العظيم. وقد خرج من بحثه على أن مستقبلًا باهرًا في انتظار جلالتكم.

فقال هنري في تهكم:

- أكبر الظن أن صديقك من أولئك الإيطاليين المتملقين.

-

كلا يا مولاي. إن صديقي أبعد الناس عن التملق. وقد أكد لي أن جلالتكم ستنصبون ملكًا على فرنسا.

فلمعت عينا هنري ببريق خاطف. وركض قلبه بين ضلوعه. ولكنه قال بصوت حاول أن يجعله طبيعيًا:

– آه.. آه.. وصديقك الآن يطلب عشرة جنيهات لتنبؤاته.. أليس كذلك؟

فقاطعه رينيه قائلًا:

– مولاي. أرجو أن تسمح لي بالإستمرار.

فقال هنري في تهكم: – حسنا.. ماذا؟

– وقد عاد صديقي من فلورنسا.. وأعاد التجربة. فخرج بنفس النتيجة. وعندئذ باح لي بسره.

فسألت شارلوت في إهتمام:

- وهل هذا السر يتعلق بجلالة الملك؟

– نعم يا مولاتي..

فقالت شارلوت: وما هو هذا السر..؟

فأردف رينيه وهو يزن كلماته قبل النطق بها:

– إن هذا السر يتعلق بحوادث التسمم التي أنتشرت في البلاط.

فرفع هنري حاجبيه دهشة.. وسأل:

– وهل يعرف صديقك شيئًا عن هذه الحوادث؟ ثم إذا كان حقًا على علم بشيء منها، فلماذا أراد أن يبوح لي بذلك شخصيًا؟

– لأنه يرجو أن يظفر بشفاعة جلالتكم!

– شفاعتي!!

– نعم يا مولاي.. فهو يأمل أن تتنازلوا ببذل نفوذكم لدى الأمير كونديه حتى لا يناصبه العداء ويأخذ عليه السبل.

فقال هنري في هدوء وإتزان:

– الواقع إنني لا أفهم ما تعني.. فهلا أفصحت عن غرض صديقك.

- مولاي.. ستفهمون جلالتكم المسألة تمامًا متى عرفتم أن صديقي هذا على علم بتفصيلات محاولة تسميم الأمير كونديه.

فتظاهر هنري بالدهشة البالغة وهتف:

– ماذا تقول؟ هل حاولوا تسميم الأمير كونديه؟ ومتى كان ذلك؟!

وحدج رينيه محدثه بنظرة ثابتة.. وأجاب:

– كان ذلك منذ ثمانية أيام يا مولاي..

فسأل الملك:

– وهل كان ذلك من تدبير عدو؟

– نعم يا مولاي.. عدو تعرفونه جلالتكم كما يعرفه جلالتكم..

فقال هنرى:

– آه.. لقد تذكرت الآن. ولو أني لا أذكر التفاصيل ولابد أن صديقك قد أطلعك عليها.؟

– نعم يا مولاي.. فقد حدث أن أهديت إلى الأمير برتقالة من نوع نادر.. ولكن تصادف وجود طبيب الأمير وقت تقديم البرتقالة فأخذها.. وقربها من أنفه.. ولم يمض يومان حتى تورم وجهه.. ثم مات بعد أربعة أيام..

فهز هنري رأسه حزنًا.. وأجاب في لهجة مرة:

– يؤسفني ألا أستطيع مساعدة صديقك.. فأنت تعلم أن العلاقة بيني وبين الأمير كونديه قد توترت عقب إعلاني قرب إعتناقي الكاثوليكية.

وكانت مدام دي سوف تصغي لحديث الرجلين في إنتباه.. ولكنها لم تلبث أن سئمت الإصغاء، فمدت يدها مرة أخرى وتناولت الطلاء.. وهمت بإستعماله.. فأسرع رينيه واختطفه من يدها.. وهو يقول:

– سيدتي.. أعطني هذا الصندوق. فقد تبين لي أن مساعدي أخطأ في حمله إليك. وغدًا أرسل إليك نوعًا أفضل.

الفصل الخامس عشر

كان قد تقرر أن يذهب الملك شارل وحاشيته للصيد في غاب سان جرمان. ولما كانت مدام دي سوف قد أعلنت عن عزمها على الإنضمام إلى الحاشية.. فقد خطر لهنري دي نافار أن يضع تحت تصرف عشيقته جوادًا أصيلًا لإستخدامه أثناء الرحلة.. ولكنه رأى أن يقوم بإختبار الجواد أولًا، فخرج به إلى ساحة القصر، ودار به عدة دورات، ثم وقف أمام أحد الأبواب.

وسمع هنري صوتًا خافتًا يقول:

– ليحفظ الله جلالة ملك نافار!!

أخذ هنري وتلفت حوله، ثم لم يلبث أن تقهقر في ذعر. وهتف: دي موي!

– نعم يا مولاي.. أنا دي موي، وقد خاطرت بحياتي لأني أريد أن أتحدث إلى جلالتكم في أمر خطير..

وزادت دهشة هنري.. وراح ينتقل ببصره في جنبات الساحة، ونوافذ القصر.. فلم يلبث أن تراجع عدة خطوات أخرى..

رأى دوق دالنسون يطل من إحدى النوافذ..

وتقدم هنري من دي موي، وتناول منه بندقيته، وتظاهر أنه يفحصها.. وسأل:

– كيف جئت إلى هنا؟

– مولاي.. إن رئيس الحرس بروتستانتي، وقد سمح لي بأن أقوم الآن بنوبة الحراسة لأتمكن من التحدث إلى جلالتكم.

– حسنًا.. سأعهد الآن إليك بمهمة، فأذهب لتنفيذها ثم وافني إلى جناحي.

ورفع صوته.. وقال:

– إليك سرج هذا الجواد، وأذهب به إلى الحظائر الملكية لإصلاحه.

ولم يكد دي موي ينصرف، ويحل محله جندي آخر حتى برز دوق دالنسون على عتبة باب القصر..

وحيا الدوق الملك.. وتحول إلى الحارس.. ونظر إليه بإمعان. ثم قال:

– يا لله! هذا ليس الحارس الذي كنت تتحدث إليه جلالتكم.

فأبتسم هنري. وقال:

– كلا.. لقد أنفذت الحارس الآخر إلى الحظائر الملكية لإصلاح سرج الجواد.

وعض الدوق على شفتيه قهرًا ثم أردف:

– وبهذه المناسبة.. هل بلغك أنه تقرر إلغاء رحلة الصيد؟

فرفع هنري حاجبيه دهشة. وسأل: ولماذا؟

- لأن جلالة الملك شارل تلقى رسائل هامة من الدوقة دي نيفرز ولهذا عقد الملك مجلسًا منه، ومن الملكة الوالدة وأخي دوق دانجو.

فقال هنري لنفسه:– آه.. لابد أن أنباء قد وصلتها من بولندا!

ثم تحول إلى الدوق وقال:

– إذن فلا جدوى من إختبار هذا الجواد الآن. إلى اللقاء يا أخي..

وافترق الأثنان.. فعاد هنري إلى جناحه، ولم يلبث أن لحق به دي موي.

* * *

وبدأ دي موي الحديث قائلاً في لهجة تدل على الإنفعال:

– مولاي. ها قد حان وقت العمل.. وفي إستطاعة جلالتكم أن تعيدوا إلينا ما فقدناه في خلال هذا العام النكد بكلمة واحدة تصدرونها.

وأمسك.. فقال الملك في لهفة:

– نعم .. تكلم فإني أصغي إليك بإنتباه أيها البطل الباسل

– هل حقًا ما أذيع عن إعتناقكم الكاثوليكية يا مولاي؟

– نعم..

– آه. لست أشك في أن الظروف أرغمتك على فعل ما فعلت.. ولكننا لم نفقد كل شيء بعد. فلا يزال في الإمكان استرداد ما أرغمت على

فعله، فها هي الفرصة تعرض لجلالتك لتستعيد ما فقدت من مجدك.. فروشيل قائمة على قدم وساق، وروسيلون وبيارن تنتظر أن أول إشارة، وجيوبن تغلي كالبركان، فهل تتردد يا مولاي في إعلان بروتستانتيتك جهارًا؟

– يا عزيزي دي موي. إني ما أعتنقت الكاثوليكية مرغمًا.. وإنما بمحض إختياري

ففاض قلب الشاب بين جنبيه هذه النتيجة غير المتوقعة. وصاح:

– مولاي. ألم يخطر ببالك أن في تخليك عنا خيانة لنا ؟ فلم يكترث الملك لإعتراض محدثه.

واستطرد دي موي:

– نعم.. إنك تغدر بنا يا مولاي، فقد جئنا جميعًا إلى باريس مخاطرين بحياتنا لننقذ شرفك وحريتك. وأعددنا العدة لنهبك عرشًا ومجدًا، ولن يمضي شهران حتي نقدم إليك ليس عرش نافار فحسب، وإنما عرش فرنسا العظيم كذلك..

فأطرق هنري برأسه كيما يخفي السرور الذي شاع في وجهه، وأجاب:

– إنكم مخطئون يا عزيزي دي موي! فأنا سعيد في بلاط شارل التاسع.. وكفاني فخرًا أن أكون زوجًا لمرجريت دي فالوا أجمل إمرأة في فرنسا، وأخًا لشارل التاسع، وأبنًا لكاترين دي مدسيس..

فتلاعبت على شفتي الشاب إبتسامة مغتصبة. وقال:

– إذن فذلك هو جوابك الذي سأحمله إلى إخواني المجاهدين يا مولاي، وبالتالي سأقول لهم إن ملك نافار يمد يده إلى من ذبحوا أخواننا الشهداء. وأنه قد أصبح متملقًا للملكة الوالدة. وصديقًا لمورفيل السفا!!

فقال هنري في صوت هادئ:

– إن المجلس يوشك على الأنفضاض، وأراني مضطرًا إلى الذهاب لمعرفة أسباب إلغاء رحلة الصيد.. فالوداع يا صديقي.. وإني أنصحك أن تطلق السياسة، وتعتنق الكاثوليكية، وتنشد صداقة الملك شارل.

ثم قاد الشاب من ذراعه إلى الباب. أو بالأحرى دفعه دفعًا.

* * *

كان دي موي ساخطًا متبرمًا، ولم يجد أمامه ما يصب عليه جام غضبه غير قبعته، فوطئها بقدمه، وهو يصيح:

– يا له من جبان. لشد ما أشعر بالرغبة في قتل نفسي في هذا المكان حتى يلطخ دمي أسمه إلى الأبد!

وسمع دي موي صوتًا خافتًا، صادرًا من خلفه يقول:

- صه يا دي موي! صه، وإلا سمعك أحد غيري!

ودار دي موي على عقبيه كالملسوع، ورأى دوق دالنسون واقفًا على عتبة أحد الأبواب.

صاح في ذعر:

– دوق دالنسون؟ إذن فقد هلكت!

فقال الدوق في لهجة رقيقة:

– على العكس يا صديقي.. فقد شاءت الظروف أن تعثر على الشخص الذي تبحث عنه.. ودليلي على ذلك إنني لن أسمح لك بقتل نفسك كما تريد.. صدقني.. فإن دمك أثمن من أن يهدر على عتبة باب هنري ملك نافار.

ثم أشار إلى الشاب بالدخول قائلاً:

– هذه غرفة أثنين من رجالي.. وفي إستطاعتنا أن نلجأ إليها لنتحدث بحرية وصراحة.

وأغلق الباب. فقال دي موي في ذهول يخالطه الغضب والذعر معًا:

– إنني رهن إشارة سموكم الملكي.

وحدج الدوق دي موي بنظرة من نظراته الباردة، فهدأت أثرة البروتستانتي..

وقال الدوق:

– والآن.. دعنا نتكلم بصراحة يا صديقي فقد تجد في الرجل الذي تنشده.. تكلم.

ومضت فترة صمت.. كان دي موي خلالها نهبة قلق والحيرة ثم تكلم.. فقال:

– لست أدري ماذا أقول سموكم، فإن حديثي مع جلالة ملك نافار ليس مما ألف سموكم سماعه. وهو إلى ذلك يتعلق بأمور تافهة.

– تافهة! ومع ذلك فأنت تعرض حياتك للخطر بالمجيء إلى الموفر لتتحدث عن أشياء تافهة. هذا عجيب بلا شك. ألا ترى هذا الرأي؟

– مولاي.. إني أعتقد أن واجبك يحتم عليك التصرف بما تمليه عليك أخوتك للملك شارل، وبنوتك للملكة دي مدسيس.

فقال الدوق في هدوء:

– أنت مخطئ يا صديقي.. فما أنا إلا صديق. فأخبرني بالحقيقة، وثق إنني واقف عليها بحذافيرها. فأنا أعرف مثلاً إنك جئت لتعرض على جلالة ملك نافار خدماتك مع إخوانك في الجهاد لتعيدوا إليه عرش نافار.. أليس كذلك.

وأخذ دي موي.. ولزم الصمت.. واستطرد الدوق:

– وقد رفض هنري الإصغاء إليك، رغم الصورة المغرية البراقة التي رسمتها له، ورغم أنه شعر بادئ الأمر بالدم بتدفق في عروقه حارًا، وبالإغراء يسيطر على قلبه. وأقول أنه رفض الإصغاء إلى نصحك رغم هذا كله.

وكف الدوق عن الكلام، وصاح البروتستانتي:

– مولاي.. هذا صحيح، ومن العبث أن أحاول الإنكار.

– إذن أصغ إلي.. لقد رفض هنري الإصغاء، ولكن أنا.. ابن هنري الثاني، وأمير من أمراء البيت المالك أعرض عليكم خدماتي فهل تراني أهلاً لقيادة جيوشكم؟

– أنت؟! أنت يا مولاي تريد زعامة الهيجونوت؟

– ولم لا؟! أفلا يحق لي أن أعتنق البروتستانتية. كما أعتنق هنري الكاثوليكية؟. إني أرجو أن تعرض الأمر على زملائك.. فإن هم قبلوا وجدتموني على إستعداد لأداء اليمين القانونية.. وقد يبدو الأمر غريبًا في نظرك.. ولكني أقرر لك صراحة إنني ما فكرت في هذا المنصب الخطير إلا لدواع سياسة تحتم على التفكير فيه.. فإن أخي شارل يقتل الهيجونوت لينعم بالحكم، ودوق دانجو يساعد على قتلهم كي ينفرد بالعرش بعد موت صاحبه. فلا تجهل أن أخي شارل لا يبرأ من سقمه.. وأما أنا فالأمر يختلف معي كل الإختلاف، فالمفروض إنه لن تتاح لي فرصة إعتلاء العرش لأن لي أخوين يكبراني. كما أن أمي تكرهني وتتمنى الخلاص مني .. تلك هي الأسباب الرئيسية التي تدعوني إلى التحالف معكم يا عزيزي دي موي.

– الواقع إني دهش كل الدهشة يا مولاي، على إني أعدكم بعرض الأمر على زملائي مشفوعًا بتوصيتي الخاصة. وسأحمل إليك الرد الليلة.

– حسنًا.

– ثم إني أرجو أن تتخذوا من الوسائل ما يكفل لي الدخول والخروج من قصر اللوفر سالمًا.

– هذا ما لا أستطيعه يا صديقي.. فأرجو أن تعتمد على جرأتك وبسالتك مرة أخرى.

وكف الدوق عن الكلام. إذ وثبت إلى عقله فكرة جريئة.

قال: يخيل إلى إنني عثرت على ما يضمن سلامتك.

وأشار الدوق إلى ثياب جديدة فاخرة كانت ملقاة فوق الفراش وقال:

– أنظر إلى هذا المعطف، وتلك الصدرية والقبعة. إنهما ملك لمسيو دي لامول أحد رجالي، وفي استطاعتك أن تطلب إلى الذى حاكها أن يصنع لك مثلها، ولما كنتما متشابهين في القامة والطول فإن رجال القصر لن يستطيعوا التفرقة بينكما.. وبذلك يتيسر لك الدخول دون مشقة.

وما أتم الدوق حديثه حتى سمع الإثنان طرقًا على الباب.. فأشار الدوق إلى رفيقه أن يحول وجهه إلى النافذة ثم أسرع بفتح الباب:

ودخل دي لامول، ولم يكد يرى الدوق حتى هم بالعودة معتذرًا فأشار إليه الدوق بالبقاء وقال:

– لا داعي لإنصرافك يا سيدي الكونت.. فقط كنت أتحدث مع صديق لي في مسألة خاصة.

– بكل سرور يا مولاي.. ولكن أرجو أن تسمح لي بإستبدال ملابسي إذ فقدت معطفي وقبعتي عند قنطرة لاجريف في ليلة أمس.

وعندما إرتدي دي لامول ثيابه في الغرفة الجانبية وتهيأ للرحيل سأل:

– مولاي.. ألم تسمع أو ترى الكونت كوكوناس؟

– كلا يا سيدي. ومع ذلك فقد كان الواجب عليه أن يكون هنا الآن، ليقوم بنوبته في الحراسة.

– يالله! لابد أنهم قتلوه

ثم أندفع من الغرفة لا يلوي على شيء .. وبعد خمس دقائق غادر دي موي القصر وهو يطوح يده في حركة غريبة في إحدى مميزات دي لامول.

الفصل السادس عشر

أنطلق دي لامول من اللوفر عدوًا.. وراح يبحث عن صديقه كوكوناس. فذهب أولاً إلى خان النجم الجميل. ثم عاد يضرب في الطرقات على غير هدى، وقادته قدماه إلى قنطرة لاجريف ميدان المعركة، وهناك منذ أربع ساعات. عثر على ريشة بيضاء كانت مثبتة في قبعته عندما هوجم، وانحنى لإلتقاطها، وحينئذ سمع صوتًا عذبًا يهتف: – مسيو دي لامول.

وأستوي دي لامول واقفًا. وأدار رأسه، فرأي مركبة أنيقة يتقدمها خادمان، ويسير في أثرها آخران.

وأحنى الشاب قامته إحترامًا، وقال:

– نعم. أنا دي لامول يا مولاتي.

– وما هذه الريشة التي تحاول إلتقاطها؟ هل أنت مغرم، وتبحث عن آثار الحبيبة الضائعة؟

– نعم يا مولاتي إني عاشق ولكن هذه الريشة ليست هدية الحبيبة. كله. كيف أنت يا مولاتي؟

– على خير حال. ويبدو لي أن قضائي الليلة في دير (أنناسياسيون) قد أفادني كثيرًا، ولكن أخبرني ماذا تفعل هنا في هذا الطقس البارد؟

– إني أبحث عن صديق. ولكني لم أجده وإنما وجدت الريشة..

– أهي ريشة؟ حقًا. إنك تزعجني بهذه الألغاز

– ليس في الأمر ألغاز يا مولاتي. فقد كنت عائدًا إلى اللوفر في الساعة الخامسة والنصف صباحًا، عندما برز أربعة لصوص. فأضطررت إلى الهرب لأني نسيت حسامي في المنزل الذي أمضيت فيه الليل.

فقالت مرجريت ببساطة:

– آه لقد فهمت. إذن فأنت في طريقك للبحث عن حسامك في ذلك المنزل؟!

– بودي لو أستطيع ذلك يا مولاتي فإن حسامي نفيس ولكني لا أعرف مع الأسف موقع المنزل .

– ماذا تقول؟ هذا عجيب.

فبدأ التردد على وجه الشاب، وراحت مرجريت تستحثه حتى أنفكت عقدة لسانه.

قال: كنت أتناول طعام العشاء مع صديقي كوكوناس مساء أمس في نزل النجم الجميل.. عندما أقبل علينا رجل، وقدم إلينا بطاقتين متماثلتين.. وقد كتب فوق كل منهما سطرًا واحدًا هو: "أن هناك من ينتظرك في شارع سان أنطوان في مواجهة شارع دي جوي"

فسألت مرجريت بنفس البساطة: وماذا كان التوقيع؟

– ثلاث كلمات مدهشة يا مولاتي. (كيوبيد . إله الحب)

– حقًا!! ما أعذب هذه الكلمات. ولكن هل أثبتت الزيارة صحة الكلمات؟

فصاح دي لامول في حماس:

– أواه يا مولاتي. بل أكثر ما في الكلمات من معان.

– أستمر إذن.. أن حديثك يثير الفضول

كانت في إنتظارنا خادمتان جميلتان، لم تلبثا حتى عصبتا أعيننا. وقادتني مرشدتي إلى اليمين. وذهبت الأخرى بصديقي إلى اليسار.

– حسنًا.

– وكانت ليلة من أسعد الليالي التي تمر بحياة الإنسان.. بيد أن العصابة لم ترفع عن عيني.. فإذا كان الصباح عادت مرشدة الأمس، وقادتني إلى الخارج، وتركتني في شارع سان أنطوان بعد أن أخذت على موثقًا ألا أرفع العصابة حتى أفرغ من العد إلى الرقم مائة!

بيد أن شيئًا واحدًا هو الذي يزعجني.. ذلك هو إختفاء صديقي كوكوناس..؟

فضحكت مرجريت ضحكة رقيقة ساحرة.. وسألت:

– وهل لم تعثر عليه في اللوفر؟

– كلا يا مولاتي.. فقد بحثت عنه هناك، وفي نزل النجم الجميل، وفي كل مكان دون أن أعثر له على أثر.

– ولكن لم صدريتك ممزقة هكذا؟ ألم تجد الفرصة لاستبدالها؟

– كلا يا مولاتي..

وطفق يقص عليها كيف إنه عثر بدوق دالنسون في الغرفة ومعه رجل غريب لم يتبينه..

كانا يتكلمان باللاتينية.. فلما فرغا من حديثهما، قالت الملكة:

– حسنا .. أرى إنني أستنفدت من وقتك أكثر مما يجب.. وبخاصة وأنت بسبيل البحث عن صديقك المختفي.. فإلى اللقاء.

وعندما وصل دي لامول إلى قنطرة لاجريف، خطر له أن يتعرف على المنزل المجهول، فسار ثلاثين خطوة، ووقف أمام منزل صغير أنيق.وطرق الباب. ومضت لحظات، عندما ظهر له عملاق ألماني سأله عما يريد.

وحاول دي لامول أن يتفاهم مع العملاق، ولكن الرجل تجاهل معرفته للفرنسية أو اللاتينية ثم أغلق الباب في وجه الشاب.

وعاد دي لامول إلى اللوفر مكتئبًا قانطًا.. ثم أسرع إلى غرفته لإرتداء ثيابه.. ولشد ما كانت دهشته عندما وجد حسامه الذي فقده في منزل شارع سان أنطوان معلقًا في مكانه..

صاح في دهشة: يالله! يخيل أن في الأمر سحرًا!

وفي هذه الأثناء فتح باب في شارع بتسون. ونفذت منه إمرأة ترتدي معطفًا سميكًا وانطلقت إلى شارع روا دي سيسيل. وطرقت بابًا جانبيًا في فندق وارجنسون. ودخلت إلى الفندق.. ثم غادرته من الباب العمومي.. وأستأنفت سيرها إلى قصر دي جيز.

وبعد نصف ساعة فتح باب شارع بتسمون للمرة الثانية. وخرج منه شاب معصوب العينين تقوده إمرأة عجوز.

ووقفت المرأة في شارع لامور تيلري.. وطلبت من الشاب أن يعد خمسين ثم يرفع العصابة..

وأطاع الشاب.. وعندما رفع العصابة لم يجد أحدًا في الطريق.. فصاح في دهشة:

- يالله! إني على استعداد لأن أدفع مائة فرنك لمن يرشدني أين كنت؟ إن الساعة قد بلغت السادسة. فترى أين دي لامول الآن.. أرى أن أذهب للبحث عنه في قصر اللوفر..

ولم يكن هذا الشاب غير كوكوناس.

وعندما وصل إلى القصر. وسأل الحراس، قيل له أن دي لامول دخل إلى القصر ولم يخرج.. فأسرع إلى الغرفة. ولكنه لم يجد هناك غير صدرية دي لامول الممزقة.

وغادر الغرفة وعاد أدراجه.. وهناك فوق مقعد في الساحة جلس في انتظار صديقه .

ودقت الساعة الثامنة، ورأى كوكوناس شخصًا خيل إليه من ثيابه وهيئته أنه دي لامول، يتجه إلى الباب، ثم يختفي وراءه.

صاح في حماس: آه.. هو ذا دي لامول.

وراح ينادي صديقه بأعلى صوته، ولشد ما كانت دهشته حينما رأى دي لامول يرتقي الدرج في قفزات سريعة.. حتى إذا وصل إلى باب ملكة نافار، فتح الباب على الأثر، وظهرت على عتبته إمرأة، مدت يدها وجذبت الشاب إلى الداخل.

وصاح كوكوناس وهو يهز رأسه:

– حسنًا.. حسنًا.. إن الملكة مرجريت تريد مقابلته. إني لن أضايقه إذن.. فليس ذلك من شيم الأصدقاء.

وجلس فوق مقعد وثير في الدهليز.. ولكنه لم يكد يفعل ذلك حتى سمع صوتًا رقيقًا ينشد أغنية محببة إلى قلب صديقة دي لامول.

ودهش كوكوناس. وتلفت حول، فرأى صديقة دي لامول يهبط الدرج مسرعًا نحوه.

وصاح كوكوناس: يالله.. من أين أنت قادم الآن؟

– من شارع كلوش برسييه.

– كلا.. لا أعني ذلك، ألم تكن مع ملكة نافار منذ قليل؟

فدهش دي لامول بدوره.. ولكن صديقه لم يترك له مجالاً للدهشة والتساؤل.. فسرد عليه ما رأت عيناه منذ لحظات

وأصفر وجه دي لامول. وصاح:

– يالشيطان.. لابد أن في الأمر خيانة!

ودبت الغيرة في قلب دي لامول، فأندفع نحو باب الملكة، ثم طرقه في عنف.

وصاح كوكوناس في ذعر: يالله! إنك تسعى لحتفنا .

الفصل السابع عشر

لم يخطئ كوكوناس حين قال أن ملكة نافار هي التي فتحت الباب وأما الشاب الذي كان في ثياب وهيئة دي لامول فلم يكن غير دي موي. وقد دهش الهيجونوتي، وأدرك أن الملكة أرتكبت خطأ ما ولكنه آثر الصمت خشية أن تفلت شفتاها صرخة ذعر فتسوء العاقبة.

وقادته الملكة في ردهة معتمة، ثم همست في أذنه بصوت عذب ساحر:

– تعالى يا صديقي العزيز.. فإني بمفردي!!

ولما نفذا إلى مخدع الملكة المضاء. ورأت مرجريت إنها أخطأت الشخص، صرخت صرخة ذعر.. وصاحت في دهشة:

– دي موي!

– نعم يا مولاتي .. أضرع إليك أن تتركيني وشأني دون أن تطلعي أحدًا على وجودي في اللوفر.

– إذن فقد أخطأت؟.

– نعم يا مولاتي. فجلالتك أعتقدت إنني جلالة ملك نافار لتقارب الشبه بين قامتينا وثيابنا!

فحدجته الملكة بنظرة فاحصة. وقالت:

– مهما يكن من شيء.. فإنني أعرف المكان الذي كنت تريده

– لا لا أظن ذلك يا مولاتي، فأنت تجهلين تمامًا الشخص الذي أسعى لمقابلته.

فصاحت الملكة: ماذا تقول؟ ألم تكن في طريقك لمقابلة هنري دي نافار؟

– كلا يا مولاتي بكل أسف، إني لا أسعى للقائه، فأرجو أن تسمحي لي بالإنصراف.

ودهشت مرجريت، وأردفت في لهجة صارمة:

– سيدي.. إني أسألك إيضاحًا.

– مولاتي.. إن واجبي يحتم على الصمت.. وفي إستطاعتك أن تأمري بالقبض علي، ولكنك لن ترغميني على الغدر بأصدقائي الجدد.

– ألم يعد لأصدقائك القدماء حقوق عليك؟

– إني لازلت مقيمًا على العهد مع أولئك الذين يتكاتفون معنا.. وأما الآخرون الذين حنثوا، وتنكروا لمبادئهم، هؤلاء يا مولاتي لا حق لهم في أن ينتظروا إخلاصي أو ثقتي.

زادت دهشة مرجريت، وهمت بالإستمرار في أسئلتها لولا أن دخلت جيلون إلى الغرفة مهرولة، وصاحت:

– مولاتي إن جلالة ملك نافار قادم من الممر السري.

وذعر دي موي، وراح يضرع إلى الملكة أن تسمح له بالإنصراف ولكن جيلون قالت أن هناك من يطرق باب الردهة في عنف.

ولم تجد مرجريت مخرجًا من هذا المأزق سوى أن تدخل الشاب إلى غرفتها الجانبية .

وفي اللحظة التالية فتح الباب السري، ودلف منه هنري دي نافار وعلى شفتيه تلك الإبتسامة الخفيفة وأدار حوله نظرًا فاحصًا، ثم جلس على أقرب مقعد، وبدأ حديثه قائلاً:

– سيدتي.. أظنك تذكرين تحالفنا؟

– نعم يا سيدي..

– إذن ما رأيك في أن شخصًا تدخل في خطتنا، مما ينذر بفشلها والقضاء علينا.

– إني على إستعداد لمؤازرة جلالتكم إن سرًا أو جهرًا للقضاء على ذلك العدو.

فقال هنري:

– سيدتي.. إن من حقك دخول جناح دوق دالنسون في أي وقت فهل تتنازلين بالذهاب إلى هنالك الآن للتحقق مما إذا كان الدوق مجتمعًا بشخص معين؟

فصاحت مرجريت: – مجتمعًا بشخص معين؟

– نعم يا سيدتي، فأكبر ظني إنه مجتمع الآن بدي موي.

وابتسمت مرجريت وأشارت بأصبعها إلى الغرفة الجانبية، وأدرك الملك ما تعني، فابتسم بدوره وقال:

– أما زالت هذه الغرفة مشغولة؟

– نعم يا مولاي، وشاغلها هذه المرة هو مسيو دي موي.

فصاح هنري في لهجة تنطوي على إرتياحه وسروره:

– دي موي؟ إذن فهو ليس مع دوق دالنسون؟ دعيني أتحدث إليه.

وفتحت مرجريت باب الغرفة الجانبية، وقدمت دي موي إلى الملك. ولم يستطع دي موي أن يتمالك شعوره صاح في حنق:

– يا لله يا سيدتي.. لقد حنثت بعهدك. فلنفرض إنني أردت الثأر لنفسي بقولي..

فقال هنري وهو يشد على يد الشاب بحرارة:

- إنك لن تفعل ذلك، على الأقل إلى أن تسمع ما سأقوله لك

وأندفعت جيلون إلى الغرفة في تلك اللحظة، وهي ممتقعة الوجه، بادية الإضطراب وأسرت في أذن مرجريت بضع كلمات فأنطلقت الملكة إلى الخارج، فوجدت دي لامول يتوسط الردهة.. وشرر الغضب يتطاير من عينيه.

ودهشت مرجريت.. بل لعلها ذعرت من حالة الشاب وهتفت:

– مسيو دي لامول.. ماذا هناك يا صديقي؟

– مولاتي.. إني لم أصر على المجيء إلى جلالتك إلا لأني أريد أن أخطرك بأن رجلاً غريبًا يحتمل أن يكون لصًا، قد دخل جناحك وهو يرتدي معطفي وقبعتي.

– لا شك إنك مجنون يا سيدي، فأنا أرى قبعتك فوق رأسك ومعطفك على كتفيك.. وبحسبي أن أقرر لك صراحة إنه ليس هناك رجل واحد في غرفتي بل أثنان!

وأزاحت الستار بيدها، فرأى دي لامول الملك هنري يتحدث إلى دي موي.

صاح في دهشة: دي موي؟!

وعلى أثر هذه الصيحة هرول كوكوناس إلى الغرفة.. وعلى وجهة علامات الدهشة البالغة، فأسرعت مرجريت وأزاحت الستار. وقالت لدى لامول:

– أما وقد شبعت فضولك فأرجو أن تقف خارج الغرفة ولا تسمح لأحد بالدخول.

وعادت مرجريت إلى زوجها ورفيقه بعد أن أوقفت خادمتها جيلون خلف الباب السري خشية المفاجآت.

وما إن أخذت مجلسها أمام الرجلين حتى تحول الملك إلى دي موي وقال:

– أخبرني ما الذي دعاك إلى المجيء إلى هذه الغرفة بالذات .

ودهش دي موي.. وأسرعت الملكة وقالت:

– إنه لم يأت إلى هنا من تلقاء نفسه.. بل أنا التي جئت به إليها. فقد تكهنت..

وبترت عبارتها وهي تلوح بيدها في إشارة لها مغزاها.

ثم عادت فاستطردت:

– لقد كان مسيو دي موي مجتمعًا بدوق نالنسون صباح اليوم في غرفة أحد رجال الدوق.

فقال هنري: ها أنت ترى إننا نعرف كل شيء يا مسيو دي موي

– هذا صحيح يا مولاي

وأردف الملك:

– إنني كنت واثقًا من أن الدوق سيعمل على الإتصال بك عقب خروجك من غرفتي.

– إن الخطأ خطأك يا مولاي.. فلو لم ترفض ما عرضته عليك لما حدث شيء من ذلك.

فقال الملك في حدة:

– الواقع إنك غر يا دي موي رغم أنك أحد زعماء الهيجونوت البارزين. إذ كيف كنت تتوقع مني غير الرفض القاطع، وأنا أعلم أن لكل جدار من جدران الغرفة أذانًا تصغي وعيونًا ترقب..

فقال دي موي:

– يؤسفني إني لم أستطع أن أدرك ذلك في الوقت المناسب. أما الآن وبعد أن أصبحت من أعوان دوق دالنسون.. فليس لي أستدراك ذلك من سبيل.

فعضت مرجريت على شفتها قهرًا.. وقالت:

– إذن فقد سبق السيف العذل؟

فقال هنري:

– على العكس، فإن يد القدر تلعب دورًا هامًا في هذه المؤامرة، لأن الدوق سيكون سبب نجاتنا جميعًا. وأعني أنه سيكون ستارًا نختفي وراءه.. فعلى مسيو دي موي أن يذعن لكل ما يدعوه إليه. وأن يكون منه بمثابة الأمين على سره، وأن يجمع الأدلة التي تدينه إذا تحرج الموقف. إنه يريد عرش نافار. فعده به. ومغادرة اللوفر، فهيئ له الوسائل اللازمة. ومتى حانت اللحظة الحاسمة ركنًا إلى الفرار. وأقمنا على الأنتظار حتى إذا جاء وقت ارتقاء العرش أرتقيته أنا من دونه.

فقالت مرجريت حذار أن تثقا بالدوق: فهو كثير التقلب لا لون له..

وسأل هنري:

– هل أنتما على موعد؟

– نعم يا مولاي.. عند منتصف الليل.. ولكني أطلب إلى جلالتكم أن تقسموا بالثبات على المبدأ إلى النهاية.

– أقسم على ذلك.

– حسنًا يا مولاي.. يمكنك إذن الاعتماد على إخلاصي..

– وإليك مفتاح غرفتي.. ويمكنك أن تأتي إلي كلما أردت ذلك..

وتحول الملك إلى زوجته.. وقال:

– الواقع إنه ينقصنا بعض الرجال المخلصين في اللوفر. ولما كنت أعرف أن مسيو دي لامول هو أحد أصدقائك، ورجل من رجال الدوق.. فأرجو ألا تتدخري وسعًا في ضمه إلى صفنا، سواء كان ذلك بالإغراء أو بالوعود.

فابتسمت مرجريت. وقالت:

– حسنًا يا مولاي.. سأنفذ مشيئتك على وجهها.

الفصل الثامن عشر

فتحت مرجريت باب غرفتها على أثر إنصراف الملك ودي موي من الباب السري.. ثم أومأت إلى دي لامول بالدخول.. وأغلقت الباب. وغاصت في مقعد وثير، وأجلست الشاب إلى جانبها، ثم أمسكت بيده وقالت:

– أما وقد صرنا وحيدين يا صديقي، فدعنا نتحدث بحرية وصراحة.

– إني على إستعداد يا مولاتي.. ولكني أرجو ألا تغضبك لهجتي.

– لن يغضبني منك شيء، سوى إستعمالك لفظة مولاتي في أحاديثك فاترك هذا اللقب وناديني باسمي مجردًا.

فصاح الشاب وهو يضغط يد الملكة في انفعال:

– مرجريت؟! نعم.. مرجريت.

– هذا جميل.. وأجمل منه إنك شديد الغيرة يا سيدي الجميل.

– بل إني أغار عليك إلى حد الجنون.

– ولعل مسلكك الليلة هو أكبر دليل على ما تقول.. ولكن هل تدري ما الذي دعا مسيو دي موي إلى المجيء إلى جناحي؟

– كلا.. فهذا ليس من شأني طالما أنت مقيمة على العهد.. حافظة للحب.. إلا إذا لم تجدي من نفسك القدرة على الوفاء، فإني أحلك من

عهدك، وأودعك، لأنطلق إلى روشيل لعلي أموت في الحرب، وقبل أن أرى شبح الخيانة.

فابتسمت مرجريت إبتسامة ساحرة، ومالت برأسها فوق يده.. ثم همست: أتحبني حقًا؟

– من العجيب أن تسأليني هذا السؤال، وفي عيني أفصح دليل على حبك.

فغمغمت مرجريت:

– وهل يشق عليك البعد عني؟

– بل إني لا أطيقة ولا أحتمله.. بل لا أتصوره. ولكن أخبريني لماذا كان دي موي مجتمعًا بدون دالنسون في الصباح، وبك وبالملك هنري في الليل؟ ولماذا يرتدي ثيابًا تشبه ثيابي؟

– ألا تستطيع التكهن بالسبب؟ أوكد لك إنه لو علم دوق دالنسون بأني أحبك وأنك تبادلني هذا الحب. إذن لقتلك على الفور.

وأمسكت قليلاً.. ثم عادت تقول:

– اصغ إليّ.. إن مسيو دي مموي لم يفعل ما فعل من أجلي. وإنما من أجل الدوق. وأما أنا فقد اختلط على الأمر، وجئت به إلى هنا على إعتبار أنه أنت.. وعلى ذلك فهو عالم بسرنا ومن الواجب إستعمال اللباقة وحسن السياسة في معاملته.

وقال دي لامول: إني أعتقد أن قتله أصوب لتجنب مضايقاته.

– وأما أنا فأعتقد أن بقاءه حيًا أصوب.. لأسباب أرى من الضروري إطلاعك عليها، ولكني أرجو أن تجيبني أولاً بصراحة على هذا السؤال.ماذا يكون شعورك نحوي لو قدر لي أن أصبح ملكة فرنسا؟

فغشيت وجه دي لامول سحابة غم.. وقال:

– إني أحزن أشد الحزن.. لأن معناه فراقنا الأبدي!

– لا تكن أحمقا، وثق أن حبي لك باق على الدهر. لا تزعزعة المؤثرات ولا يهن منه منصب.

هز دي لامول رأسه، وقال:

– آه، يخيل إلى إنني بدأت أفهم الموقف على حقيقته. فإنني أستطيع على ضوء هذا الحديث أن أتبين الصلة بين ما نحن بصدده وبين المشروع الذي أعده الهيجونوت للإستيلاء على العرش، والذي كان مدعاة لمجيئي مع الآخرين إلى باريس وإذن فوجود دي موي اليوم في قصر اللوفر معناه سعيك الحثيث لتحقيق هذه الأعراض. لكني لا أستطيع أن أفهم كيف يشترك دوق دالنسون في هذه المؤامرة التي ستقلب العرش رأسًا على عقب؟

– إن الدوق يتآمر لحسابه.. فدعه يسعى سعيه وهو آمن.. فإن حياته رهن بحياتنا.

– ولكن كيف أغدر به وأنا في خدمته؟

– تغدر به؟ ما معنى الغدر بالنسبة إليك.. وما هي الأمانة التي في عنقك للدوق؟ وهل نسيت إنه البادئ بالغدر بك لسماحه لدي موي بإرتداء ثياب مماثلة لثيابك ليتيسر له سبيل الدخول إلى القصر. وإنفاذ مؤامرتهم.. هل نسيت إنك كنت في خدمتي قبل أن تنضم إلى حاشيته.. وهل قدم إليك دليلاً على صداقته أقوى من الحب الذي قدمته إليك؟

فانتفض دي لامول، ووثب واقفًا.. ثم صاح بصوت أجش:

– آه.. سيدتي.. إنني لم أنس بعد ما يقال من أنك تتخذين من المقربين إليك أداة لتحقيق مآربك.. وأنا حين جئت مع من جاء إلى باريس كنت مدفوعًا بعوامل الإغراء وبما يرويه الجميع عن جمالك الذي تفرد بسحره وجاذبيته.. كنت مدفوعًا بهذه العوامل أكثر من إندفاعي بأي عامل آخر.. وقد تحقق لي الآن إنهم لم يغالوا في كل ما يذيعون.. وقد أحببتك حبًا يهون في سبيله كل شيء.. حبًا أصبحت الحياة بدونه ضربًا من المستحيلات، وأنا على إستعداد لأن أهبك خدماتي، بل وحياتي. ولكن بشرط واحد، هو أن تقسمي على الإحتفاظ برأسي بالقرب منك لو قدر لي أن أموت في سبيلك.

فقالت مرجريت في إكتئاب:

– يا لك من أحمق!

– أقسمي.

– أقسم! بل وأقسم أن أنفذ رغباتك بحذافيرها.

– وثمة شيء آخر. وهو ماذا يكون مصيري لو قدر لنا النجاح واعتليت عرش فرنسا؟ إني لا أستطيع أن أعيش بدونك، ومن المحتمل أن ينصرف هنري إلى حبك بعد أن تتحقق مآربه.. فهل أنت على إستعداد لأن تقيمي على عهدك.. وألا تتخلي عني؟

– أقسم لك على ذلك. والآن أذهب فإني بحاجة إلى الانفراد.

الفصل التاسع عشر

عندما هم هنري دي نافار بمغادرة مخدع عشيقته مدام دي سوف. قال لها:

– شارلوت.. لازمي فراشك، وتظاهرى بالمرض، ولا تستقبلي أي شخص مهما كانت الأسباب.

ولم تجسر مدام دي سوف أن تسألة الأسباب أو تبدي أي إعتراض واكتفت بالنظر إليه في مزيج من الدهشة والقلق والذعر. وبعد إنصرافه لزمت الفراش. وأخبرت وصيفتها إنها تعاني من صداع شديد، وتشعر بإنحطاط في قواها العامة. وإنها لذلك لن تغادر غرفتها أو تستقبل أحدًا.

وقد لمح هنري دي نافار لذلك في أحد أحاديثه مع دوق دالنسون. كما نقلت مدام دي لورين الخبر إلى كاترين دي مدسيس ردًا على سؤال الأخيره عن سبب إنقطاع وصيفتها عن الظهور.

قالت كاترين في صوت يرتجف من الإنفعال:

– مريضه؟! لعلها تشكو ألمًا عارضًا؟

– كلا يا سيدتي.. إنها تشكو صداعًا شديدًا، وضعفًا عامًا يقعدها عن الحركة.

وعندما انصرفت حاشيتها أسرعت بغلق الأبواب ثم عمدت إلى

دولاب، تناولت منه مجلدًا، راحت تقلب صفحاته، ولم تلبث أن غمغمت في إنفعال: آه! نعم. صداع مؤلم، وضعف عام، وألم في العينين، وتورم في سقف الحلق.

ولقد ظهر من ذلك عارضان، الصداع والضعف. ولابد أن يعقبها بعد فترة بقية الأغراض، من إلتهاب في الحلق يمتد إلى البطن، ويحيط بالقلب محدثًا دائرة من نار.. ويسبب إنفجار المخ.

وأمسكت لحظات عن القراءة بصوت مرتفع، وعندما رفعت رأسها ألقت الكتاب من يدها، وغمغمت قائلة: وتستمر الحمى ست ساعات والإلتهاب العام أثنتي عشرة ساعة. والتسمم مثل هذه المدة، وفترة الإحتضار ست ساعات. فيكون المجموع ستًا وثلاثين ساعة.

فلنفرض أن سريان السم أبطأ من ابتلاعه، وأن الوفاة قد تحتاج إلى ثمان وأربعين ساعة بدل ست وثلاثين، ولكن كيف أتفق إن استطاع هنري مقاومة تأثير السم؟ هل لقوة بنيته دخل في أضعاف التأثير..؟ أو أنه تناول شيئًا من السوائل بعد تقليبها، ثم جفف شفتيه؟!

وأنتظرت كاترين موعد العشاء بصبر نافذ. وكان هنري قد اعتاد تناول الطعام مع الملك شارل. ولكنه إعتذر من تناوله في تلك الليلة قائلاً إنه يشعر بتوعك وصداع شديد وخور في قواه العامة. وغادر الغرفة وهو يترنح.

وركض قلب كاترين بين ضلوعها. وأرسلت من يتعقب هنري، فجاءها الرسول وقرر أن الملك قصد إلى جناح مدام دي سوف مباشرة.

والواقع أن هنري قصد إلى جناح عشيقته ليطلب إليها الإستمرار في تمثيل دورها.

وفي صباح اليوم التالي لم يغادر ملك نافار مخدعه، ولم يذهب لتناول الطعام مع شارل. كما أعلن أن حالة مدام دى سوف سوف تتطور من سيء الى أسوأ.

وكانت كاترين تنتظر النتيجة في لهفة وقلق، حتى كان يخيل إليها من وقع الخطوات خارج غرفتها، أن القادم رسول جاء يحمل إليها نعي هنري دي نافار، ومدام دي سوف معًا.

وعندما دقت الساعة الرابعة بعد الظهر. جاءها رئيس حرسها مهرولاً وقال: مولاتي.. إن ملك نافار..

– ماذا؟ مريض؟

– كلا يا مولاتي إنه هنا، ويريد مقابلة جلالتك ليقدم إليك قردًا نادرًا.

ونفذ هنري إلى الغرفة وعلى شفتيه إبتسامة ساخرة.. وهو يحمل في يده قفصًا به قرد نادر.. وأصفر وجه كاترين. فقد كانت تترقب نعي عدوها اللدود فإذا هي تراه ممتلئًا صحة وقوة..

كانت في حيرة من الأمر. ولم تستطع أن تقع على تعليل لبقائه حيًا حتى الساعة.. فتقبلت الهدية من زوج أبنتها في حركة آلية.

ثم قالت في صوت مضطرب:

– يسرني أن أراك متمتعًا بالصحة يا بني، بعد أن بلغني نبأ مرضك.

– لقد كنت كذلك حقًا يا مولاتي. ولكني أستطعت أن أنفض عني غبار المرض على أثر إستعمال ترياق خاص وهبتني إياه أمي قبل وفاتها.

فأبتسمت كاترين إبتسامة حقيقية، وأدركت سر المسألة فقالت؟

– أرجو أن تعطيني من ذلك الترياق يا هنري.. أو على الأقل تطلعني على كيفية تحضيره.

وعندما أنصرف هنري.. قالت لنفسها:

– أكبر الظن إنه أرتاب في الأمر عندما رأى ما حل بعشقه لركن إلى هذا الترياق العجيب.إن العناية الإلهية تحرس هذا الرجل اللعين.

وعندما خيم السكون على قصر اللوفر، وآوى الجميع إلى مضاجعهم تسللت كاترين من غرفتها وقصدت إلى جناح وصيفتها شارلوت، وهي تحمل مصباحًا صغيرًا في يدها. وفتحت الباب في حذر، ثم نفذت منه إلى الردهة. فغرفة الإستقبال حيث وضعت المصباح على إحدى الموائد وأنطلقت إلى المخدع في هدوء.

كانت داريول ممددة فوق مقعد كبير بجواز فراش سيدتها التي تمددت بدورها في الفراش وأستسلمت نوم هادئ عميق.

ورفعت كاترين الستائر المسدلة، وهي ترجو أن ترى وصيفتها جثة هامدة. ولكن لشد ما كانت دهشتها وذعرها عندما ألفتها تتنفس بهدوء. ويكاد وجهها ينفجر دمه وحيوية.

ولم تستطع أن تستسيغ مرارة الفشل وخيبة الأمل، فأفلتت من شفتيها كرهًا، صرخة ذعر جعلت داريول تستوي جالسة في مقعدها.

وأسرعت كاترين فتوارت خلف إحدى الستائر. وتلفتت داريول حولها. ولما لم تجد أحدًا خيل إليها أنها كانت تحلم، فأغمضت عينيها، ولم تلبث أن راحت في نوم عميق.

وخرجت كاترين من مخبئها. وتقدمت من منضدة الزينة، وألتقطت صندوق الطلاء، وفحصته، فوجدت إنه لم يبق من محتوياته غير الثلث.

وتناولت قليلاً من الطلاء، وعادت إلى جناحها. وقدمته إلى القرد الذي أهداها إليها هنري وجلست تنتظر وهي تقول:

– لقد مات كلبي عندما قدمت إليه نصف هذه الكمية. ولكن القرد لم يصب بسوء فلا بد أن رينيه خدعني، ولكن لا. ذلك مستحيل.. إنه إلمام ذلك اللعين هنري بكيفية مقاومة السموم. حسنًا.. لنجرب السلاح إذن.

وفي صباح اليوم التالي نهضت كاترين من نومها مبكرة، ودعت إليها أحد ضباط حرسها وأعطته رسالة، أمرته بأن يحملها إلى مسيو دي لوفييه دي مورفيل.

الفصل العشرون

ومضت عدة أيام، وذهبت دوقة دى نيفرز لزيارة صديقتها مرجريت.واستقبلت الملكة صديقتها باسمة مرحبة. وجلست الدوقة فوق أحد المقاعد دون استئذان، أو كلفة. وسألت كيف حالك أبولو؟

فتنهدت مرجريت وقالت: واأسفاه يخيل إلى إني أحبه من كل قلبي.

– حقًا ؟

– أقسم بشرفي كامرأة

فصاحت هنريت: عظيم وأنا يخيل إلى إننا سنقضي عامًا سعيدًا حافلاً بالمباهج.

– أتعتقدين ذلك؟ أما أنا فأشعر بعكس شعورك ولا أدري لماذا؟ وربما كان ذلك راجعًا إلى المشاكل السياسية التي تواجهنا في الظرف الحاضر، وبهذه المناسبة، إني أريدك على أن تتأكدي مما إذا كان أنيبال صديقك. مخلصًا لسيده دوق دالنسون أم ليس كذلك؟

– ليس الأمر بحاجة إلى التأكيد. فهو مخلص له كل الإخلاص، بدليل ما حدث بيننا منذ بضعة أيام، فقد توعدته بالشر المستعار إن حنث بعهدي.. فنهض واقفًا. وحدجني بنظرة صارمة.. ثم صاح:

– حذار أن تخدعيني.. فأنا لا أبالى بمركزك الرفيع..؟ ثم رفع أصبعه في وجهي مهددًا متوعدًا، حتى خيل إلى أنه سينقض علي فتراجعت منذعرة.

فهزت مرجريت رأسها وقالت:

– حسنًا.. هل من أخبار جديدة؟

– نعم. لقد وصلتني أنباء من روما.

– وكيف تسير الأمور في بولندا؟

– على خير الوجوه. ومن المحتمل أن نتخلص من أخيك دانجو في خلال أيام قلائل.

فقالت مرجريت: إذن وافق البابا على اختياره؟

– نعم يا عزيزتي، وإليك رسالة زوجي دي نيفرز في هذا الشأن. كلا.. ليست هذه هي رسالة البارون. وإنها رسالة مني أرجو أن تتنازلي بإعطائها لدى لاموال ليحملها إلى أنيبال.. آه.. هذه هي رسالة البارون..

ونشرت مرجريت الرسالة. وقرأتها في إمعان، ثم سألت:

– وكيف تلقيت هذه الرسالة ؟

– أرسلها إلي زوجي مع رسول خاص كان قادمًا برسالة أخرى لجلالة الملك شارل.. ولما كنت أعلم أنك تعلقين أهمية كبيرة على تلك الأنباء فقد كتبت إلى زوجي ليوافيني بنتيجة المباحثات الدائرة.. فليس في باريس

كلها إذن من يعرف بهذا السر غير الملك وأنت وأنا. اللهم إلا إذا كان ذلك الرجل الذي تعقب الرسول..

– أي رجل؟

– يقول الرسول. إن رجلاً كان يتعقبه منذ بداية الرحلة ولما وصل إلى قنطرة نوتردام انعطف الرسول إلى اليمين وانعطف الآخر الى اليسار وانطلق إلى القصر كالسهم.

فصاحت مرجريت:

– شكرًا لك.. شكرًا لك.. هذه أخبار مهمة: وأما عن الرجل الآخر فسأحاول معرفته. والآن أتركيني! وموعدنا الليلة في شارع بتسون، وغدًا في رحلة الصيد. وعند المساء سأطلعك عما سيبلغني عن صديقك كوكوناس.

وعلى أثر إنصراف الدوقة، أرسلت مرجريت في طلب زوجها.. فلما وافاها، قدمت إليه الرسالة وقصت عليه قصة الرسولين، فأجاب الملك:

– نعم.. إني رأيت الرسول الثاني، ولكني لا أعرف أين ذهب، ولو إني أعتقد أنه أنطلق لمقابلة دوق دالنسون. ولهذا أرى أن ترسلي في طلب مسيو دي لامول ليتحرى الحقيقة.

ولما قدم دي لامول، أطلعته مرجريت على الموقف، وطلبت إليه أن يتحرى الحقيقة من كوكوناس، وزودته برسالة الدوقة ليستعين بها على إطلاق لسان صديقه من عقاله.

وعندما انصرف الشاب من الغرفة، تحول هنري إلى زوجته وهتف:

– إني أستطيع الآن أن أعتمد على إخلاص مسيو دي لامول. وشجاعته.. ولابد من مكافأته على إخلاصه يومًا ما.

الفصل الحادي والعشرون

عندما سقطت خيوط الفجر الأولى على الكون، امتلأت ساحة قصر اللوفر بالنبلاء والعظماء، ووقفوا ينتظرون مجيء الملك شارل للبدء في الرحلة.

وكان شارل قد تأهب لمغادرة القصر، عندما ذهبت أمه كاترين إلى غرفته، وقالت:

– أصغ إلي يا شارل.. إن أحدًا غيرك وغيري لا يعرف بقرب مجيء سفراء بولندا.. بيد أنه يخيل إلى أن هنري ملك نافاز يكثر من مغادرة القصر والإتصال بزعماء الهيجونوت الباقين على قيد الحياة كأنما هو على علم بتلك الأنباء.لقد أكد لي مورفيل أنه رأى هنري يسير مع دي موي وإذا أنت أنعمت النظر في تصرفات هنري – الواسع الغني الموفور المال – في الأيام الأخيرة من حيث اهتمامه بإبتياع الجياد، والسلاح، والتدرب على فنون القتال، أدركت مبلغ ما يستعد له الرجل، وكأنما هو قادم على أمر خطير.

فضحك شارل ضحكة جوفاء.. وأجاب:

– أنت تبالغين يا أماه.. هل يدور بخلدك أن هنري يقدم على قتلي أو قتل دوق دانجو المرشح لعرش بولندا؟

– يا بني يجب أن تضع مصلحتك ومصلحة فرنسا فرق كل اعتبار

فعما قريب يصل السفراء ولن يدخر هنري وسعًا في التقرب إليهم واجتذاب إنتباههم إليه.

ودقت الساعة السابعة، فانتفض شارل. وهم بمغادرة الغرفة.. ولكن أمه أستوقفته فصاح:

– إذن ماذا تريدين مني؟ هل أقتله أو أنفيه.

– لا هذا ولا ذاك.. فإني لا أريد به شرًا، وإنما أرى من الأوفق وضعه في سجن الباستيل ريثما تنتهي زيارة السفراء.

– ماذا تقولين؟ أتريدينني في هذه اللحظة التي ينتظرني فيها جميع أفراد البلاط أن أكتب أمرًا بالقبض عليه؟!

– لقد أعددت للأمر عدته. أنظر..

وفتحت بابًا صغيرًا، ثم أشارت إلى مكتب صغير أنيق.. وقالت:

– هاك كل المعدات اللازمة.

ولم يسع شارل إلا النزول على إرادة أمه.. فأسرع وحرر أمرًا بالقبض على ملك نافار وإيداعه سجن الباستيل. ثم وقعه وأعطاه لأمه. واندفع من الغرفة وهو يعدو كالمجنون.

وبعد خمس دقائق تحرك الركاب الملكي. وانتهز هنري إحدى الفرص، واقترب من زوجته وهمس:

– لقد تحققت من أن الرسول الثاني ذهب لمقابلة دوق دالنسون

وأطلعه على جميع الأنباء قبل أن يصل رسول الملك بربع ساعة.

فأجالت مرجريت الطرف حولها حتى وقع بصرها على أخيها دالنسون، ثم تحولت إلى زوجها، وقالت:

– أنظر إليه.. إنه يكاد يطير فرحًا. ولعله مصيب في انشراحه. فإنه بسبيل الحصول بمؤامرته على ثلاثة عروش في وقت واحد.. فرنسا، وبولندا، ونافار.

فهز هنري رأسه وابتسم. ثم عاد إلى مكانه، ونادى خادمًا مخلصًا، وقال له:

– خذ هذا المفتاح إلى ابن عم مدام دي سوف يا أورثون! وقل له أن ابنة عمه تريد مقابلته هذا المساء. ثم أطلب إليه أن يذهب إلى غرفتي وينتظرني هناك. فإذا تأخرت فلا عليه من أن ينام في فراشي ريثما أعود.

– حسنًا يا مولاي.. هل أنتظر ردًا..

– كلا، ولكنك ستجدني في انتظار نتيجة مهمتك بفروغ صبر.

فانسحب الخادم بلباقة، وانتهز أول فرصة، وأنفصل عن الركب.

وعندما وصلت الجماعة إلى بوندي، ترجلوا عن جيادهم، ودعا الملك الصيادين ثم سألهم إن كان الخنزير في جحره. فأجابوه بالإيجاب. وذهب الملك للتحقق بنفسه من وجود االخنزير، وفي أثناء غيبته وصل دوق دي جيز مع نفر من أعوانه وهم مسلحون بشكل يبعث على الاعتقاد بأنهم ذاهبون إلى الحرب وليس إلى الصيد.

وعاد الملك.. وامتطى جواده، وتهيأ الجميع للرحيل. فاقترب هنري من زوجته وقال:

– حسنًا.. هل من جديد؟

– كلا.. ولكني لاحظت أن أخي ينظر إليك نظرة غريبة.

– وأنا أيضًا لاحظت ذلك، ولكن لا تخشي شيئًا فقد أحتطت للأمر فارتديت قميصي المصنوع من الفولاذ، وتسلحت بخنجر حاد..

– حسنًا.. فليحفظنا الله

ونفخ أحد الصيادين في البوق..كانوا قد وصلوا إلى جحر الخنزير.

الفصل الثاني والعشرون

بينما كان الملك ورفقاؤه في طريقهم إلى بوندي.. كانت كاترين تستقبل في جناحها مسيو دى مورفيل السفاك المعروف.

وقد بدأت الملكة الوالدة الحديث قائلة:

– أهذا أنت يا مورفيل؟ لقد وعدتك بمكافأة عظيمة، لما أسديته إلينا من خدمات في ليلة سان بارثلميو. وأظن إني وفيت بالوعد.

فأجاب الرجل:

– نعم وأنا أشكر جلالتك بكل تواضع.

– وها هي فرصة أخرى تعرض لك.. فرصة تحتاج إلى كل مواهبك الممتازة..

ومدت إليه يدها بأمر القبض على هنري دي نافار.. وقالت:

– أقرأ هذا!

فأطاع. وامتقع وجهه. ثم صاح:

– ماذا؟ أمر بالقبض على ملك نافار؟

– وماذا يدهشك في ذلك؟

فبدا التردد على وجه مورفيل. فأسرعت كاترين وقالت:

– يخيل إلي أنك متردد. ولكني آمرك بتنفيذ هذا الأمر.. فهل تستطيع؟

– نعم يا مولاتي..

– وأرى أن تستعين في مهمتك بعدد من رجالك المخلصين فتكمنوا لملك نافار في غرفته حتى إذا عاد ألقيتم القبض عليه.

فأحنى مورفيل قامته للملكة. وقال:

– ومتى نلقي القبض عليه يا مولاتي؟

– الليلة

– حسنًا.. ولكن لنفرض إنه أبى أن يذعن.

فقالت كاترين في خبث:

– ماذا تفعل مع أي شخص عادي يرفض إطاعة أمر الملك؟

– أقتله يا مولاتي.

– عظيم. إتفقنا إذن.

فأصفر وجه مورفيل، فقد بدأ يدرك الحقيقة. صاح:

– يالله! أأقتل ملك نافار؟

– ومن قال لك أقتله. إن الأمر يقضي بالذهاب به إلى سجن الباستيل فقط. فإذا أمتثل كان بها، وأما إذا قاوم وحاول أن يقتلك..

فزاد إصفرار وجه السفاك. وأستطردت كاترين:

– بالطبع ستدافع عن نفسك، فإن جنديًا باسلاً مثلك لن يرضى عن الإنتقام لشرفه بديلاً. ولك أن تقرر فيما بعد إنك إضطررت إلى فعل ما فعلت دفاعًا عن نفسك.

– حسنًا يا مولاتي.. ولكن..

– يخيل إلى إنك تريدني على أن أضيف إلى الأمر (إن حيًا أو ميتًا).

– نعم يا مولاتي.

– حسنًا.

ونشرت الأمر، وأضافت العبارة المذكورة. ثم أعادته إلى مورفيل واستدعت مسيو دي نانسي رئيس حرمها. وطلبت إليه أن يذهب بمورفيل إلى جناح الملك شارل. حتى إذا عاد الركب من الصيد، جاء به – أي بمورفيل – إلى جناحها الخاص.

الفصل الثالث والعشرون

أطلق الصيادون الكلاب، فانطلقت إلى وكر الخنزير، وهاجمته. واضطرته إلى الخروج .واندفع شارل في أثر الخنزير يتبعه دوق دالنسون وهنري بعد أن أشارت إليه زوجته ألا يجعل الملك يغيب عن بصره. وحمى وطيس المطاردة، فتخلفت النساء أولاً، ثم دوق دي جيز وأتباعه.. وأخيرًا كف دوق دالنسون وهنري عن الإستمرار.

وتصادف أن إنفرد دالنسون بهنري، فقال الأول للأخير:

– ألا يخيل إليك أن شارل لا يتنازل بمعاملتنا كأمراء؟

– ولماذا تريده أن يعاملنا أفضل مما يعاملنا أقاربنا؟ إننا – أنت وأنا – نمثل دورًا معينًا في البلاط.

فأحمر وجه الدوق، وسأل، في لهفة:

– ماذا تعني؟

– أنظر حولك، يخيل إلي أن هذا الجمع من الرجال إنما يحول دون هروب شخصين معينين.

– هروب شخصين؟ ولماذا؟ وكيف؟

– إنك تمتطي جوادًا أصيلاً لا أشك في قدرته على مسابقة الريح، وهو ذا مفترق الطرق، فلم لا تترك العنان لجوادك ومن ثم ألحق بك؟

فلزم الدوق الصمت.. فقال هنري لنفسه:

– آه.. يخيل إلى أن أنباء بولندا قد أحدثت أثرها.. وإن الدوق قد رسم لنفسه خطة جديدة. ولعله يرجو أن أهرب بمفردي حتى يخلو له الجو.. ولكن لا. إن هذا الحلم بعيد التحقيق.

وقد أتيحت الفرصة التي عرضها هنري على الدوق للهرب. وذلك أن فريقًا من الهيجونوت المعروفين برزوا فجأة من بين الأدغال.. وعلى رأسهم الفيكونت دي بيورين.

وأشار الفيكونت إلى هنري إشارة معناها: هل ستأتي؟

فحول هنري بصره إلى الدوق، فرأى وجهة جامدًا كالصخر.. فأشار للفيكونت بالنفي.

وفجأة.. برز شارل من بين الأدغال، وهو يستحث جواده إلى الإسراع في أثر الخنزير.. بينما كان الصيادون يركضون خلفه وهم ممسكون بأعنة الكلاب.

وانتهز هنري الفرصة، وأقترب من زوجته.. وقال لقد تغير إتجاه الريح منذ الصباح كما توقعت.

– وهذه التغيرات.. أهي مضرة بالصيد؟

– نعم.. فإنها أحيانًا تفسد جميع تدبيراتنا بحيث يتعين علينا رسم خطة جديدة.

وللمرة الثانية ظهر شارل التاسع وهو يطارد الخنزير.. وكان الملك عاري الرأس ممزق الصدرية.. دامي الكفين والشفتين.

وانطلق الجميع في أثر الملك هذه المرة، فقد رأوا صخرة كبيرة تعترض سبيل الحيوان، وأدركوا أن اللحظة الفاصلة قد حلت.

وصح ما توقعوه، فقد ألقي الخنزير نفسه يواجه الصخرة، فتحول إلى الكلاب المهاجمة وبطش بها كلها، وحينئذ صاح الملك: أطلقوا كلبي.

فأطلقهما الصيادون. وصاح الملك: علي بحربة.

فلما جيء له بها. اندفع إلى الأمام، وقذف بالحربة بكل قواه، ولكنه أخطأ المرمى..

وكأنما أدرك الخنزير حرج موقفه. فتخلص من الكلبين. ثم هجم على شارل فجذب هذا عنان جواده، وتراجع الجواد إلى الخلف في حركة فجائية، ولكنه لم يستطع الإحتفاظ بتوازنه، فسقط على قائمتيه الخلفيتين.وانطلقت صرخات الذعر من أفواه الجميع.. فقد سقط الجواد فوق فخذ الملك شارل، فشل حركته تمامًا.

وصاح الملك في طلب النجدة. وكأنما أدرك الجواد عظم الخطر الذي عرض له سيده. فنهض من كبوته.. وكان دالنسون قد رفع غدارته في تلك اللحظة.. وأطلقها، ولكنه أخطأ الخنزير وأصاب الجواد في إحدى قائمتيه الخلفيتين فسقط الجواد ثانية فوق الأرض.

وأصفر وجه الدوق وغمغم قائلاً لنفسه:

– آه! أكبر الظن أن دوق دانجو أصبح ملكًا على فرنسا. وأنا ملك على بولندا.

وفجأة أرتفعت يد بخنجر حاد. ثم هوت تلك اليد، ودفنت الخنجر بين كتفي الخنزير، فسقط يتدحرج فوق الأرض.ونهض شارل واقفًا ومد يده وهو يقول في حرارة:

– شكرًا لك يا هنري.

وقال دوق دالنسون وهو يقترب من الملك:

– مسكين يا أخي.

– أهذا أنت يا دالنسون. عجبًا لك، إنهم يقولون إنك من أمهر الصيادين، ولكن أين هي رصاصتك يا ترى؟

فقال هنري في صراحة: إنها في قائمة جواد جلالتكم

فنظر شارل إلى أخيه شذرًا وتحول إلى الجميع، وقال:

– هلموا بنا إلى اللوفر أيها السادة.

الفصل الرابع والعشرون

كان إنقاذ هنري لحياة الملك شارل مدعاة للإبقاء على ثلاث عروش فلو أن شارل التاسع صرع في ذلك اليوم لاعتلى دوق دانجو عرش فرنسا.. ودوق دالنسون عرش بولندا. وأما نافار، فقد كان من المحتمل أن يهب دوق دانجو عرشها لأمير كونديه لأنه يحب زوجته.

جالت هذه الخواطر برأس هنري وأدرك أنه لو فرض ومات شارل لقضي عليه لا محالة لا يعرفه من كراهة دوق دانجو وأمه كاترين له.. وكان هذا هو الدافع الأول له إلى مهاجمة الخنزير قبل أن يفتك بشارل.

وعندما عاد هنري إلى قصر اللوفر، كان قد وضع خطته الجديدة فقصد من توه إلى جناح دوق دالنسون.. فوجده يروح ويغدو في غرفته بخطوات مضطربة قلقة.

وقد بدأه الحديث معتذرًا عن الملاحظة التي أبدأها لشارل عن إطلاق الدوق الرصاص على جواد الملك.. وختم حديثه قائلاً:

– على إني أرجو أن نترك هذا الحديث. فإني ما جئتك في الواقع إلا لأبرهن لك على إخلاصي وودي.

ودهش الدوق.. واستطرد هنري:

– يا صديقي. لقد أبديت نحوي من ضروب العطف ما يدفعني إلى للتصريخ لك بمسالة هامة وهي أن الهيجونوت عرضوا على عرضًا معينًا..

– عرضًا معينًا! وما هو هذا العرض؟

– أنت تعلم بغير شك أن دي موي هو أحد زعماء الهيجونوت المبرزين، ولقد جاء دي موي مخاطرًا بحياته، وعرض علي أن أعود لرئاسة الحزب لرغبتهم في إعادة عرش نافار إلي بصفتي وارثه الأصلي، ولكني رفضت هذا العرض لأنني قانع بأخوة الملك شارل وبنوة كاترين دى مدسيس.. وأهاج رفضي ثائرة دي موي، فأنطلق ينشد شخصًا آخر..

فصاح الدوق في قلق:– وهل عثر على ذلك الشخص؟

– نعم.. ولو إني لا أعرف الآن من هو. ولكن معرفته ليست بالأمر العسير .

فامتقع وجه دالنسون، واستطرد هنري:

– ولما كنت أعلم أن الهيجونوت منقسمون عن أنفسهم.. وأن دي موي لا يمثل إلا حزبًا من الحزبين.. فأنا أعتقد أن الحزب الآخر لم يفقد الأمل بعد في عدولي عن رأيي.. وأكبر برهان على ذلك ما حدث اليوم إبان الصيد، بيد أني لا أشعر الرغبة في تلبية نداء الهيجونوت، ولهذا جئت ألتمس نصحك كصديق.

– بل قل كأخ!

– يالله! إذن فأنت تقبل أن تسديني النصح؟ ألا ترى أن الأجدر أن أطلع جلالة الملك شارل على سر المؤامرة دون ذكر الأسماء. وبذلك أحول دون وقوع الكارثة؟

فبدا الذعر على وجه الدوق، وصاح بصوت أجش:

– يا إله السماوات! ماذا تقول؟ أتريد أن تهيئ لكاترين دي مدسيس الفرصة لتقضي على البقية الباقية من الهيجونوت؟

كان الدوق يرتجف من الفزع.. وأدرك هنري أنه أصاب المرمى، فاستطرد متظاهرًا بالدهشة:

– ماذا؟ أتعتقد يا فرانسوا أن شيئًا من ذلك يحدث لو إني بحت بالسر؟

– بكل تأكيد..

فتظاهر هنري بالتفكير.. ثم قال:

– لو إني كنت أميرًا من أمراء البيت المالك لتصرفت تصرفًا آخر آه.. لقد خطرت لي فكرة.. لماذا لا تنضم إلى الهيجونوت وتتزعم حزبهم، فتفوز بعرشهم بدل البقاء هكذا عرضة لمؤامرات أخويك وأمك؟

فشاع السرور في وجه الدوق، وقال:

– إنك تقول إن الهيجونوت منقسمون على أنفسهم فكيف يمكن التوفيق بينهم؟

– إني على استعداد لجمع كلمتهم، ومساعدتك في ارتقاء العرش..

– ولكن ماذا يكون الموقف لو مات شارل؟

– أنحلت المشكلة.. فلو فرض ومات شارل فستصبح أنت ملكًا

على فرنسا.. فإن دانجو سيرتقي عرش بولندا بغير شك.. ولا أخالك تعتقد أن المسافة بين بولندا وباريس أقرب منها بين بيارن وباريس.

فركض قلب الدوق بين ضلوعه.. وقال:

– إن الكلام لا يجدي.. إنما هي الأفعال التي تثمر.

– لسوف أبرهن لك على صدق قولي هذا المساء وفسآتيك بقائمة بأسماء زعماء الهيجونوت والخطة التي سيتقرر السير بمقتضاها.

فقبض الدوق على يد هنري وشد عليها في حرارة دلالة عن الشكر.وفي هذه اللحظة نفذت كاترين إلى الغرفة دون أن يعلن أحد مقدمها كالعادة وابتسمت.. ثم صاحت:

– آه.. دائمًا معا كأخوين متحابين.

وامتقع وجه الدوق. وأما هنري فابتسم. وقال:

– آمل ذلك يا مولاتي.

ودست الملكة يدها في جيبها، وأخرجت ماسة كبيرة يخطف بريقها الأبصار وقدمتها لإبنها وهي تهمس في أذنه:

– لو فرض وسمعت ضوضاء وجلبة في جناح هنري هذا المساء فلا تلق إليها بالاً.

فقبض فرانسوا على ذراع أمه.. وهتف:

– أتسمحين لي أن أعرض هذه الماسه الجميلة على أخي هنري؟

– بل يمكنك أن تقدمها هدية له بأسمينا، فقد أوصيت على غيرها

وتقبل هنري الهدية شاكرًا. وقالت كاترين:

– إني أشعر بوعكة خفيفه يا ولدي هذه الليلة. فأرجو المعذرة. وبهذه المناسبة أرجو أن تسمح لي بأن أشكرك على إنقاذك حياة شارل..

ثم غادرت الغرفة.

وبعد عدة دقائق غادر هنري أيضًا الجناح كله.. وهو يقول لنفسه:

– لقد سقطت في الفخ يا عزيزي دالنسون. والآن لنأخذ حذرنا فإن كاترين ما كانت لتقدم لي هدية مشفوعة بالشكر إلا ووراء الأكمة ما وراءها.. ومهما يكن من شيء أرى أن أتحدث إلى مرجريت في الأمر هذا المساء.

الفصل الخامس والعشرون

قضى مورفيل شطرًا من النهار في جناح الملك.. وأرسل في طلب أعوانه، فوصلوا متفرقين. ولما تأكدت كاترين من قرب عودة ابنها بحاشيته أرسلت في طالب مورفيل وأبقته في جناحها الخاص.وعندما عاد شارل إلى جناحه أبلغته مربيته بما كان من إنتظار مورفيل في جناحه ثم إنسحابه إلى جناح الملكة الوالدة قبل عودة الجماعة.

وأدرك شارل أن أمه تضمر شرا لهنري فعول على إنقاذه من براثنها إعترافًا بجميله، فجلس إلى مكتبه وظل يقرض الشعر حتى دقت الساعة التاسعة، فتسلل إلى جناح هنري، ولكنه لم يجده هناك. فقرر الذهاب إلى جناح أخته مرجريت للبحث عنه.

وكانت مرجريت قد دعت دوقة دي نيفرز وكوكوناس ودي لامول لتناول طعام العشاء معها.

وطرق شارل الباب. فذهبت جيلون وفتحته، ولكنها لم تكد ترى الملك حتى جمدت في مكانها من فرط الدهشة والذعر، ولكن شارل أزاحها من طريقة وتقدم إلى غرفة الإستقبال، وهو يغمغم:

- مسكين هنري.. إنه يمرح هنا غير عالم بالخطر الذي يتهدده..

ثم وقف على عتبة الباب.. وقال:

- آه.. إنكم تتناولون طعام العشاء..

ورأته مرجريت فقفزت واقفة وقد راح وجهها في لون الرماد.. وأما الرجلان فقد كان ظهراهما إلى الملك، ولكنهما أدركا الخطر الذي يحلق فوق رأسيهما.. فجمدا في مكانهما.

وكان كوكوناس حاضر البديهة.. فتظاهر بأنه ينهض عن المائدة، ودفعها بيده فسقط كل ما فوقها، وأنطفأ المصباح وساد الظلام..

همس في أذن دي لامول:

- تسلل إلى الخارج.. أسرع! أسرع.

ولم ينتظر دي لامول أكثر من ذلك، وأنطلق إلى الغرفة الجانبية متسللاً، ولكنه أصطدم برجل دخل في هذه الآونة من الممر السري.

وصاح شارل في ملل:

- ما معنى هذا؟ هل أنا دخيل؟ هاري.. هاري.. أين أنت..

وغمغمت مرجريت وهي تقبض على يد كانت تعتقد إنها يد كوكوناس:

- لقد نجونا.. فالملك يعتقد أن زوجي أحد المدعوين

فقال هنري في لهجة هادئة:

- أطمئني يا سيدتي.

وذعرت مرجريت وتركت يد زوجها.. وصاحت:

- يا إله السماوات.

وعاد الملك يقول:

– ما معنى هذا، ولم لا تجيب يا هاري

– هأنذا يا مولاي

فصاح كوكوناس:

– يا للشيطان.. إن المؤامرة تضيق حلقاتها.

ورأى إنه لا يمكن الإستمرار في هذه المهزلة، فأسرع وأشعل المصباح. وأدار شارل حوله بصرًا فاحصًا.. وقالت مرجريت:

– أرجو المعذرة يا أخي، فإننا لم نكن نتوقع قدومك.

وأدرك هنري الموقف على حقيقته. فقال:

– ولقد أدهشني مجيء جلالتكم الفجائي فقلبت المائدة بما عليها.

فقال شارل:

– إذن تعال وتناول معي الطعام خارج اللوفر.

وتحول إلى مرجريت يستأذنها في ذلك. فصاحت:

– مولاي.. إننا خدامك المخلصون ومن دواعي غبطتنا أن تتنازل بشمولنا بعطفك.

وأعلن هنري عن رغبته في الذهاب إلى غرفته لاستبدال معطفه ولكن شارل منعه من ذلك، وأصر على رأيه بشدة جعلت هنري يدرك أن في الأمر شيئًا.

وتصادف أن وقع بصر شارل على كوكوناس. فسأل:

– ومن هذا السيد؟ أهو دي لامول؟

وأجاب هنري:

– كلا يا مولاي.. هذا صديقه كوكوناس.

ودهشت مرجريت وتساءلت:

– ترى من حدثه بدي لامول. وكلاهما من رجال الدوق دالنسون.

– آه.. آه.. الصياد الحكيم!

وأنطلق الملكان إلى الخارج.. وعندما وصلا إلى بوابة القصر توقف هنري قليلاً ريثما يتحدث إلى أحد الأشخاص. فصاح شارل:

– أسرع! أسرع. لماذا تتسكع هكذا بحق الشيطان، وقد أخبرتك أن هواء اللوفر لا يصلح لك الليلة؟

فأنتفض هنري وقال لنفسه: يالله، إن دي موي وحيد في غرفتي الآن.. فإذا كان هواء اللوفر لا يصلح لي فلعله خانق بالنسبة إليه.

ولحق بالملك.. وصفر شارل بشفتيه صفيرًا غريبًا، فبرز أربعة رجال من شارع دي بوفيه، وانضموا إلى الملكين.

وفي ذات المساء أنطلقت مرجريت دي فالوا وصديقتها هنريت مع عشيقيهما دي لامول وكوكوناس إلى منزل كلوش برسييه حيث تطيب لهم الخلوة.

الفصل السادس والعشرون

ساد السكون أرجاء اللوفر.. وآوى ساكنوه إلى مضاجعهم إلا دوق دالنسون الذي كان يرهف السمع ليسمع الضوضاء التي أنذرته بها أمه.. وكاترين التي أضطجعت في فراشها وهي تصغي إلى مدام دي سوف التي كانت تقرأ لها في كتاب فكاهي.

وأرسلت كاترين في استدعاء أبنتها مرجريت، فعاد الرسول ومعه جيلون التي قالت إن مولاتها غادرت القصر مع دوقة دي نيفرز وإنه من المحتمل أن تقضي الليل خارج القصر.

وفجاة.. تحولت كاترين إلى مسيو دي نانسي رئيس حرسها وأمرته بصرف حراس الدهليز.

كانت تلك هي العلامة المتفق عليها بينها وبين مورفيل. ومضت نصف ساعة.. وفجأة مزقت شمل السكون صرخة ثاقبة، وقف لها شعر الرؤوس، وأعقبها طلق ناري.

وتوقفت مدام دي سوف عن القراءة.. فاستحثتها كاترين على المضي فيها..

فقالت الوصيفة وقد أصفر وجهها:

– مولاتي.. ألم تسمعي الصرخة والطلق الناري؟

– ماذا تقولين؟ كلا لم أسمع شيئاً.. ربما كان أحد الحراس الثملين مشتبكًا مع زملائه في عراك..

واشتدت الضوضاء وتعاقبت الصرخات والطلقات، فلمعت عينا كاترين ببريق وحشي بينما زاد إصفرار وجه الوصيفة، وصاحت بصوت مختنق:

– مولاتي، إن الصرخات والطلقات صادرة من جناح ملك نافار.

وابتسمت كاترين ساخرة. وأمرت الوصيفة بالاستمرار.

ولكن شارلوت لم تستطع، فقد شعرت بالأرض تميد تحت قدميها، ولم تلبث أن هوت فاقدة الرشد.

وهرول دي نانسي إلى الغرفة وهو مصفر الوجه. وصاح:

– مولاتي، يخيل إلى أن مذبحة تحدث في القصر.

وهم بالذهاب لمعرفة ما يحدث.. ولكن كاترين أوقفته بإشارة من يدها، وهي تقول:

– كلا.. بل أبق هنا وسأذهب أنا لاستطلاع جلية الأمر.

* * *

وإلى القارىء ما حدث في غرفه هنري دي نافار.

حين تناول دي موي المفتاح من يد هنري. كانت بداخله ورقة مطوية تحتوي على كلمة السر. فلما جن المساء تسلح الشاب بغدارتين وحسام،

ثم إرتدي الثياب التي تشبه ثياب دي لامول، وانطلق إلى قصر اللوفر. وقد قاده أرثون إلى مخدع مولاه، وجلس دي موي في الإنتظار. فلما انقضى شطر كبير من الليل دون أن يأتي هنري خلع الشاب ثيابه، وصعد إلى الفراش وأرخى ستائره.

وفي تلك اللحظة برز ستة رجال في الدهليز وهم مسلحون بالسيوف والخناجر. وتقدموا من جناح هنري. وكان مورفيل يتقدم هؤلاء الرجال، وحسامه في يد والخنجر في اليد الأخرى، فلما وصلوا إلى الباب فتحه مورفيل بالمفتاح الذي أعطته له كاترين..

وأفاق أورثون من نومه على صوت فتح الباب.. ووقف يستقبل القادم معتقدًا إنه مولاه، وإذا به يرى ستة رجال مسلحين، فتراجع إلى الخلف حتى ألتصق بباب المخدع. وصاح:

– من أنتم؟ وماذا تريدون؟

فقال مورفيل: بإسم الملك أين سيدك؟

– إنه بالخارج.

– أنت تكذب. تنح عن الباب

وصاح الخادم:

– كلا.. إنكم لن تدخلوا.

فأنقض عليه أربعة من الرجال، وأبعدوه عن الباب، ولطمه مورفيل بقبضة سيفه فوق رأسه، فخر المسكين مغشيًا عليه وهو يصيح:

– خيانة.. خيانة!

وتجمهر أتباع مورفيل في المخدع. ونظر الأخير إلى ستائره المسدلة، ثم أشار إلى رجاله بالهجوم. وسمع المهاجمون صرخة أشبه بزئير الأسد ثم أزيحت الستائر على الأثر وظهر دي موي، وهو جالس في الفراش، وفي كلتا يديه غدارة وحسامه فوق ركبته. وتراجع مورفيل إلى الخلف كأنما رأى شبحًا بغيضًا..

فصاح دي موي:

– أيها الوغد! أجئت لتقتلني كما قتلت أبي من قبل؟

وأطلق النار على مورفيل، ولكن الأخير ركع على ركبتيه فجأة، فأخطأه المقذوف وأصاب أحد رجاله فخر مدرجًا بدمائه.

وأطلق مورفيل النار بدوره، فأصابت الرصاصة قبعة دي موي. فقفز الشاب من الفراش ثم أطاح برأس الحارس الثاني بضربة من حسامة.

وأنفرد مورفيل بدي موي.. وتلاقى سيفاهما.. ولكن المبارزة لم يطل أمدها إذ لم يلبث حسام دي موي أن نفذ من عنق مورفيل، فسقط فوق الأرض وهو يتأوه من الألم. وأسقط معه المصباح، فأنطفأ.. وساد الظلام.

وأندفع دي موي من الغرفة كالأسد، وعندما حاول بقية السفاكين إعتراض طريقه أصابهم من حسامه ويديه الشيء الكثير.

ووصل الشاب إلى باب اللوفر، وهناك نطق بكلمة السر. وأضاف إليها قوله:

– أصعدوا إلى الطابق الثاني، فإنهم يذبحون بإسم الملك.

* * *

وشرعت كاترين دي مدسيس إلى ردهة جناح هنري وهي تحمل مصباحًا صغيرًا. واصطدمت قدمها بجثة أورثون. فصوبت إليه ضوء المصباح. ثم هتفت:

– آه.. هو ذا الخادم. إذن سنعثر على جثة سيده.

وتقدمت من باب غرفة النوم، فأصطدمت للمرة الثانية بجثة أحد الحراس، ولكنها لم تلق إليها بالاً، ونفذت إلى الغرفة..

واقتربت من الفراش، فأصطدمت قدمها للمرة الثالثة بجثة رجل، فحولت الضوء نحوها.. فإذا بها ترى مورفيل وهو يعاني سكرات الموت ويحاول النهوض.

وانتفضت كاترين، وأطلت داخل الستائر. فإذا هي ترى الفراش خاليًا. فنكصت خطوة وراحت تقلب الطرف في أرجاء الغرفة لعلها تعثر على ضالتها المنشودة.ورفع مورفيل يده إلى كاترين في حركة القانط.. فسألته في صوت أجش:

– أين هو؟ هل أفلت منك؟

وحاول الجريح أن يتكلم.. ولكنه لم يستطع.. فأشار إلى جرحه وسقط مغمى عليه. ووقع بصر كاترين على ورقة في جيب السفاك. فاختطفتها وأخفتها في ردائها.. كانت الورقة المحتوية على أمر القبض على هنري دي نافار

وفي اللحظة التالية دخل دوق دالنسون إلى الغرفة وهو مصفر الوجه بادئ الإضطراب، كان الدوق قد أدراك أن أمه تضمر لهنري شرًا عندما حذرته من الإهتمام بالضوضاء التي تحدث في جناح ملك نافار.

وسره أن يتخلص من هذا الغريم الخطر. فجلس ينتظر ولم يلبث أن سمع وقع أقدام السفاكين وهم يقتربون من جناح هنري، فأدرك أن اللحظة الفاصلة قد حانت، بيد إنه إزداد دهشة عندما سمع صوت الطلقات، وراى دي موي ينطلق من غرفة الملك والرجال يشيعونه بالطلقات النارية.

وشعر بالذعر يتمشى في قلبه فخرج إلى الباب العمومي، ولما تأكد أن دي موي استطاع الفرار عاد إلى غرفة هنري وهناك التقى بأمه.

سأل في فزع:

– ما معنى هذا بحق السماء؟

– عد إلى غرفتك يا بني، وعما قريب تعرف كل شيء.

وأمرت كاترين مسيو دي نانسي أن ينقل جثث الموتى إلى الخارج وأن يأتي بدي مورفيل محمولاً إلى جناحها..

وعادت أدراجها وهي تغمغم: أواه.. لقد أفلت للمرة الثانية.. إن يد الله تأخذ بناصره.. وسيحكم. وسيحكم!

وفتحت الباب وهي تتكلف الإبتسام: فتلقتها مدام دي سوف في لهفة وقلق وسألت:

- ماذا حدث بحق السماء يا مولاتي؟

- لا شيء.. لا شيء..

فصاحت الوصيفة في ذعر ولكن كل خطوة من خطواتك تترك أثرًا من الدم في السجادة.

الفصل السابع والعشرون

سار شارل مع هنري حتى وصلا إلى قصر أمير كونديه.. ونفذ منه رجلان من الباب.. ودهش شارل. وصاح: – يالله إن الأمر يدعو إلى التفكير والإستقصاء

واستحث هنري على الإسراع في أثر الرجلين.. ثم نادى بأعلى صوته:

– أيها السادة.. مهلاً..

فقال أحد الرجلين: هل تدعونا يا سيدي؟

وانتفض هنري. وهمس قائلاً: مولاي.. لولا ثقتي عن وجود أخيكم دانجو في حصار روشيل، لاعتقدت إنه المتكلم.

وابتسم شارل.. وأعاد النداء.. فهتف ثاني الرجلين:

– ماذا تريد يا صاح؟

وللمرة الثانية أنتفض هنري وهتف:

– دوق دي جيز.

وكان الملك ورفيقه قد أقتربا من الدوقين. وصاح شارل:

– أهذا أنت يا ابن العم؟

وأخذ الدوق يغمغم:

– جلالة الملك!

وأسرع دوق دانجو بإخفاء وجهه خلف معطفه، ولكن شارل تقدم منه، وقال:

– من عجب حقًّا أن تعود يا دانجو إلى باريس ولا تبادر بزيارة مولاك.

فقال الدوق في صوت خافت:

– مولاي. أرجو صفحك.

فقال الملك ساخرًا:

– بغير شك.. ولكن ماذا كنتما تفعلان في قصر أمير كونديه؟

وأردف ملك نافار:

– آه! كانا في زيارة بالطبع. وضحك ضحكة ساخرة.

فانتفض دي جيز وهتف:

– وماذا في ذلك يا سيدي؟ ألا يحق أن أزور زوجة أخي؟ ألا يزور دوق دالنسون أخته؟

وتحول شارل إلى هنري ينشد جوابه فقال:

– نعم يا سيدي: هذا من حقك لا ينازعك فيه منازع.

واستطرد دي جيز: وبهذه المناسبة، لقد مرت بنا الآن مركبة أنيقة تقل مرجريت ودوقة دي نيفرز وعلى يمينها نجمان ساطعان.

وأضاف دوق دانجو:

– وقد وقفت المركبة أمام منزل معين في شارع كلوش برسييه.

وضاق الملك شارل ذرعًا بهذا الحوار. وأراد أن يضع حدًا لهذه المهزلة فتحول إلى رجاله وصرفهم بعد أن أمرهم بإنتظاره في الساعة السادسة من صباح غد أمام سجن الباستيل.ولما انصرف الحراس. تحول الملك إلى رفقائه. وقال:

– أرى أن نتحرى الأمر بأنفسنا. فهلموا بنا إلى المنزل الذي وقفت أمامه المركبة.

ولما وصلوا إلى المنزل المعهود. وطرقوا الباب. تصدى لهم البوابة الألماني، ورفض أن يسمح لهم بالدخول ولكن دوق دى جيز لم يشأ أن يضيع هذه الفرصة النادرة للإنتقام من عدوه اللدود هنري، فترك أصحابه.. ثم عاد بعد لحظات وهو يحمل حجرًا ضخمًا أنقض به على الباب فحطمه.

وسقط البواب فوق الأرض. فأسرعوا إليه وشدو وثاقه وهو يصرخ بصوت مزعج.

* * *

وكانت مرجريت وصديقتها وعشيقاهما مجتمعين في غرفة بالطابق الثاني، فما إن سمعوا صوت التحطيم وصراخ البواب حتى أسرعوا بإطفاء المصباح. وهرول الشابان إلى الشرفة فرأوا الملك ورفقاءه وهم يحاولون الدخول عنوة إلى المنزل.

وأسرع كوكوناس إلى المائدة وشرع في إلقاء الصحاف من النافذة فوق الملك ومن معه، فأصاب شارل في رأسه. ودي جيز في أنفه، أما هنري فإنه الوحيد الذي لم يصب بسوء لتنحيه عن الباب في الوقت المناسب.

صاح الملك في غضب:

– يا للشيطان!

وسمعت مرجريت صوت أخيها. فأنتفضت وصاحت:

– إنه الملك.. بادروا إلى الفرار.

ودفعت دي لامول نحو أحد الجدران. وأخرجت من جيبها مفتاحًا وضعته في ثقب باب سري. ثم نفذ الجميع إلى منزل مجاور، وأغلقوا الباب .

* * *

وفي اللحظة التالية.. فتح باب الغرفة، ونفذ الملك أصحابه إلى الداخل فرأوا الأثاث المبعثر، والصحاف المتناثرة في أنحاء الغرفة.. ولكنهم لم يعثروا فيها على أثر شخص.

قال دوق دي جيز في غيظ مكتوم:

– أكثر الظن إنهم هربوا من باب سري.. وراح يتحسس جدران الغرفة.. ولكنه عاد بخفي حنين.

وقال هنري شامتًا:

– مولاي لم يعد ثمة شك في أن إتهام الدوق لزوجتي لم يكن له أساس من الصحة..

وابتسمم شارل.. وقال:

– هلموا بنا أيها السادة.. فقد أفلت الصيد الثمين من أيدينا..

وفي الطريق، افترق الملك وهنري عن الدوقين، وقال الأول للثاني:

– تعال، لقد وعدتك بعشاء فاخر خارج اللوفر، فهلم بنا

وقاده إلى شارع جيوفري لاسينيه.. ثم إلى شارع لامور تلربيه، وهناك وقفا أمام باب منزل أنيق تحيط به حديقة غناء..وأخرج شارل مفتاحًا من جيبه، وفتح الباب، ثم أشار إلى هنري بالدخول، وأغلق الباب خلفهما..

ورأى الملكان ضوءًا ينبعث من نافذة إحدى الغرف، فأبتسم شارل وقال:

– هنا أجد الراحة كلما خيل إلى أن جو اللوفر لا يلائمني..

– ومن هو الملاك الذي يحرس جنة عدن هذه يا مولاي؟

– سوف ترى..

وأشار إليه أن يتبعه، فنفذا إلى دهليز.. ثم إلى غرفة ثمينة الرياش.. وأشار بأصبعه إلى الداخل وقال: أنظر.

وألقى هنري بصره إلى الداخل ولم يلبث أن جمد في مكانه، رأى غادة هيفاء رائعة الجمال في الثامنة عشرة من عمرها جالسه بجوار مهد صغير تمدد فيه طفل، وقد تناولت الفتاة يدي الطفل بين يديها وأدنتهما من شفتيها..

صاح هنري فى دهشة :

– يا الله يا مولاي.. من هذه المخلوقة الحسناء؟

– إنها ملاكي الحارس يا هنري.. إنها المرأة الوحيدة التي تحبني لشخصي حتى قبل أن أصبح ملكًا..

وتقدم شارل من الغادة في حذر، ثم طبع على خدها المورد قبلة حارة، ففتحت الغادة عنينيها، وهتفت: – شارل؟

فقال الملك لرفيقه: أنظر.. إنها تدعوني بإسمي مجردًا بينما تدعوني زوجتي إليزابث (مولاي)

وصاحت الحسناء في دهشة: إذن فأنت لست بمفردك يا مولاي؟

– كلا يا عزيزتي ماري.. إني جئتك بملك آخر أسعد مني لأنه بغير تاج..

- إذن فهو ملك نارفار يا مولاي؟

– نعم يا حبيبتي..

وتقدم هنري من الغادة.. فأمسك شارل بيمينه وقال:

– أنظري إلى هذه اليد يا ماري.. إنها يد أخ وصديق مخلص، ولولاه لكنت في عداد الأموات..

فأنطلقت من بين شفتي الحسناء صرخة فزع.. وقبضت على يد هنرى وقبلتها. واقترب شارل من المهد.. ونظر إلى الطفل في حنان ثم قال:

– لو كان هذا الطفل ينام الآن في قصر اللوفر.. لتغير كل شيء تغييرًا كليًا..

فقالت الأم:

– مولاي.. إني أفضل أن يبقى ولدي بعيدًا من دسائس اللوفر لينعم بنومه وإطمئنانه..

– إنك على حق يا ماري..

ثم طلب إليها إعداد المائدة.

* * *

وعندما فرغ المكان من تناول الطعام الفاخر الذي هيأته لهما ماري توشية.. دقت الساعة الثانية بعد منتصف الليل، وقال الملك شارل يخاطب عشيقته:

– ماري.. خذي هنري إلى إحدى الغرف وهيئ له فراشًا

وتحول إلى هنري وقال: إذا فرض واستيقظت قبلي أيقظني..

ثم مال فوق أذنه وهمس:

– إني أتوسل إليك ألا تغادر هذا المنزل بدوني..

* * *

وفي الصباح أيقظ شارل هنري، وأرتدى الملكان ثيابهما ذهبا إلى غرفة ماري توشيه وكانت نائمة وقال شارل لهنري:

– يا أخي.. لو قدر لك أن تعرف الخدمة التي قدمتها إليك الليلة وحدث أن حل بي مكروه، فتذكر هذا الطفل النائم في مهده نوم الأبرار..

تم قبل الغادة وانطلق مع صاحبه إلى الخارج، وعلى شفتيه إبتسامة سعيدة.. وعندما وصلا إلى الباستيل وجدا جوادين في إنتظارهما.. فأمتطياهما وأنطلقا بهما إلى حدود باريس..

وأشار شارل بأصبعه إلى كوكبة من الفرسان كانت تحيط بمركبة أنيقة والجميع في طريقهم إلى المدينة..

وابتسم ملك فرنسا.. وقال: آه. هذا ما توقعته.

– ما هذا يا مولاي؟ إني أرى دوق دانجو مع القادمين.

– نعم. نعم. هلم بنا نرجع من حيث جئنا، فهؤلاء سفراء بولندا جاءوا يعرضون علي تاج بلادهم..

وكر الملكان عائدين إلى باريس.

الفصل الثامن والعشرون

كانت كاترين قد أمرت دي نانسي بنقل الجرحى، وغسل السجادة مما علق بها من الدماء.. ثم عادت إلى جناحها وهي تصب على هنري ملك نافار لعناتها..

وفي صباح اليوم التالي سمعت كاترين ضوضاء في ساحة القصر، فقصدت إلى جناح ابنها الملك وأطلت إلى الخارج.. قرأت شارل وهنري والحراس وهم يدخلون إلى الساحة..

تبلجت الحقيقة أمام عينيها، وأدركت أن شارل لم يمانع في كتابة أمر القبض، لأنه كان قد عول على إنقاذ هنري.

غمغمت:

– يا له من أعمى..

وفتح الباب.. ونفذ منه شارل وهنري.

وتقدم شارل إلى الداخل: ولم يلبث أن صاح:

– أهذا أنت يا أماه؟

– نعم يا بني.. إني أريد التحدث إليك على أنفراد..

فأحني هنري قامته إحترامًا.. وغادر الغرفة. ولم يغب عن شارل أن الزوبعة على وشك الهبوب.. فقال على الفور:

– أرى إنك غاضبة يا أماه لأني أفسدت تدبيرك، وأبعدت هنري عن اللوفر..

فصاحت كاترين وهي تصرف بأسنانها:

– إنك أحمق يا شارل.. فإن هنري متآمر وفي إستطاعتي أن أقدم إليك البرهان..

ودهش شارل.. واستطردت كاترين:

– نعم. وإذا شئت اسأله عمن كان في غرفته ليلة أمس.. وعمن بطش بمورفيل وقتل ثلاثة من حراسك الأمناء..

فصاح الملك: آه.. آه.. يخيل إلى أن المسالة خطيرة. ولكن هل قبضتهم على الجاني؟

– كلا.. لقد هرب دون أن يصيبه مكروه..

– ها.. ها.. إنه بطل باسل كما يلوح.. وبودي لو أعرفه.

– إنه كان يرتدي معطفًا أحمر، وقبعة من ذات اللون..

فأصفر وجه شارل.. ونهضت كاترين واقفة وهي تقول:

– حسنًا.. أنتظرني هنا ريثما أعود.

* * *

كان هنرى قد أدرك أن خطرًا يحلق فوق رأسه عندما رأى وفيما كانت تقلب الأمر على وجوهه أعلنتها جيلون بوصول هنري..ودخل

هنري إلى الغرفة وعلى شفتيه إبتسامة خفيفة، كأنما لم يكن هو ذلك الرجل الذي ثلم شرفه، وطعن في كبريائه.

وقص على مرجريت كل شيء، وأوضح لها الخطر الذي يتهددهم ثم أطلعها على ما أستقر عليه الرأي بينه وبين دالنسون .

وذعرت مرجريت.. وقالت:

– ولكني أؤكد لك أن دي لامول بريء.. فإنه لم يكن في اللوفر ليلة أمس..

– آه.. حقًا، قد يكون الأمر كذلك، ولكن تذكري إننا الآن على حافة الهاوية، وإن ريحًا خفيفة تكفي لإلقائنا من حالق.

وفكرت مرجريت لحظة. ثم قالت:

– سيدي.. إذا كان ذلك فثق إنني سأعمل على إلزام دي لامول الصمت.

فنهض هنري واقفًا. وقال:

– حسنًا سأذهب الآن وأعمل على رتق الخرق الذي أتسع بتصرف صاحب الرداء الأحمر اللعين.

وهتفت مرجريت وقلبها يتقطر أسى:

– مسكين دي لامول.

* * *

عادت كاترين إلى جناح إبنها شارل وتحدث إليه بضع دقائق، ولم يلبث الملك أن صاح في دهشة:

– مسيو دي لامول.. يجب أن نرسل في طلب دالنسون وهنري.. الأول لأن الشاب في خدمته، والثاني لأنه هيجونوتي..

وما هي إلا دقائق حتى دخل الدوق على أخيه، وهو بادى الهدوء والإطمئنان، فقد هيأته مقابلته لهنري لكل المفاجآت المحتملة.. وأجاب على أسئلة أخيه الملك بصوت متزن. وقال إن أمه حذرته من مغادرة غرفته.. وHنه كان يجهل كل شيء عن المعركة التي نشبت أثناء الليل.. بيد أنه نظرًا لوجود جناح الملك هنري بالقرب من جناحه فقد سمع وقع أقدام وصوت باب يفتح.. ثم طلقات نارية فخرج ليستطلع جلية الأمر.. وحينئذ وقع بصره على رجل يرتدي معطفًا أحمر وهو يشق طريقه إلى النجاة..

وتبادل شارل وأمه نظرة ذات معنى وسأل الملك:

– ألم يوح إليك المعطف الأحمر بشخصية الهارب؟

فتظاهر الدوق بالتفكير، وhستجمع قواه ليبدو هادئًا مطمئنًا، ثم قال:

– نعم. خيل إلى أن الهارب هو أحد رجالي ويدعى الكونت دي لامول..

ثم تحول إلى الباب ينشد الإنصراف ولكن الملك أشار إليه بأن يسلك طريقًا آخر غير الطريق العام، فقد أراد أن يحول بينه وبين لقاء هنري دي نافار..

ودخل هنري وبدأ حديثه قائلاً:

– مولاي.. إن جلالتكم أرسلتم في إستدعائي ولكني كنت قادمًا من تلقاء نفسي لأشكر جلالتكم على إقصائي عن اللوفر ليلة أمس، وبذلك حفظتم على حياتي ولكني أتساءل الآن:– ماذا فعلت حتى أستحق أن أذبح؟

فصاحت كاترين:

– ومن قال إنهم كانوا يريدون قتلك؟ إن المسألة لم تكن تعدو إلقاء القبض عليك..

– إلقاء القبض علي؟ وأي جريمة ارتكبت يا سيدتي؟ ألا يتكرم مولاي بذكر السبب الذي دعاه لإصدار هذا الأمر؟

فنظر شارل إلى أمه كأنما يطلب الغوث، فقالت كاترين:

– يا بني. لقد اتضح إنك تتآمر مع أشخاص تكتنفهم الريبة..

– إذن أرجو مولاتي أن تصرح بأسماء هؤلاء الأشخاص.

وقال شارل:

– هذا من حقه يا أماه.. بل إن له كل الحق في المطالبه بالإيضاح..

فأنتهز هنري الفرصة.. وأردف:

– بل إنني أصر على ذلك يا مولاي.. فإني ما فعلت شيئًا.. أشتم منه رائحة الغدر والخيانة، وجلالتكم تعرفون مدى إخلاصي لعرشكم وحبي

لشخصكم، ولا أظنني في حاجه إلى التدليل على ذلك بعد ما بدا مني أثناء الصيد..

فصاح شارل:

– يا للشيطان.. إنه على حق يا أماه..

فسألت كاترين:

– حسنًا ولكن من كان في غرفتك ليلة أمس؟

– من أين لي أن أعرف ذلك يا مولاتي.. وقد كنت برفقة لأي الملك خارج اللوفر..

– ولكن ثبت أن مسيو دي لامول أحد أتباعك قتل ثلاثة من الحراس وجرح مسيو مورفيل..

– إنك على خطأ يا مولاتي.. فإن دي لامول ليس من أتباعي.. فهو من أتباع دوق دالنسون، أنا لا أنكر إخلاص الكونت نافار.. وهي لهذا تتخذ منه رسولاً بينها وبيني في إرسال رسائلنا.. ولعلها أرادت مكافأته على إخلاصه فألحقته بخدمة أخيها دالنسون..

ثم أحنى قامته للملك وأمه على الأثر وغادر الغرفة..

انزعجت كاترين لهذا الفشل وصاحت وهي تغلي من الغيظ.

– يا للعين.. لقد أنتصر علينا هذه المرة أيضًا..

– يا أماه أنا واثق إنك تكرهين هنري حتى الموت.. ولكني مطمئن

إلى إخلاصة، ولن أسمح لأحد بأن يمس شعرة واحدة من رأسه وأما عن دي لامول فإني سأتحدث إلى دالنسون بشأنه..

فنهضت كاترين، وغادرت الغرفة وهي تحرق الأرم غيظًا ولم تكد تصل إلى غرفتها حتى وجدت مرجريت في إنتظارها، وقد بادرت الأبنة أمها قائلة:

- إني ما جئت إليك إلا لأنبهك إلى خطأ عظيم أنتم على وشك الوقوع فيه.. فقد بلغني أنكم ستلقون القبض على مسيو دى لامول بتهمة قتل ثلاثة رجال من حرس الملك، ولكني أقرر صراحة وعلانية أن مسيو دي لامول بريء من مثل هذا الإتهام..

فشاع السرور في وجه كاترين.. وخطر لها أن تحاول معرفة السر الحقيقي من أبنتها فقالت:

- بريء.. وكيف ذلك يا ابنتي؟

- نعم بريء. لأنه كان برفقتي ليلة أمس وكنا معًا خارج اللوفر..

- إذا كان ذلك.. فمن كان إذن بغرفه هنري دي نافار

- هذا ما لا علم لي به..

وأصفر وجه مرجريت وخشيت أن تخونها شجاعتها. فأسرعت بالإنصراف..

* * *

وعادت كاترين إلى جناح إبنها شارل وقد أصرت في نفسه على إلقاء هنري وزوجته في غياهب السجن..

وكان شارل مجتمعًا بأخيه دالنسون في تلك اللحظة فلم يكد ير أمه حتى بدا عليه الإنفعال والغضب، وسأل عما تريد، فقالت إنها تأكدت أن دي لامول بريء مما نسب إليه وأن الأفضل الإنتظار ريثما يبرأ مورفيل من جراحه.. ويستطيع الإرشاد عن الشخص المنشود..

وختمت حديثها قائلة: ومهما يكن الأمر، فإني أعتقد أن علاقة دي لامول بمرجريت أصبحت مضغة في الأفواه.. وإن الواجب يقضي علينا بخنق الفضيحة في مهدها. نعم. يجب أن تفكروا في وسيلة للإنتقام دون أن يقلل ذلك من هيبتكم وجلال مراكزكم..

فصاح شارل في حدة:

– يا للشيطان.. سأفكر في ذلك يا أماه..

واندفع إلى الخارج، وهو يغمغم: لابد لي من مقابلة هنري

* * *

عاد هنري إلى غرفته بادى الهم، قلق النفس، ولكنه لم يكد يستقر في مقعده حتى طرق الباب.. ودخل شارل التاسع، وقفز هنري واقفًا. وأبتسم شارل. وقال:

– لقد جئت لأتحدث إليك في أمر على غاية من الخطورة..

– إني طوع أمركم يا مولاي..

– حسنًا. هل تذكر حادث الأمس، وما قرره دوق دي جيز عن زوجتك وعن نجميها المتألقين وكيف أنك رفضت تصديق الإتهام؟

فغشيت وجه هنري سحابه من الكآبة، وقال:

– نعم يا مولاي ولكني أرفض أن أصدق أن أخت جلالتك تخاطر بسمعتها إلى حد الإستهتار.

– ولكنها الحقيقة مع الأسف.. ولعلك تذكر إنني أصبت بصحفة فوق قبعتي، وأن دانجو أصيب في أنفه ودي جين في فمه..

– نعم يا مولاي..

– ولكن لعلك لم تر من قذفنا بهذه الصحاف، وأما أنا فرأيت شابين وامرأتين عرفت بينهم دي لامول ومرجريت..

– هذا غير معقول يا مولاي.. إذ كيف يتفق أن يكون دي لاموال في اللوفر وشارع كلوش برسييه في وقت واحد؟

– الواقع أنه لم يكن في اللوفر.. وعما قريب سوف نصل إلى معرفة حقيقة الشخص الذي جرح مورفيل وقتل الحراس الثلاثة.. وإنما المسألة تتعلق بمرجريت التي تخدعنا وبحبيبها الذي قررنا موته..

وانتفض هنري ونظر إلى الملك في ذعر.. واستطرد الملك:

– نعم، لقد قررنا موت دي لامول.. وسيشترك معي دالنسون

ودانجو ودي جيز في تنفيذ حكم الإعدام الذي أصدرته فهل تقبل الإنضمام إلينا؟

وأدرك هنري حرج مركزه.. ولكنه عول على المقاومة إلى النهاية. فأجاب:

– مولاي. من الخطأ أن أشترك في قتل مسيو دي لامول وإلا أعتبرت المسألة جريمة ثأر. ولكني لو تنحيت عن الإشتراك معكم، فلن يقلل ذلك من أهميتها وأعتبرت تنفيذ حكم صادر من الملك.

فصاح شارل:

– يا الله! ما أسرع خاطرك.. وأقوى حجتك يا هاري.

حسنًا. أترك الأمر وأنا الكفيل بإتمامه، ولكن أخبرني متى يذهب دي لامول إلى مرجريت؟

– حول الساعة التاسعة مساء يا مولاي.

– حسنًا يمكنك أن تهبط إلى الدهليز عند منتصف الليل لترى إننا ثأرنا لك.

وتصافح الرجلان، وغادر شارل الغرفه وهو يصفر اللحن الحزين المحبب إلى قلبه..

ولم يكد شارل يغلق الباب خلفه حتى أنفجر هنري ضاحكًا ملء شدقيه وغمغم:

– يا الله إني لن أسمح لكاترين بالإنتصار علي.

* * *

وعندما دقت الساعة الثامنة غادر دي لامول غرفته وانطلق إلى جناح مرجريت.. وبينما كان يسير في الدهليز التقي بالدوق دالنسون.. قال الدوق:

– أهذا أنت يا دي لاموال إلى أين أنت ذاهب؟

– إني ذاهب لمقابلة جلالة ملكة نافار.. فهل لدى مولاي أوامر لي؟

– نعم.. فإني أريدك على أن تأتي إلى جناحي ما بين التاسعة والعاشرة..

فأحنى دي لامول قامته إحترامًا وأستأنف سيره..

وكانت مرجريت منهمكة في الكتابه وقت دخول دي لامول فأشارت إليه بالجلوس إلى جانبها، ولما فرغت من الكتابة وضعت القلم وتحولت إلى عشيقها وقالت:

– إني أكتب كلمة الترحيب بسفراء بولندا.. ولكن يا الله لماذا أنت ممتقع الوجه هكذا؟

فضحك دي لامول وأجاب :

– حقًا. لابد إنني أفرطت في النوم..

– لا تراوغ في الحديث يا صديقي، فأنا أعلم كل شيء..

– وأما أنا فلا أعلم شيئًا يا مرجريت، فهلا أفصحت؟

– أصغ إلي.. لقد ضبط دي لامول مساء أمس في غرفة الملك نافار.. ولكنه استطاع الفرار بعد أن قتل ثلاثة من حراس الملك، وجرح مورفيل.. وقد أجمع الذين شاهدوه وهو يولي الأدبار إنهم لم يتبينوا منه غير معطفه الأحمر.. وقبعته الحمراء، ولهذا اتجهت الشبهة إليك.. وكان المقرر أن يلقوا القبض عليك ويحاكموك بتهمة القتل. ولكني تدخلت في الأمر، وذكرت الحقيقة، أعني إني قررت إنك كنت برفقتي، وكان دي لامول يصغي إلى مرجريت في ذهول..

وفجأة دوت قرقعة شديدة فقفز دي لامول واقفًا وانطلقت من شفتي مرجريت صرخة ذعر.. ثم تحولت عينيها نحو النافذة فرأت لوحًا زجاجيًا قد تحطم وحجرًا صغيرًا ملقى على الأرض، وتحولت إلى دي لامول وقالت:

– إن شخصًا قذف هذا الحجر من الخارج.. آه.. أنظر.. إني أرى ورقة مشدودة إليه.

ومدت يدها فالتقطت الورقة ونشرتها ثم قرأتها.. فأسمر وجهها.. وقرأ دي لامول ما يأتي: "أن نفرًا من الناس ينتظرون مسيو دي لامول في الدهليز المؤدي إلى جناح مسيو دالنسون.. وعلى الكونت إذا كان يقيم لحياته وزنًا أن يغادر قصر اللوفر من هذه النافذة حيث يلحق بمسيو دي موي في مانت"

وهز دي لامول رأسه ساخرًا، فقالت الملكة:

– يخيل إلي أن في الأمر مكيدة، فإن الخط خط هنري دي نافار، فلابد إن الموقف خطير يدعو إلى العمل السريع.. فبادر بالهرب.

وتقدمت من النافذة، وأطلت منها. ثم قالت:

– أه. أنظر إن الحجر مشدود إلى خيط رفيع، يتصل به سلم من الحبال ولكن تمهل فإني أريد أستطلاع الحقيقة بنفسي.

وهرولت إلى الخارج.. وانطلقت في ذلك الدهليز المعتم الموصل إلى جناح الدوق دالنسون.. وخيل إليها أنها تسمع لغطًا ضئيلاً.. وإنها كلما تقدمت في السير كلما إزدادت حلكة الظلام.. شعرت بقلبها يغوص بين جنبيها، وبالخوف يستحوذ عليها.. ولكنها تجلدت وتقدمت حتى أصبحت على قيد خطوات من جناح دالنسون وعندئذ رأت شبحًا يبرز من جوف الظلام.. وسمعت صوت شارل وهو يصيح: ها هو..

وكان يشهر في يده خنجرًا حادًا.. لمع نصله في الظلام. فتراجعت إلى الخلف.. وقالت:

– أظنك تعني ها هي..

وتراجع شارل خطوة.. ووقف المهاجمون جامدين في أماكنهم.

وصاح شارل:

– أنت هنا يا مرجريت؟ وفي مثل هذه الساعة؟

– نعم يا مولاي.. فإني في طريقي إلى جناح الملكة الوالدة للبحث عن مؤلف لسيكرو لأستعين به في تحضير الكلمة التي سألقيها في حضرة سفراء بولندا..

– وهل أنت قادمة من غرفتك؟

– نعم..

– وهل هناك من يعاونك في تحضير كلمتك؟

فأرتجفت مرجريت من قمة رأسها إلى أخمص قدميها.. ولكنها تجلدت وقالت:

– نعم. إن مسيو دي لامول يعاونني في تدبيجها ببراعته فهو رجل متعلم غزير المادة .

وقال دالنسون:

– هذا صحيح.. وقد طلبت إليه إنا أيضًا أن يساعدني في تحضير كلمتي..

فقالت مرجريت:

– حسنًا.. إذن فسأذهب وأرسله إليك

فقال شارل معترضًا:

– والكتاب؟

– سأبعث جيلون لإحضاره..

وعادت مرجريت إلى غرفتها.. وصاحت:

– أهرب يا دي لامول في الحال .

وكان دي لامول قد ثبت السلم في النافذة إبان غيبة مرجريت، فتقدم من الملكة وأحتضنها.. ثم قبلها، وقال:

– إذن قدر لي أن أموت فتذكري وعدك لي..

ثم اعتلى النافذة وتسلق السلم..وفي هذه اللحظة طرق الباب.. فأشارت مرجريت إلى جيلون أن تفتحه ونفذ شارل وأصحابه إلى الداخل وأجالوا في الغرفة بصرًا زائغًا.. ثم سأل شارل:

– أين دي لامول؟ إني بحاجة إليه..

فتقدمت مرجريت من أخيها.. وقادته إلى النافذة.. ثم أشارت بيدها إلى فارسين كانا ينهبان الأرض بجواديهما..

كان أحدهما دي لامول، والآخر أورثون خادم هنري دي نافار..

وصاح شارل :

– ما معنى هذا؟

معناه أن دي لامول لن يتجول الليلة في الدهليز، والأجدر بكم أن تعيدوا سيوفكم إلى أغمادها.

الفصل التاسع والعشرون

لو لم يفاجئ شارل دوق دانجو أثناء خروجه من قصر أمير كونديه لما عرف أحد بعودة الدوق.. تلك العودة التي أختلسها وهو في حصار روشيل.. غير أمه كاترين..

وقد ذهب دانجو لمقابلة أمه غداة الليلة التي دبرت فيها المكيدة لقتل دي لامول فاستقبلته كاترين وعلى وجهها علامات السرور الغبطة وضمته إلى صدرها في حنان، إذ كانت تحبه وتؤثره على جميع أخوته..

وراع كاترين إصفرار وجه إبنها.. فسألته ما خطبه؟

فأجاب:

– إني حزين يا أماه.. وأنت تعرفين سبب حزني. فأنا أحب ولكن بدلاً من أن يكون هذا الحب مصدر سعادتي وهنائي.. سيكون نكبة عليّ وسببًا في شقائي..

وأخذت كاترين.. وسألت:

– أما أفصحت يا بني؟

– أواه يا أمي.. هؤلاء السفراء.. والرحيل.. إن قلبي يفرق كلما تذكرت أن أخي شارل يبذل قصارى جهده ليعجل برحيلي.. إنه يرجو الخلاص مني.

وأبتسمت كاترين وقالت:

– ويحك يا بني، إنه يسعى لخيرك ومصلحتك.. لا يرضيك الحصول على عرش؟

– إني لا أريد هذا العرش يا أماه.. بل لا أريد مغادرة فرنسا.. إني أؤثر الموت بقربك على الحياة بعيدًا عنك.

– تشجع يا بني.. وأخبرني بالسبب الحقيقي فقد أستطيع تفريج كربتك.

فغض هنري من بصره ليتقي نظرات أمه النفاذة التي تخترق الحجب.. وقال:

– أعذريني يا أماه إذا كانت هذه الفكرة تملك على نواحي تفكيري.. ولكن ألم تشر التنبؤات إلى أن أخي شارل سيموت صغيرًا؟ وإنه لن يعدو الخامسة والعشرين من عمره عندما يختاره الموت؟.. وهو الآن في الرابعة والعشرين، فلن ينقضي عام إذن حتى يخلو عرش فرنسا.. فبالله عليك أي فشل أمضى على نفسي حين أرى عرش أجدادي يفلت من يدي، وأستعيض عنه بعرش بولندا العاجل؟

صادف هذا الكلام هوى في نفس كاترين التي لم تكن تني عن التفكير فيه.. وقالت:

– تعال يا ولدي المحبوب.. وهل فكرت في الوسيلة التي تؤدي بك إلى هذه الغاية؟

– نعم.. وهذا هو السبب الذي حدا بي إلى المجيء إلى باريس قبل موعدي بيومين.. ملقيًا روع أخي شارل أن حبي لمدام دي كونديه هو الحافز على الحضور الباكر.. وقد تعرفت إلى (لاسكو) رئيس السفراء البولنديين. ولعلي قد نجحت في إثارة نفوزه مني إلى حد بعيد..

– إنك مخطئ يا بني، فمن الواجب أن نضع مصلحة فرنسا فوق عواطفنا الشخصية.

– وهل من مصلحة فرنسا أن يعتلي العرش بعد شارك شخص كدالنسون.. أو ملك نافار؟

– ملك نافار.. هذا لن يكون.

– وفي اعتقادي أن دالنسون ليس بأفضل من هنري.

فهزت كاترين رأسها في حزن، وسألت:

– وماذا قال لاسكو؟

– دعينا من لاسكو يا أماه، فالكلمة الآن كلمة شارل.. فأضرع إليك أن تحاولي ثنيه عن رأيه وإختيار أخي دالنسون بدلاً مني.. قولي إني أحب مدام كونديه، وإني مجنون بها وهو لابد مصدقك بعد أن رآني أغادر قصر كونديه مع دي جيز.

– حسنًا يا بني.. ثق أني لن أدخر وسعًا في إقناع الملك بالعدول عن إنتخابك، ولو إني غير مطمئنة إلى النتيجة وعلى فكرة هل نجحت مهمتكم بالأمس؟

– كلا.. فقد وصله تحذير وهرب من النافذة.

– إنه لابد أن أعرف يومًا أي روح شريرة تقف عقبة في سبيل مشروعاتي.. إني أشك في بعضهم.. ألا لعنة الله عليه. والآن أستودعك الله يا بني.

ثم قبلته بحنو وانطلقت إلى جناح إبنها شارل.

* * *

واستقبل شارل أمه محاذرًا لعلمة الدائم بمعارضته لرغباته وسألها:

– ماذا تريدين يا سيدتي؟

– يخيل إلي أننا أغفلنا مسألة هامة.. وهي تحديد موعد إستقبال الوفد البولندي رسميًا.

فجلس الملك على أحد المقاعد وقال:

– حقًا.. دعينا أذن نحدد هذا الموعد، أي يوم تظنين إنه يليق بهذا الإحتفال الرائع؟

– لست أرى ما يدعونا إلى الظهور أمام السفراء بمظهر المتلهف.

– على العكس يا أماه، لقد تعجلوا هم أمر انتداب مليكهم منا فمن اللياقة أن نقابل تعجلهم بمثله..

– إذن أنت ترى تقديم الموعد.

– نعم.. ألا ترين مثل رأيي؟

– يا بني.. لعلك تعلم إني أضم مصلحتك ومجد فرنسا فوق كل إعتبار.. أفلا ترى إذن أن في أستعجال قبول التاج ما يبعث على الإعتقاد بأنك أردت التخلص من أخيك لترفع عن خزانة الدولة عبء تكاليفه، تلك التكاليف التي لا توازي ما يحرزه للدولة من مجد وسؤدد..

– هذا غير صحيح يا أماه، لأني لن أدخر وسعًا ومالاً في إحاطته بكل مظاهر الترف والنعيم عند مغادرته أرض الوطن.

سقط في يد كاترين.. وحاولت أن تصل إلى غايتها من ناحية أخرى فقالت:

– وهل أعددت عدتك لهذا الإحتفال؟

فأجاب شارل:

– كل شيء معد.. وسيكون في مقدورنا ان نقيم الإحتفال في غضون أيام قلائل..

فذعرت كاترين. وصاحت في صوت متهدج:

– لست أرى ما يدعو إلى العجلة اللهم إلا إذا كنت تريد الخلاص من أخيك. قل إنك لا تحبه.

فضحك شارل ضحكة عصبية، وصاح:

– هل قررت هذا.. وهل يحبني هو؟ وهل تحبينني أنت؟ وأخيرًا هل هناك من يشعر بوجودى غير كلابي. وماري توشيه؟

– لا تقل هذا يا بني.. ثم إنني قلت لك إنني أضع مصلحتك فوق كل أعتبار. ألم تفكر فيمن يكون ساعدك الأيمن إبان توليك العرش وخليفتك بعد موتك؟ إن دالنسون صغير وضعيف وجبان، فلن يبقى إذن بعد رحيل دانجو غير هنري دي نافار.

– وماذا في ذلك؟ إني أحبه، وأشعر بحرارة صداقته. وإني أقسم غير حانث إني إذا ما شعرت بدنو أجلي لاستدعينه إلى جواري وأسلمه مقاليد الأمور، وأجعل منه ملكًا على فرنسا، وهو – ولا ريب – سيبكيني ولن يسخر مني كما سيفعل أخي.

أنقضت هذه الكلمات على رأس كاترين إنقضاض الصاعقة فذهلت وتطلعت إلى شارل بنظرات حائرة قلقة.. ثم صرخت:

– هنري دي نافار يكون ملكًا على فرنسا؟ يا لسوء العقبى! أمن أجل ذلك تسعى للخلاص من أخيك. أبني؟

– إبنك! إذن أبن من أكون أنا؟ أبن الذئب أم أبن ماذا؟

وأخذ منه الإنفعال كل مأخذ، ونظر إلى أمه نظرات نارية. وصاح:

– هو أبنك؟ ولكن ملك فرنسا ليس ولدك، ليس له أخوة وليس له أم.. وليست له رعية.. لا بأس.. سأعمل بلا عاطفة وسترضخ إلي الرعية طائعة أو كارهة.

– لقد أخطأت فهم كلماتي يا بني. إذا كان قد خيل إليك أن حبي له يفوق حبي لك في هذه اللحظة بالذات، فما ذلك إلا لخوفي من فقده.

– ولكني أقرر إنه سوف يتركك. وسيذهب إلى بولندا في غضون يومين.. وإذا تفوهت بكلمة أخرى فسيكون رحيله بعد يوم واحد.. غدًا.. وإذا لم تخفي من عينك تلك النظرات التهديدية التي تلتمع فيها فسيكون رحيله الليلة بالذات.

فخفضت كاترين بصرها في إستسلام، ثم عادت فرفعت رأسها.. وهتفت:

– أبني المسكين.. سيقتلك أخوك.. ولكن لا تخف فإن أمك ساهرة عليك.

فانفجر شارل.. وصاح يقتلني؟ إذن بحق شياطين الأرض جميعًا لابد أن يموت في التو واللحظة.. وأستبد به الغضب، فانتفخت أوداجه وتطاير الشرر من عينيه.. ثم أنقض على أمه وانتزع خنجرًا كان مشدودًا إلى سلسلة حول عنقها وأندفع من الغرفة كالمجنون باحثًا عن هنري دانجو. ولكنه لم يكد يصل إلى الدهليز حتى خارت قواه، وغلبه الضعف فسقط منه الخنجر. ثم خر على الأرض مغشيًا عليه وهو يئن إنين الوجع .. وكانت كاترين قد هرولت في أثره ولما رأت ما حل به، أشفقت من النتائج فصرخت في طلب النجدة. ثم قالت لنفسها:

– والآن لابد من تأجيل موعد الحفلة إن طوعًا أو كرهًا وانطلقت إلى جناحها حيث كان دوق دانجو في إنتظارها على أحر من الجمر.

الفصل الثلاثون

عندما انصرف دوق دانجو من حضرة أمه. نفذت كاترين إلى غرفة أخرى، وهناك وجدت رينيه صانع العطور في إنتظارها، وبدأت الملكة حديثها مع صانع عطورها بالسؤال عن حالة مورفيل الصحية فأجاب رينيه:

– إنه في حالة سيئة يا مولاتي.

فغمغمت كاترين:

– من يدري؟ لعله كان دي لامول بعينه.

– مولاتي.. إني لا أشاطر جلالتك هذا الرأي. فدي لامول عاشق ومثله لا يهتم بالمسائل السياسية هذا إلى أن غرامه الشديد بمدام مرجريت لابد أنه سيحول دون خدمة زوجها بإخلاص وغيره.

– وما الدافع إلى اعتقادك بأنه عاشق؟ هل طلب معونتك؟

– نعم يا مولاتي..

وراح يقص عليها ما كان من أمر زيارة دي لامول له: وما دار خلالها. وذكر ضمنا مسألة التمثال وهزت كاترين رأسها.

ثم قالت:

– دعنا من ذلك الآن. وأخبرني ما هي الأشياء اللازمة التي تتطلبها معرفة مدى عمر شخص من الأشخاص؟

– أولاً معرفة يوم ولادته.. وعمره الحالي.. والبرج الذي ولد فيه.. وثانيًا: الحصول على خصلة من شعره وقليل من دمه.

– إذا أحضرت تلك ما تطلب فهل تتمكن من تحديد يوم وفاة هذا الشخص؟

– ومتى كانت ولادة هذا الشخص؟

– في الساعة الخامسة والدقيقة الثالثة والعشرين مساءً.

– حسنًا.. سوف أجري تجاربي الليلة، وغدًا أرجو ان تتكرمي بزيارتي فأطلعك على النتيجة.

* * *

وفي الساعة الخامسة من مساء اليوم التالي ذهبت كاترين وابنها دانجو إلى منزل صانع العطور، وكان الدوق متنكرًا. محاولاً بذلك إخفاء شخصيته عن الرجل.

سألت كاترين:

– هل ناجيت النجوم؟

– نعم يا مولاتي.. واستطعت معرفة ماضي الشخص المذكور فهو من أصحاب المراكز الممتازة.. وعمره الآن يقرب من ربع قرن وقد منحته السماء الثراء والقوة. أليس كذلك يا مولاتي؟

– يحتمل..

– وهل معك خصلة الشعر وأنبوبة الدم؟

فقدمتهما إليه.. إذ استطاعت الحصول على قليل من دم شارل الذي نزف من أنفه.

وتقدم رينيه من سكين محماة وسكب نقطة من الدم فوقها.. فغلت قليلاً.. ثم تناثرت فوق السكين متخذة لنفسها أشكالاً غريبة.

وصاح رينيه:

– يا الله! إني أراه يعاني من الألم. أنظري. كيف تحول كل ما حوله إلى دماء، وأنظري تلك الرماح، وتلك السيوف.. إن الحرب تندلع ألسنتها والموت ينشر جناحيه من حوله..

وسكب رينيه كمية من الدم فوق السكين، ثم ألقى بخصله الشعر في النار.. وهو يتمتم بتعويذة غريبة. وفي الحال رأت كاترين وابنها، شبح رجل ملفوف في كفن، يظهر فوق السكين. وإلى جانبه شبح امرأة..

صاح رينيه:

– لم يبق من عمره غير عام واحد، بل أقل من عام.. نعم.. سيموت هذا الرجل ولن يبكيه غير امرأة واحدة تحمل طفلاً..

وتبادلت كاترين مع ابنها نظرة ذات معنى.. ثم عادت إلى السكين، ولشد ما كانت دهشتها عندما لم تجد للشبحين أثرًا، وقدم إليها رينيه كتابًا

عجيبًا، وطلب إليها أن تفتحه كيفما أتفق فلما فعلت راح يقرأ بصوت خافت ثم قال:

– مولاتي أن جميع الدلائل تشير إلى وفاة هذا الشخص في خلال عام واحد. وستكون وفاته على أثر حادث مروع.. فتحولت الأم إلى أبنها وهمست:

– آه! حادث؟

– وهذا ما يدعو إلى ضرورة البقاء يا أماه

– هذا مستحيل يا ولدي، فمن الواجب أن ترحل، وثق إني ساهرة على مصلحتك

وشكرت كاترين صانع عطورها. ثم انصرفت مع أبنها. وعلى وجهها إمارات التفكير العميق.

الفصل الحادي والثلاثون

شق على دي لامول أن يبقى بعيدًا عن مرجريت، فعاد إدراجه في مساء اليوم التالي إلى اللوفر ووقفت تحت شرفتها ينتظر فرصة ظهورها للتحدث إليها. وكأنما كانت مرجريت تتوقع شيئًا من ذلك فأخذت تكثر من التردد على الشرفة. وبذلك تيسر لهما سبيل الإتصال وتبادل الرسائل فيما بينهما. وحدث أن جاء دي لامول لرؤية مرجريت كعادته، وكان ذلك في مساء اليوم السابق الذي حدد لإستقبال سفراء بولندا رسميًا. وألقى دي لامول برسالة إلى مرجريت. فألتقطتها وفضتها وشرعت تقرأها.

وكان أول ما وقع عليه بصرها في الصفحة الأولى من الرسالة ما نصه:

(مولاتي.. يجب أن أقابل جلالة ملك نافار، فإن لدي أخبارًا هامة في الإنتظار) وفصلت مرجريت هذه الصفحة عن بقية الرسالة وأسرعت بإخفاء الرسالة في ثوبها إذ سمعت وقع أقدام في الردهة.

ولم تكد الملكة تغلق باب الشرفة حتى دخل هنري دي نافار وعلى شفتيه تلك الإبتسامة الخفيفة قال:

– إني ما جئت إلا لأسألك النصح. فقد لاحظت أن دوق دالنسون يتحاشى لقائي في الأيام الأخيرة. ولعله رحل إلى سان جرمين أول من أمس رغبة منه في الإنفراد، أفلا تعتقدين إنه إما يريد الفرار بمفرده، أو عدم الفرار على الإطلاق؟

– إنك على حق يا مولاي، والواقع إني أشعر بشيء من الإضطراب لصمته الذي طال بغير مبرر. ويخيل إلى أنه عدل خطته تبعًا لتطورات الأمور.

– تعنين أنه قرر عدم الرحيل إطلاقًا نظرًا لمرض الملك شارل، وقرب رحيل دانجو؟

– نعم.. فهو يأمل الحصول على عرش فرنسا.

– إذن لندعه وشأنه، فإن ذلك لن يغير من خطتنا.. على أن شيئًا واحدًا هو الذي يدهشني؟، ذلك إنني لم أسمع شيئًا عن دي موي منذ هروبه.

فقالت مرجريت وهي تتظاهر بالدهشة:

– حقًا.. إن تساؤلك يذكرني بلغز أغلق على فهمه.. فقد عثرت الآن برسالة ملقاة في الغرفة، ولم أستطع أن أعلل مصدرها.

وأخرجت من جيبها قصاصة الورق التي ألقاها إليها دي لامول.. فقرأها هنري، وقال:

– يا الله! إن هذا خط دي لامول. وهو يقول إنه في الإنتظار.. فلم لا تدعينه يدخل؟

– أدعه يدخل؟ وكيف أستطيع ذلك وجلالتكم تعرفون أن الملك يبحث عنه بنفسه ليقتله.. عجبًا لك يا مولاي.. أتتجاهل هذا وأنت منقذ مسيو دي لامول؟

فإبتسم هنري.. وقال: ألم يخرج هذا البطل من النافذة؟ فلم لا يعود منها؟ هاتي سلم الحبال يا سيدتي.

وبعد عدة دقائق كان دي لامول يثب من النافذة.. ولم يكد يرى هنري حتى إرتد على عقبيه.. ولكن الملك أشار إليه بالبقاء. ودعاه إلى الجلوس. وقالت مرجريت:

– لقد طلبت مقابلة جلالة الملك فاستدعيته لك يا سيدي

فاستجمع دي لامول شجاعته وقال:

– مولاي.. لقد تركت مسيو دي موند عند الحدود.. وهو يريد أن يعرف إذا كان مورفيل قد تكلم.. أو إنهم عرفوا بوجوده في غرفة جلالتكم؟

– كلا، لم يعرفوا بعد، ولو أن ذلك لن يصعب عليهم، فوجب إذن أن نسرع.

– هذا ما يرجوه مسيو دي موي أيضًا.. فإذا لم يكن لدى جلالتكم ودوق دالنسون ما يحول دون الرحيل غدًا، فإنه سينتظركما مع مائة وخمسين فارسًا عند بوابة سان مارسل كما سينتظركما خمسمائة فارس آخرون في فونتنبو.

فتحول هنري إلى زوجته.. وسألها:

– سيدتي.. إني سأكون على إستعداد للرحيل غدًا، فهل سترافقيني؟

وحدج دي لامول مرجريت بنظرة قلقة.. فقالت الملكة على الفور:

– إني رفيقتك في الحل والترحال يا مولاي.. بيد إننا يجب أن نتأكد من نوايا دالنسون .

فسأل هنري (دي لامول) : – هل يعرف الدوق بالخطة الموضوعة؟

– نعم يا مولاي. إذ بعث إليه دي موي برسالة خاصه منذ بضعة أيام.

– آه. ولهذا انقطع عن مقابلتي على العموم، قل لدى لامول أن ياتي إلى الإحتفال غدًا.. ويقف على يمين الملكة مرجريت وهي ستضيف عبارة خاصة في الكلمة التي سألقيها في الحفلة، ومنها سيعرف الرد إن سلبًا أو إيجابًا..

والآن.. أنتظر ريثما أتأكد من خلو الطريق، إذ لا يجب أن تغادر القصر من النافذة..

ثم عاد بعد فترة قصيرة. وأشار إلى دي موي أن يتبعه.

الفصل الثاني والثلاثون

كان الملك قد أمر بإعداد قاعة الحفلات الكبرى لإستقبال سفراء بولندا، والسماح لأكبر عدد من الشعب بمشاهدة حفلة تتويج أخيه دانجو، وانتهز رجل هرم، أبيض اللحية والحاجبين، هذه الفرصة فتسلل إلى القاعة ووقف خلف السفراء في مواجهة ملك نافار وزوجته مرجريت.

وكان هذا الشيخ يتبادل بين الفينة والفينة إشارات غريبة مع بعض الحاضرين ولم يكن هذا الرجل غير دي موي، وبدأت الحفلة.. فألقى لاسكو رئيس الوفد البولندي كلمته راجيًا الموافقة على ترشيح هنري دانجو ملكًا على بولندا

ونهض شارل فشكر للدياط "مجلس النواب"، البولندي ثقته، وأعلن موافقته على الترشيح، مشيدًا بشجاعة أخيه وسمو خلقه، وما إن فرغ الملك من كلمته حتى نهض لاسكو وأحد أفراد الوفد، ووضعا الوشاح الملكي فوق كتفي دانجو، بينما سلم آخر التاج إلى الملك شارل، فأشار هذا إلى أخيه، فركع الدوق على ركبتيه، وعندئذ وضع الملك التاج فوق رأسه، ثم تبادلا قبلة تفيض بالحقد والبغضاء.

وصاح لاسكو:

– لقد توج ألكسندر أدوارد هنري الفرنسي دوق دانجو ملكًا على بولندا. فليحفظ الله ملك بولندا.

فردد الحاضرون هتافه.. ومن ثم نهضت مرجريت لتلقي كلمة الترحيب وهي ترمق دي موي خلسة.

استهلت كلمتها قائلة "إن مجيئكم إلى باريس مدعاة لإدخال السرور إلى قلوبنا وبخاصة زوجي، ولو إنه يبعث الشجن إلى نفسينا لأننا لن نخسر أخا فحسب، وإنما سنخسر صديقًا وفيًا أيضًا."

كانت هذه الكلمات بريئة في معناها، ولكن دي لامول أدرك مغزاها، فهز رأسه أسفًا.. ومضت مرجريت في خطابها: "وإنه ليؤسفنا أن نفترق. وكم كان بودنا أن نرافقك، ولكن الظروف التي تدعوك إلى الإسراع بمغادرة باريس، هي نفسها التي ترغمنا على البقاء هنا، فأذهب إذن أيها الصديق مشيعًا بتمنياتنا الطيبة وأمانينا الحسان."

وبينما كان دي موي يصغي إلى هذه الكلمات في إنتباه كانت كاترين تنظر إليه بدهشة وإمعان.

قالت لنفسها:

– يا الله من وجه غريب.. ترى من الرجل؟

وعبثا حاولت أن تتعرف على شخصيته. فتلفتت حولها كأنما تنشد المعونة، وعندئذ أقترب منها (تشريفاتي) البلاط وناولها رسالة مغلقة، وفضت كاترين الرسالة، وقرأت فيها ما يلي:

(لقد أستطعت أن أحمل مورفيل على الكتابة، فقرر أن دي موي هو الرجل الذي كان في غرفة ملك نافار)

غمغمت كاترين: دي موي! يا الله ألا يمكن أن يكون هو هذا الكهل. ثم تحولت إلى الكابتن دي نانسي وقالت له هامسة:

– هل ترى ذلك الرجل العجوز؟ لا تغفل عن مراقبته فإذا ما أنفض الإحتفال، أدعه لتناول طعام الغداء بأمر الملك فإذا قبل خذه إلى غرفتي.. وإذا قاوم جيء به حيًا أو ميتًا.

ولكن أتفق لحسن الحظ أن لاحظ هنري دي نافار حركات كاترين وأدرك نواياها، فأشار إلى دي موي محذرًا.

بيد أنه لم يهدأ له بال إلا عندما عاد دي نانسي صفر اليدين.

وكان الاحتفال قد إنتهى في تلك الآونة، فنهض شارل وحيا السفراء ثم عاد إلى جناحه.

وذهب هنري دانجو لمقابلة أمه وهو حزين القلب كاسف البال.. فأستقبلته أمه في حنان وعطف شديدين.

صاح:

– أواه يا أمي! لقد قدر لي أن أموت منفيًا.

– أنسيت تنبؤات رينيه يا بني.. لا تحزن.. إنك ستعود إلينا عاجلاً

وخيل أن السلام خيم على قصر اللوفر عقب رحيل دوق دانجو.. وكان شارل قد استعاد قواه وبدأ حياته المرحة من جديد..

وكانت مرجريت قد هيأت لكوكوناس الإجتماع بصديقه دي لامول

في منزل شارع كلوش برسييه.. وعلى أثر هذا الإجتماع بعث كوكوناس برسالة إلى دوق دالنسون يستقبل فيها من خدمته، ومبينًا ضرورة التعاون التام بينه وبين صديقه دي لامول طريد القانون، وأما هنري دي نافار فكان يدرك أن الموقف الذي وقفه دوق دالنسون من شأنه أن يعرض حياة المتآمرين جميعًا للخطر، فراح يتودد إلى الدوق حتى أصبحت العلاقة بينهما مضرب الأمثال.. وكان مورفيل في هذه الأثناء قد تمالك قواه نوعًا ما فأنتقل إلى منزل بالقرب من الترسانة ليقضي فيه دور النقاهة. وحدث أن إنطلق السفاك ذات يوم إلى حديقة مجاورة.. وجلس ليستمتع بالهواء العليل..

ولم يمض على وصوله أكثر من عشر دقائق حتى لمح فارسًا يقترب منه، ثم يقف على قيد عشرة أمتار وأنتفض مورفيل فتسلل إلى شجرة ضخمة وتوارى خلفها.. وفي اللحظة التالية برز فارس آخر من الناحية المضادة، وأنضم إلى الفارس الأول.

ولم يكن الفارسان غير دي موي، وأورثون خادم هنري ملك نافار

قال أورثون:

– والآن.. تستطيع أن تذهب الآن لمقابلة مدام دي سوف، فإذا وجدتها في جناحها أعطها هذه الرسالة، وإذا لم تجدها فضعها خلف المرآة الكبيرة التي في مخدعها.. وأنتظر في اللوفر، حتى إذا أجابت عليها جئتني في المكان الذي أتفقنا عليه.

– حسنًا يا سيدي.. لقد فهمت.

وكان مورفيل يصغى بإنتباه لكل ما يقال، والعرق يتصبب على جبينه، ولم يكد دي موي وأورثون يفترقان، حتى هرول إلى شارع دى لاكرساي، وأمر بإعداد جواده.. وأنطلق به يسابق الريح.

وبعد عشر دقائق كانت كاترين دي مدسيس قد عرفت بأمر تلك المقابلة وما دار فيها.. فنفحت مورفيل بعشرة آلاف كرون جزاء إخلاصه.

ووصل أورثون إلى اللوفر بعد وصول مورفيل بربع ساعة.. وانطلق إلى غرفة مدام دي سوف، وهناك أخبرته وصيفتها داريول أن سيدتها استدعيت إلى جناح الملكة الوالدة منذ خمس دقائق.. وطلبت إليه انتظارها ريثما تعود..

وأنتهز الشاب الفرصة وأسرع إلى المرآة. ووضع الرسالة خلفها. ولكنه لم يكد يفعل ذلك حتى فتح الباب السري ودخلت كاترين دي مدسيس. وذعر الشاب، وأصفر وجهه، وتقدمت منه كاترين، وقالت في لهجة رقيقة:

– ماذا تفعل هنا أيها الشاب؟ لعلك تبحث عن مدام دي سوف؟

فأجاب أورثون متعلثمًا:

– نعم يا مولاتي، إني جئت لأشكرها على ما أبدته نحوي من عناية أثناء مرضي..

– مسكين أيها الشاب.. وهل تريد العودة إلى خدمة ملك نافار؟

– كلا يا مولاتي. فقد طردني حين عرف إني قاومت أمر جلالتك.

– حقًا! لا تخش شيئًا فإني سأتكفل بأمرك يا فتى. وأما إذا كنت تنتظر مدام دي سوف فأعلم أنها لن تأتي الآن لأنها منهمكة في كتابة بعض الرسائل..

وخطر لها أن تترك الشاب وحيدًا خشية ألا يكون قد وضع الرسالة في المكان المتفق عليه، فأسرعت بمغادرة الغرفة إلى غرفة جانبية، وبدأ الشاب يوجس في نفسه خيفة، وخشي أن تكون الملكة الوالدة قد رأته، فوقف حائرًا يفكر فيما ينبغي عليه عمله..

وفجأة. سمع ثلاث طرقات خفيفة صادرة من السقف.. كتلك الطرقات التي تعود أن يحذر بها ملك نافار كلما تبين له أن هناك خطرًا يتهدده. فامتقع وجهه، وأدرك أن الخطر يتهدده هو هذه المرة، فأسرع إلى المرآة وأستعاد الرسالة من مخبئها، وكانت كاترين تراقب حركاته من ثقب المفتاح. فلما رأته يبتعد عن المرآة.. عادت إلى الغرفة وصرفته بعد أن طمأنته على مستقبله. .

وأسرعت إلى المرآة.. ولكنها لم تجد للرسالة أثرًا. فجن جنونها.

وصاحت:

– يا لك من تعس! أية قوة شريرة ألقت بك في طريقي.

ونادت مسيو دي نانسي. وأمرته باللحاق بالشاب والعودة به. وفي اللحظة التالية كان أورثون يمثل بين يدي الملكة كاترين وهو يجفف العرق

البارد المتصبب على جبينه. ويحاول أن يتغلب على شعور الخوف الذي أستحوذ عليه. واستجمع أطراف شجاعته.. وسأل:

– هل دعوتني يا مولاتي؟

فابتسمت كاترين إبتسامة خفيفة. وأجابت:

– نعم يا بني إنني وعدتك بالنظر في أمرك. وقد فكرت في إلحاقك بخدمتي في التو واللحظة. فهلم بنا إلى جناحي لأني سأعهد إليك بإيصال رسالة إلى سان جرمين.

فتبعها الشاب المسكين إلى الخارج. وأنطلقت به في دهاليز ملتوية حتى وصلت إلى دهليز سري لا يعرف بأمره غيرها وغير الملك شارل.

وأشارت إلى الشاب بالدخول، ثم أغلقت الباب خلفه بالمفتاح فساد الظلام.

وتقدمت به بضع خطوات. ثم صاحت فجأة: قف.

فأطاع الشاب وهو ينتفض.. إذ خيل إليه أن لوقع أقدامه رنينًا، يشبه الرنين الذي يسمعه المرء إذا سار فوق سطح أجوف. صاحت كاترين:

- أين الرسالة التي أمرت بإيصالها إلى جلالة ملك نافار؟

فهتف أورثون كالمأخوذ:

– أيه رسالة يا مولاتي؟

– إني أقصد الرسالة التي عهد بها إليك دي موي لإيصالها إلى ملك نافار.. أعطني هذه الرسالة وأنا أحقق الوعد الذي قطعته لك نفسي.

– ولكني لا أملك مثل هذه الرسالة يا مولاتي.

وضاقت كاترين ذرعًا بإصرار الشاب على التجاهل.. فصرفت بأسنانها غضبًا.. ولكنها أستعادت هدوءها بسرعة. وقالت باسمة:

- يا لك من أحمق.. أعطني الرسالة أهبك ألف كرون بل ألفين، بل ما تطلب.

وكان أورثون يدرك أن الملكة تغالب ثورة غضبها بمجهود باهر، وإنه إن لم يعطها الرسالة أخذتها منه عنوة وإقتدارًا. فتحسس جيبه كأنما ليدفع العدوان عن تلك الرسالة الثمينة، ورأته كاترين، فضحكت.. وقالت:

– ألم أقل لك أنك تكذب.. إني أقدر إخلاصك لمولاك.. خذ.. إني أهبك هذا الكيس المنتفخ بالذهب .

ووضعت في يد الشاب كيسًا حريريًا جميلًا.. وأستطردت.

– هات الرسالة!

وفي حركة آلية قدم لها أورثون الرسالة. وتحول نحو الباب. ولكنه لم يكد يخطو خطوتين حتى مدت كاترين يدها إلى الجدار وضغطت زرًا خفيًا، فأنشقت الأرض تحت قدمي الشاب وهوى في جب عميق وهو يصرخ صرخاته مؤلمة رددت صداها جدران البهو.

وانفجرت كاترين ضاحكة.. وغمغمت:

– يا لك من غر.

وأغلقت الجب، ثم عادت إلى البهو الذي حدثت فيه المأساة وفتحت بابًا سريًا، وراحت تهبط درجًا حلزونيًا يربو عدد درجاته على المائتين. وفي أسفل الجب، وفوق الصخور المدببة، رأت كاترين جثة الشاب التعس. مهشمة العظام، متناثرة الأشلاء.. ودماؤه تغطي أرض الجب. وتقدمت كاترين من الجدار وضغطت زرًا آخر، فأنفرجت الأرض عن ثغرة وسقطت الجثة في مياه السين.

* * *

وعادت كاترين إلى جناحها وعلى شفتيها إبتسامة الظفر.. وقرأت الرسالة التي كان أورثون التعس يحملها إلى مولاه ملك نافار..

(الليلة في الساعة العاشرة، في نزل النجم الجميل.. إن كان في نيتك الحضور.. فلا داعي للرد وإلا فإنني منتظر الرسول بفروغ صبر) . "دي موي"

وهرعت كاترين إلى جناح مدام دي سوف. ووضعت الرسالة في المكان المتفق عليه. ثم كرت راجعة إلى غرفتها وهي تعتقد أن ملك نافار قد سقط في الشرك.

* * *

وقصدت مدام دي سوف إلى جناحها بعد أن فرغت من عملها مع الملكة كاترين.. وما هي إلا لحظات حتى لحق بها هنري دي نافار.. وقد

أخبرتهما داريول بزيارة أورثون، فنهض هنري إلى المرآة وأخذ الرسالة من خلفها. وقرأها. ثم ابتسم وهز رأسه في إبتهاج.

* * *

وفي الساعة الثامنة غادر هنري قصر اللوفر مع اثنين من رجاله المخلصين.. وانطلقوا إلى شارع سان جاك، حيث صرف الملك الرجلين وأستأنف رحلته إلى شارع ماثورين، وهناك ألتقى بفارس يرتدي معطفًا واسعًا.

همس الفارس: مانتز!

فأجاب الملك: بو؟

وتصافح الرجلان ثم انطلقا إلى نزل النجم الجميل.

وطرق هنري الباب. وكان دي لامول جالسًا في البهو، وهو يدبج رسالة يودعها كل عواطفه وحبه، بينما أنهمك كوكوناس في إعداد طعام العشاء في المطبخ..

وخف لاوربيه لإستقبال القادم.. سأل:

– ماذا تريد يا سيدي؟

– غرفة وطعام عشاء. وسأدفع لك بسخاء، فإني أتوقع قدوم صديق لتناول الطعام معًا.. آه.. هو ذا صديقي!

وما أتم كلامه حتى فتح الباب ثانية، ودخل رجل آخر يرتدي معطفًا واسعًا، ويتدلى من منطقته حسام طويل..

وتصافح القادمان.. وكأنما ضاق دي لامول ذرعًا بهما، فهمس في أذن لااورييه:

– بالله عليك خذ هذين السيدين بعيدًا حتى أستطيع التحدث إلى صديقي كوكوناس.

* * *

وعندما أنفرد هنري بدي موي، سأل هذا:

– هل رأيت أورثون يا مولاي؟

– كلا. ولكني تسلمت الرسالة.. إني أعتقد أن الشاب قد غلبه الخوف لأن الملكة الوالدة ألتقت به.. وقد أخبرتني داريول أنها تحدثت إليه وقتًا طويلًا.

– لا أعتقد أن هناك خطرًا من هذه الناحية، فهو شاب مخلص شجاع.

وساد الصمت قليلًا. وأخيرًا سأل دي موي:

– حسنًا.. ماذا قال دالنسون؟

– لقد قرر ألا يذهب.. فإن رحيل دانجو ومرض الملك جعلاه يعدل عن رأيه.

– آه.. يا للجبان.! ولماذا لم يجب على رسائلي؟

– ليحتفظ بوثائق خيانتك..

– ولكنها لن تفيده في شيء.. فقد استطعت أن أجمع كلمة الحزب. وأعددت ألفًا ومائة فارس، ولم يبق إلا أن تطلعنا على المكان الذي سيصطاد فيه الملك.. فأضع خطتي تبعًا لذلك.

ولم يكد دي موي يفرغ من كلامه حتى فتح الباب فجأة، وأندفع دي لامول إلى الداخل. وصاح:

– أسرعا! أسرعا إن المنزل محاصر.

فهتف هنري:

– محاصر؟! ومن محاصروه؟

- حرس الملك. ولكن أسرعا.. إني أعرف طريقًا للنجاة.

وسمع ثلاثتهم وقع الأقدام، وقعقعة السلاح فوق الدرج. فأمتقع وجه دي لامول. وصاح:

– يجب أن يبقى دي موي هنا، ليعوق تقدم المهاجمين ريثما نهرب..

وتردد هنري، ولكن دي موي صاح:

- مولاي. سارع بالفرار فأنا أعرف كيف أدافع عن نفسي؟

وقبل يد الملك: ودفعه إلى الخارج دفعًا، ثم أغلق الباب.

وقاد دي لامول ملك نافار إلى الطابق الخامس.. ثم فتح إحدى النوافذ. وسأل:

– هل يخاف مولاي رحلة فوق الأسطح؟

فهز هنري كتفيه إستخفافًا، وعندئذ أرتقى دي لامول النافذة، ثم تسلق إلى (الكورنيش) وسار فوقه محاذرًا حتى وصل إلى سطح المنزل المجاور.. وتبعه هنري، وهبطا إلى أول طابق في المنزل، فرأيا الجنود وهم يقودون دي موي إلى الخارج.. وكان بادي الهدوء.. باسم الثغر.

وعندما وصلا إلى اللوفر أنتفض هنري وصاح:

– يا للشيطان لابد أنهم سيغلقون الباب ويتأكدون من شخصية الداخلين. لقد أفتضح أمري..

فضحك دي لامول. وهتف:

– مولاي.. لا تنس أنك تعرف كيف تقذف الأحجار من نافذة جلالة الملكة مرجريت. إن الدخول من النافذة أفضل من الدخول من الباب في بعض الأحيان!

الفصل الثالث والثلاثون

كانت كاترين واثقة من النصر في هذه المرة.. وقد بدا ذلك جليًا في أسارير وجهها المتهللة، حتى لقد دهش شارل، وسألها عن سبب إبتهاجها فقالت:

– مولاي أؤكد لك أنك ستتخلص الليلة من عدويك اللدودين.

فابتسم شارل هازئًا.. وراح يداعب كلبه. وفجأة، ارتفعت الضوضاء في ساحة القصر.. ثم صوت طلق ناري فقطب شارل حاجبيه، وسأل:

- ما معنى هذا؟

– إنها الإشارة المتفق عليها.

- وما معنى هذه الإشارة؟

- معناها أن عدوك الحقيقي لن يستطيع مضايقتك بعد الآن.

ودخل أحد الخدم إلى الغرفة في تلك اللحظة.. وأعلن قدوم دي نانسي فأمر الملك بإدخاله.

وبادر الضابط كاترين بقوله:

- مولاتي. لقد نفذت أوامرك وجئت به

فصاحت كاترين في لهفة:

– ماذا تقصد بلفظة (به)؟ هل قبضت على واحد فقط؟

- نعم. إنه كان بمفرده، وسلم إلينا حسامه دون مقاومة.

وسأل شارل:

– عمن تتكلم يا مسيو دي نانسي.؟

فأشارت كاترين إلى ضابطها إشارة ذات مغزى فغادر الغرفة، وعاد يتبعه دي موي.. ودهش الملك. وصاح:

– دي موي؟ ما معنى هذا؟

فقال الأسير في هدوء:

– مولاي. أرجو أن تسمح لي جلالتكم بإلقاء نفس السؤال؟

فقالت كاترين:

– لا تتهرب من الإجابة على سؤال الملك.. وتتكرم بذكر أسم الشخص الذي كان في غرفة ملك نافار في ليلة معينة. والذي قاوم أوامر الملك في تلك الليلة، وذبح ثلاثة من حراسه وجرح مسيو دي مورفيل.

– إنني ذلك الشخص يا مولاتي.

وأخذت كاترين لصراحه الشاب وجرأته. وصاح شارل:

– ماذا تقول. أوصلت بك الجرأة والإستهتار إلى مخالفة أوامري؟

– مولاي.. لقد كنت أجهل أوامر جلالتكم تمامًا. فلما رأيت دي مورفيل، قاتل أبي، أمامي، وتذكرت أن جلالتكم وعدتموني بعقابه، ولم توفوا

بالوعد، حزمت أمري على الثأر لأبي وللأميرال كولني الذي ذبحه نفس الشخص ليلة بارثلميو المشئومة.

ولزم شارل الصمت.. وسألت كاترين:

– ولكن ماذا كنت تفعل في تلك الساعة المتأخرة بمخدع ملك نافار؟

فقال الشاب موجهًا حديثه إلى الملك:

– مولاي.. إني كنت موفدًا من قبل إخواني، رعاياك المخلصين أتباع الدين الجديد، لمقابلة جلالة ملك نافار.

فأشارت كاترين إلى أبنها إشارة ذات مغزى.. فأمرها بأن تلزم الصمت..

وأستطرد دي موي:

– نعم.. إنني جئت لأقول لجلالة ملك نافار إنه بإعتناقه الكاثوليكية فقد فقد ثقة الحزب الهيجونوتي.. ولكنه – أى الحزب – رأى إعترافًا بجميل والد الملك هنري أن يطلب إليه التنازل عن العرش.

وهنا تدخلت كاترين في الحديث. فسألت:

– وماذا كان جوابه؟

وقال شارل:

– آه. آه! يخيل إلي أن تاج نافار ليس ملكًا لي حتى ينتقل من رأس إلى آخر دون إستئذاني.

– مولاي.. إن الهيجونوت لا يجهلون الرسميات المتبعة في أمثال هذه الشئون.. ولهذا قرروا أن يعرضوا التاج على جلالتكم لتمنحوه من تعتقدون أنه أهل لملء هذا المنصب، ولو أنهم يزكون دوق دالنسون تنيل هذا الشرف!

وأصفر وجه كاترين.. وهتف شارل:

– آه.. حقًا لقد أحسنوا الإختيار. فإن دالنسون خير رجل يصلح لهذا المنصب.. شكرًا لك يا دي موي. شكرًا لك. إني أرحب بك في اللوفر، وأعلن إغتباطي بصداقتك.

وخطرت لكاترين أن تبذل آخر محاولة لدرء الكارثة. فسألت:

– ولكن ماذا كان جواب هنري دي نافار؟

- مولاتي.. لقد رضخ جلالته لقرار الحزب. وأعد وثيقة التنازل.

– وهل هي معك؟

– نعم يا مولاتي. وهي موقعة ومؤرخة.

وأخرج الشاب من جيبه وثيقة تنازل هنرى لدالنسون عن عرش نافار. وعضت كاترين على شفتها قهرًا.. وألقت بآخر سهم في جعبتها. فسألت:

– وإذا كان الأمر كما تقول، فلماذا أردت الإجتماع بهنري الليلة في نزل النجم الجميل؟

– أنا يا مولاتي؟ إني كنت بمفردي. وفي إستطاعة ضابط الحرس أن يؤيد قولي.

ونودي دي نانسي. فقرر أن دي موي كان وحيدًا في الغرفة.. وإنه لم يبد أية مقاومة عند إلقاء القبض عليه.

وأبتسم دي موي هازئًا.. وساد الصمت.

وأخيرًا قال شارل:

– حسنًا يا صديقي.. حسنًا. إني أطلق سراحك فعد إلى إخوانكم وأبلغهم إني أعتذر إليهم لما أبديته نحوهم من ضروب القسوة. وإني أرحب بتنصيب أخي دالنسون ملكًا على نافار التي ستصبح منذ الآن مملكة مستقلة.

ومد يده إلى الشاب. فركع هذا على ركبتيه. وقبل يد الملك في حرارة.

* * *

وبعد ثلاث ساعات كان دي موي خارج باريس. وغادرت كاترين غرفة أبنها وهي تتميز غيظًا. وأنطلقت إلى جناح مرجريت. وهناك وجدت هنري مرتديًا ثيابه المنزلية. فغمغمت:

– يا لك من شيطان مريد!

أمر شارل مسيو دي نانسي بإستدعاء الدوق دالنسون. فهرول الدوق لمقابلة أخيه. وهو بادي الإنزعاج والإضطراب.

كان شارل يصفر بشفتيه ذلك اللحن الحزين. وقت دخول الدوق ولاحظ، هذا ذلك البريق المخيف الذي يلمع في عيني الملك، والذي يتجسم فيه الحقد. فغاص قلبه بين جنبيه وأوجس شرًا.

قال شارل في تهكم:

– يا أخي.. إنني قررت أن أجزيك عن صداقتك لي خير الجزاء.. وذلك بأن أهبك أحب شيء إلى نفسك..

– أنا يا مولاي؟ إني لا أطلب شيئًا، وحسبي صداقتكم أفخر بها على الملأ.

فقال شارل في ضجر:

- إنك أحمق ولا ريب. فأنا أعرف أنك تحن إلى عرش نافار، ولهذا أتفقت سلفًا مع هنري ملك نافار ودي موي، على أن يتنازل لك الأول عن العرش ويعمل الثاني على تزكيتك لدى زملائه لتخلف هنري عليه.. وقد نجحت الخطة، وجاءني دي موي الليلة.

فلم يتمالك دالنسون من مقاطعة أخيه.. فصاح بصوت أجش:

– صه. أقسم..

– لا تقسم، فالعرش عرشك منذ الآن. وإلا فماذا تريد خيرًا من ذلك؟

وعض الدوق على شفتيه من القهر. واستطرد شارل وهو يتظاهر بالحنو:

– حقًا.. لم يكن يدور بخلدي أنك محبوب من الشعب وبخاصة من هؤلاء الهيجونوت.. يا لله! إننا سنصبح جميعًا ملوكًا، ولن يبقى غير هنري المسكين، ولكنه قانع بالبقاء إلى جواري ومشاركتي الصيد.. فطفر العرق البارد فوق جبهة دالنسون. وقال:

– مولاي.. إننا لم نفترق منذ الصغر.. وسوف تجد في خير رفيق لرحلات الصيد..

– أنت! عجبًا لك.. إنك لا تصلح للصيد مطلقًا يا عزيزي دالنسون، هل نسيت كيف أخطأت الخنزير وقتلت جوادي؟

كان شارل يتكلم بلهجة صارمة، تخالطها السخرية. فلم يخف ذلك على الدوق.. وأدرك أن أخاه يعمل على نفيه إنتقامًا منه فلم يحاول أن يعترض لعلمه أن الاعتراض لا يجدي فأحنى رأسه في خضوع واستسلام. وغادر الغرفة وقلبه يكاد ينشق من الغيظ.

* * *

وفي بهو القصر تقابلت كاترين مع ابنها دالنسون.. فقص عليها الشاب ما دار بينه وبين أخيه شارل.. فقالت كاترين:

– يا لك من غر مفتون.. هل يدور بخلدك أن هنري دي نافار صديقك. وأنه تنازل لك عن العرش عن طيب خاطر؟ أؤكد لك أنه أراد أن يضرب عصفورين بحجر واحد.

وأمتقع وجه الدوق.. وسأل:

– ماذا تعنين ياسيدتي؟

فقالت وعلى شفتيها تلك الإبتسامة المعنوية الخالدة:

– ألم أقل تلك يا بني إنك أحمق؟! كن على يقين من أن ثلاثين ألف مقاتل على الأقل على استعداد لشد أزر هنري عند أول إشارة يبديها. وهو إنما يتمسح بأخيك شارل ريثما تحين الفرصة المناسبة لتنفيذ أغراضه. وأخوك من السذاجة بحيث ينخدع بذلك الإخلاص المزيف. ويعمى عن الحقيقة الناصعة وهي أن هنري يضمر له شرًا.

– إنك على حق يا أماه. فإن شارل يحب هنري كل الحب وقد طلب إليه بالأمس أن يطالع المؤلفات التي كتبت في طريقة الصيد بالصقر وقد سألني هنري أمس إن كنت أملك مؤلفات في هذا الموضوع؟

فسألت كاترين في لهفة:

– وبم أجبته؟

– قلت إنني سأبحث له في مكتبي.

– حسنًا.! يجب أن يحصل على هذا الكتاب، وسأقدم إليه واحدًا

بإسمك. فهل أنت على استعداد لأن تطيعني في كل ما آمرك به حتى أخلصك من هذا اللعين؟

فابتسم الدوق.. وأجاب:

– نعم يا أماه!

– حسنًا. تعال إلي في صباح اليوم المحدد للصيد، وسأعطيك الكتاب المنشود لتأخذه إلى ذلك الشيطان.

فأحنى فرانسوا قامته موافقًا! وانصرف عائدًا إلى غرفته.

* * *

وكانت مرجريت قد تلقت رسالة للملك هنري من دي موي بواسطة دي لامول ففضتها وقرأتها. فأدركت أن محتوياتها على غاية الأهمية.. وأسرعت إلى جناح زوجها. وقدمت إليه الرسالة. فقرأ فيها ما يلي:

"مولاي – لقد حان وقت الفرار. فلن يمضي أسبوع حتى يعلن الملك عن رغبته في الصيد على ضفاف السين من سان جرمين إلى ماسون بحذاء الغابة. فhذهب مع الذاهبين، وتسلح بالقميص الفولاذي وحسامك الطويل.. وامتط أقوى جواد في حظائرك..

وعند الظهر عندما يكون الصيد على أشده.. أنفصل عن الجماعة مع جلالة الملكة مرجريت، وأنطلق إلى كوخ فرانسوا الأول حيث سيكون في إنتظارك خمسون من رجالنا الأمناء.

وعليكما أن تعبرا طريق دي فيليت، وستجدني في الانتظار عند نهايته.. كما ستجد مسيو دي لامول ومسيو كوكوناس عند منعطف ذلك الممر ومعهما جوادان قويان لإبدال جواديكما إذا كانا متعبين.

وإلى اللقاء يا مولاي"

* * *

قالت مرجريت: والآن أرجو أن تتبع هذه التعليمات لتقدم إلي عرشًا!

فتلاعبت على شفتي هنري إبتسامة خفيفة.. وقبل زوجته لأول مرة.. ثم تقدم من الباب وفتحه ليتأكد من عدم وجود من يسترق السمع.. ولكن لشد ما كانت دهشته حين رأى باب غرفة دالنسون يفتح فجأة، ويظهر الدوق على عتبته.وأشار هنري إلى زوجته. فأسرعت بالإختفاء في غرفة جانبية.

وفي اللحظة التالية دخل الدوق إلى غرفة هنري. وأجال حوله بصرًا فاحصًا.. ثم قال:

– لقد أفتضح أمرنا يا هنري.

– وكيف ذلك؟

- إنهم قبضوا على دي موي.. فاعترف للملك بكل شيء.

– حقًا!

– نعم. وأضاف إنني أطمع في عرش نافار، ولذلك تآمرت للحصول عليه.

فصاح هنري:

– يا للعين! إذن فقد تراضيتما يا عزيزي الدوق!

– ولعله من الغريب أن يوافق الملك على إتمام هذه المهزلة فيعرض على العرش. ولكني بالطبع لم أقل شيئًا، فإني أفضل البقاء حيث أنا.

فبدرت من هنري حركة تدل على الإبتهاج.. ولم يخف ذلك على الدوق.. فسأل:

– وماذا ستفعل أنت؟

– أنا؟ إني لا أطمع في شيء.. بيد أنني سأكون حيث تكون. إن هربت تبعتك، وأن بقيت قنعت بالبقاء.

– حسنًا. على رسلك.

وغادر الدوق الغرفة على الأثر.. فخرجت مرجريت من مخبأها . وسأل هنرى:

– ما رأيك في هذه الزيارة؟

– رأيي أن هناك شيئًا جديدًا هامًا.. وسأعمل على معرفة ذلك الشيء.. فتعال إلى جناحي مساء الغد لأطلعك على النتيجة.

ومضت خمسة أيام على هذه الحوادث.. واستيقظ دالنسون في

الساعة الرابعة من صباح اليوم السادس، وهو اليوم المحدد للصيد.وانطلق إلى جناح أمه.. ولم يكد يدخل غرفتها حتى برزت كاترين من غرفة معملها الكيميائي. ويداها ملطختان ببقع حمراء.

وبدأ الدوق حديثه مع أمه قائلًا : إن هنري رفض بشدة أن يرحل إلى نافار.

فهزت كاترين رأسها في سخرية. وقالت:

– ولكني أؤكد لك أنه سيرحل. فقد حدثني طبيب ماهر – وهو الطبيب الذي أعطاني هذا الكتاب والذي ستقدمه أنت لملك نافار – أقول أن ذلك الطبيب أكد لي أن هنرى سيصاب قريبًا بالسل الرئوي.. وهو كما تعلم مرض غير قابل للشفاء.. فإذا كان من المقدر أن يموت فالأجدر أن يموت بعيدًا عنا.. ولما كنت أعلم يقينًا أنه قد أعد اليوم عدته للهرب، وأن خمسين فارسًا ينتظرونه في غاب سان جرمين، فإنه إذن سيموت بعد هروبه.

– وهل سترافقه مرجريت؟

- نعم.. ولكنها ستعود إلى البلاط على أثر وفاة هنري.

- وهل أنت واثقة من موته؟

- هذا ما أكده إلى الطبيب.

وقدمت إلى ابنها كتابًا نادرًا عن صيد الصقر. فرمقه الدوق بنظرة ملؤها الذعر. وقالت كاترين:

– أعطه لهنري. وينبغي أن تقدمه إليه قبل الرحيل.

فانتفض الدوق. وصاح:

– ولكني لا أجسر على ذلك!

– ولماذا! إنه كتاب ككل كتاب آخر، وإنما يختلف في أنه ظل مدة طويلة مهمَلا فألتصقت صفحاته ببعضها.. فلا تحاول أن تقرأه، لأنه لن يتيسر لك قراءته دون أن تبلل أصبعك بلسانك وفي ذلك مضيعة للوقت.

وهز الدوق رأسه.. كان قد أدرك مرمى أمه .ودس الكتاب في طيات ثوبه، ثم هرول إلى غرفة هنري. ولشد ما كانت دهشته حين رأى كل ما في الغرفة يدل على رغبة صاحبها في هجرانها.

غمغم: – إذن فأمي على حق وهو يخدعني.

وجعله ذلك الخاطر يستمد من ضعفه قوة. فأخرج الكتاب من تحت ردائه ووضعه فوق المنضدة.. ثم فتح أول صفحة.. وخلع قفازه وألقاه في المدفأة فاحترق.

ثم انطلق إلى غرفته.. وفيما كان يغلق بابها سمع وقع خطوات ترتقي الدرج. فأدرك أن غريمه عائد إلى غرفته.

وشعر كأن يدًا فولاذية تضغط قلبه.. حين سمع هنري وهو يصفر بشفتيه لحنًا شجيًا.. وأعقب ذلك فتح باب وإغلاقه. وكأنما لم يستطع الدوق إحتمال الموقف أكثر من ذلك. فغادر غرفته وأنطلق إلى جناح أخيه الملك شارل.

وكان شارل جالسًا في مكتبه وهو يطالع كتابًا وظهره إلى الباب.. وسمعه الدوق وهو يقول:

– يا له من كتاب مدهش! حقًا.. لم يكن يدور بخلدي أن في فرنسا مثل هذا الكتاب النادر!

وأرهف دالنسون السمع. واستطرد الملك وهو يبلل أصبعه بلعابه:

– ألا لعنة الله على هذه الصفحات. يخيل كأنها ألصقت إلصاقًا.

وقفز دالنسون إلى الأمام.

كان شارل يطالع نفس الكتاب الذي وضعه الدوق في غرفة هنري منذ عدة دقائق. وأفلتت من بين شفتي الدوق صرخة ذعر وهلع.

وتحول إليه الملك.. وصاح:

– أهذا أنت يا فرانسوا؟

وخيل إلى الدوق أن يختطف الكتاب من يد أخيه. ولكن فكرة جهنمية جعلته يعدل عن رأيه.. قال:

– مولاي كيف حصلت على هذا الكتاب؟

– لقد ذهبت إلى غرفة هنري لأرى أن كان قد تأهب للرحيل فوجدت هذا الكنز الثمين فجئت به لأقرأه.

وعاد الملك يقلب صفحات الكتاب وهو يبلل أصبعه بلعابه في كل مرة.

وقف شعر رأس دالنسون وغمغم:

– يا للشيطان! لقد ذاق شارل السم خمسًا وعشرين مرة! إنه هالك لا محالة.

ومسح العرق البارد الذي تصبب فوق جبهته.. ثم انتظر في سكون حتى أتم الملك قراءة الفصل الأول.

* * *

تحول الملك إلى أخيه متسائلًا.. فقال الدوق:

– أخي.. إني جئت لأتحدث إلى جلالتكم عن مؤامرة خطيرة وقفت عليها صدفة.

فأجهم وجه شارل. وصاح:

– ماذا؟ ألا تكفون عن اتهام هاري المسكين؟

لقد بلغني أنه أعد عدته للفرار أثناء الصيد.. سينتهز فرصة ويهرب عن طريق الغاب بمساعدة أعوانه المعتصمين به وإني ما جئت إلا لأحذر جلالتكم فتتخذوا من الاحتياطات ما يكفل إحباط المؤامرة.

كان الدوق قد حزم أمره على الوشاية بهنري حتى يزج به في الباستيل. وكان قراره هذا. وليد ساعته. فهو عندما رأى شارل يلعق السم أدرك أن عرش فرنسا لابد أنه سيخلو عما قريب. ومن الجنون أن يغادر باريس وهنري فيها.

* * *

قال الملك:

– حسنًا إني سأصدقك هذه المرة أيضًا ولكنها ستكون الأخيرة.

ونادي مسيو دي نانسي وأصدر إليه بعض الأوامر .وكان كلب الملك المحبوب «أكيثون» قد أنتهز الفرصة فأنقض على الكتاب الثمين. وجذبه بأسنانه فتمزقت إحدى صفحاته.

ورآه شارل.. فأنهال عليه بسوطه. ثم تناول الكتاب ووضعه في دولابه.. وأغلق عليه بالمفتاح.

* * *

وهبط الملك إلى الساحة، وhقترب من ملك نافار. ونظر إليه شذرًا وقال:

– مالي أراك تعتلي ظهر جواد قوي كأنما أنت مقدم على سباق الخيل؟

ولم ينتظر إجابة هنري. بل تحول إلى الباقين وأمر بالرحيل.

وفي الطريق حدث هنري مرجريت بشكوكه عن نوايا شارل فقالت الملكة:

– أكبر الظن أنه مطلع على كل شيء. فكن على حذر.

– لا تخشى شيئًا فإني أحتطت للطوارئ.

وكانت كاترين تطل من وراء إحدى الستائر وقت رحيلهم.. ولم تلبث

أن غمغمته. وهي ترفع قبضتها مهددة لن يفلت من يدي هذه المرة. وأسرعت إلى غرفة هنري تبحث عن الكتاب المسموم تجد له أثرًا.

قالت لنفسها:

– يخيل إلي أنه وضعه في دولابه. سحقًا.

ثم عادت إلى جناحها وهي مطمئنة إلى نجاح خطتها. وعندما وصل الركب إلى غاب سان جرمين، أمر الملك بالبدء في الصيد مباشرة. وانطلق بجواده خلف صقر كان يتجول في الغاب شامخًا متخايلًا.

وفجأة جذب شارل عنان جواده. وصرخ صرخة حادة رجعت صداها أرجاء الغاب، وأفلت العنان من يده. ثم مال فوق سرجه وهو يتألم.

وهرع إليه رفاقه. ولكنه كان قد تمالك قواه. وقال:

- لا شيء. فقط شعرت كأن قضيبًا محميا يمزق أحشائي!

ثم أستأنف الصيد. وأصفر وجه دالنسون .وسأل هنري زوجته:

– ما خطبه؟

– لست أدري. ولكن ألم تر كيف كان وجهه مصطبغًا بحمرة قاتمة؟!

فقال هنري:

– يخيل إلي أنه مريض.

وحاول شارل أن يترجل عن جواده. ولكنه اضطر أن يقبض على السرج خشية السقوط..

فهتفت مرجريت في ذعر:

– أخي ماذا دهاك؟

فأجاب شارل:

– إني أشعر بألم شديد في حلقي.. ويخيل إلى أن أنفاسي قد تحولت إلى هواء ساخن ملتهب.

وتجمعت الحاشية حول الملك. فصاح منتهرًا:

- ما هذا؟ ولماذا توقفتم عن الصيد؟ ليس بي من شيء.

واندفع الجميع يبحثون عن صقر جديد. ورأى هنري أن الفرصة سانحة. فتباطأ مع زوجته حتى غاب الجميع عن أنظارهما.

الفصل الرابع والثلاثون

كان هنالك رجلان يتواريان في بقعة فسيحة عند منعطف طريق دي فيوليت. وكان أحد الرجلين يضع أذنه فوق الأرض.. ويرهف السمع. بينما لزم الآخر الصمت. لم يكن هذان الرجلان سوى دي لامول وكوكوناس.

* * *

ومضت لحظات.. وفجأة سمع الشابان وقع حوافر جواد سريع. فقفزا واقفين. وتأهبا لإمتطاء جواديهما .وبرزت من بين الأشجار إمرأة تمتطي جوادًا تسابق به الريح. وأشارت إلى الشابين بيدها.. دون أن تتوقف أو تتمهل ولم تلبث أن اختفت بين الأشجار.

فصاح دي لامول:

– إنها الملكة.. وهي تطلب إلينا الانتظار.

- بل تحثنا على الفرار.

وفجاة برزت شرذمة من الفرسان من بين الأشجار وسلكت الطرق التي سلكتها الملكة من قبل.

صاح كوكوناس:

– إنهم بروتستانتيون. وهم يسارعون بالفرار، لابد أن في الأمر شيئًا.

وما إن أتم جملته حتى ظهر دي موي فجأة. وصاح بالشابين:

– بادرا بالفرار! فقد افتضح كل شيء.

ثم لكز جواده في بطنه.. وانطلق لا يلوي على شيء .وصاح كوكوناس:

– هلم بنا.

فهز دي لامول رأسه نفيًا وقال:

– كلا.. بل اهرب أنت. وأما أنا فسأنتظر ريثما أعرف ماذا حدث للملكة؟

وأعقبت ذلك مناقشة حادة بين الصديقين.. استطاع كوكوناس في نهايتها أن يقنع صديقه بضرورة الهروب.

وعندما تحولا إلى جواديهما، سمعا صوتًا يقول بلهجة الأمر:

– قفا وسلما نفسيكما.

ثم برزت شرذمة من فرسان الحرس الملكي من خلف الأشجار. وأحاطت بالشابين.. همس كوكوناس:

– هل رأيت نتيجة إصرارك؟

وتحول إلى رئيس الجنود.. وسأل:

– إننا نسلم أنفسنا دون مقاومة. إليكم حسامي.. ولكن أرجو أولًا أن تطلعونا على سبب القبض.

فقال الضابط:

– هذا ما سيخبركما به دوق دالنسون..

فتبادل الأسيران نظرة تدل على عدم الإرتياح.. إذ أدركا أنهما وقعا في قبضة عدوهما المشترك.

وسيق الشابان إلى كوخ فرانسوا الأول.

* * *

كان زعماء الهيجونوت قد اجتمعوا في الكوخ كالمتفق عليه بينهم وبين هنري دي نافار. ومبالغة منهم في الحرص وزعوا بعض رجالهم في الغاب ليرقبوا تطورات الحالة.. ولما كان دوق دالنسون قد طلب إلى الملك أن يصدر أوامره إلى مسيو دي نانسي بتفتيش الغاب.. فقد قبض الحراس على هؤلاء الرجال دون مقاومة.. وارتاب دي موي في الأمر وزاد إرتيابه عندما رأى بعض رجال الحرس يضربون نطاقًا حوله..

أدرك أن المؤامرة افتضحت.. فألقى بقبعته ثلاث مرات وهي العلامة المتفق عليها بينه وبين أتباعه في حالة الفشل ثم سارع بالفرار..

وقطن شارل إلى غياب هنري دي نافار.. وزوجته.. فصاح غاضبًا:

– أني لا أرى هنري ولا مرجريت.. أين هما؟

فصاحت دوقة نيفرز وهي تشير بيدها إلى الطريق المؤدي إلى النهر:

– ها هما قادمان.

وتحولت الأنظار إلى حيث أشارت "هنريت" فرأوا هنري وزوجته يتقدمان نحوهم. باديي الهدوء والغبطة.. ومعهما صقر اقتنصاه.

وفي اللحظة التالية برزت ثلة الجنود التي أسرت دي لا مول وكوكوناس.

* * *

وامتقع وجه دالنسون، وأدرك أن تدبيره قد ذهب أدراج الرياح.كان يرجو أن يتمكن الجنود من القبض على هنري أثناء محاولته الفرار، فيصدق في اتهامه له عند أخيه الملك فيشفع له صدقه في إعفائه من قبول عرش نافار.

وأما شارل فتهللت أسارير وجهه. وامتلأ قلبه أملًا في أن يتمكن صديقه هنري من دحض المفتريات التي وجهها إليه دالنسون.

وشعر شارل في تلك اللحظة بألم حاد في جنبه. فصرخ صرخة حادة جاء هنري على أثرها، فرمقه شارل شذرًا. وسأل في لهجة صارمة أفزعت مرجريت:

– من أين أنت قادم؟ ولماذا كنت تتجول في الغاب بدل الإنضمام إلي؟

فأجاب هنري في لهجة بريئة:

–كنت في أثر صقر يا مولاي.. وقد تمكنا من اقتناصه.

وأشار هنري إلى خادم كان معه. فتقدم من الملك، وعرض عليه صقرًا جميل المنظر.

وهز شارل رأسه. ثم سأل:

– وهؤلاء السادة. أصدقاؤك الهيجونوت. ما الذي دعاهم للتجوال في الغاب. والاختفاء داخل الكوخ في ذلك اليوم بالذات؟

فقال هنري ببساطة:

– يحتمل أنهم قدموا بناء على دعوة دوق دالنسون يا مولاي.

فصاح الدوق في ذعر:

– أنا!

فأردف هنري:

– نعم يا عزيزي! ألم تناد بنفسك أمس ملكًا على نافار؟ ثم أليس من الطبيعي أن يتجمهر هؤلاء الهيجونوت ليقدموا لك شكرهم وخضوعهم على قبولك التاج. وشكر الملك الذي وافق على اختيارك؟

وتحول إلى الأسرى. وسأل: أليس كذلك أيها السادة؟

فصاحوا جميعًا في صوت واحد:

– نعم.. نعم.. يحيا الدوق دالنسون.. يحيا الملك شارل!

وتملك الغضب الدوق. فأبيض وجهه وصاح بصوت مختنق:

– إني لست ملك الهيجونوت. ولا أريد أن أكون كذلك.

وزاد به الإنفعال فزمجر قائلًا:

– أدعوا مسيو دي موي ليقرر الحقيقة أمام جلالة الملك.

ولكنهم لم يعثروا لدي موي على أثر.. فأحس دالنسون كأن سيفًا حادًا يمزق قلبه لهذه الهزيمة غير المتوقعة.

وكانت مرجريت قد أبصرت بدي لامول وكوكوناس بين الواقفين، فخطر لها أن تستعين بذكائهما لإنقاذ الموقف. فتحولت إلى أخيها شارل وقالت:

– مولاي هذان الرجلان في خدمة الدوق.. فسلهما لعلهما يستطيعان حسم الموقف.

وشعر الدوق باللطمة. ولكنه صاح على عجل:

- إني أمرت بالقبض عليهما خصيصًا لأدلل على أنهما ليسا في خدمتي.

وراح شارل ينتقل ببصره بين الصديقين، ثم hنتفض حين وقع بصره على دي لامول .وسأل:

– ماذا كنتما تفعلان وقت إلقاء القبض عليكما؟

فأحني كوكوناس قامته في hحترام.. وأجاب:

– كنا ننظم خطتنا للحب والحرب يا مولاي! ولكنهم أخذونا على غرة.. فلم نجد بدًا من التسليم. ولو أنه كان في استطاعتنا أن نهرب ولكنا لم نجد ما يدعونا لذلك.. فأثرنا المجيء للاطلاع على الحقيقة.

فدعا الملك مسيو دي ناسي. فقرر هذا ما يطابق أقوال كوكوناس. بدا التفكير على وجه شارل وأخيرًا تحول إلى هنري. وقال:

- هنري.. عدني ألا تهرب.

- إذن عد إلى باريس مع مسيو دي نانسي، وألزم غرفتك.. واعتبر نفسك مقبوضًا عليك.

ثم تحول إلى الشابين. وقال:

– أما أنتما فسلما سيفيكما.

فألقى دي لامول ببصره إلى مرجريت. فابتسمت له. وعندئذ سلم حسامه. وأردف الملك:

– والآن.. هلموا بنا إلى باريس أيها السادة. فإني أشعر بقشعريرة شديدة.

ثم مال إلى الخلف. وكاد يسقط عن جواده. لو لم يخف بعض الحاضرين إلى مساعدته على الترجل.وفقد وعيه.. فذعر الجميع. وانتابهم القلق ومددوه فوق لوح من الخشب ثم غطوه بمعطف سميك ثم حملوه عائدين إلى باريس. وعند وصول الركب إلى اللوفر.. نهض الملك من فوق المحفة وأنطلق إلى غرفته في خطى متثاقلة.

وألقى بنفسه فوق أحد المقاعد. ثم أرسل في طلب الملك هنري.

وفجأة. وبينما كان شارل يعاني ما يشبه سكرات الموت فتح باب الغرفة ونفذ منه هنري دي نافار.

قال: مولاي.. إنك أرسلت في طلبي.. فهأنذا.

وما سمع شارل ذلك الصوت المحبوب حتى رفع رأسه في حزن وقال:

– آه، أنت جئت يا عزيزي هنري. إذن أجبني بربك هل صحيح هذا الاتهام الذي يوجهه إليك الدوق دالنسون؟

– إنه صحيح إلى حد ما يا مولاي. فقد كان المتفق عليه أن يهرب الدوق وأنا برفقته..

– ولماذا تريد أن تهرب يا هنري. ألست راضيًا عن وجودك بقربي؟

– كلا يا مولاي.. وأشهد الله على ما أقول.

- إذن لماذا فكرت في الفرار؟

– إنني لم أفكر فيه رغبة في الإبتعاد عن جلالتكم وإنما للإبتعاد عن دوق دالنسون والملكة الوالدة.

فبدت إمارات التفكير على وجه الملك. واستطرد هنري:

– مولاي إني أريد أن ألقي على جلالتكم سؤالًا واحدًا، وأرجو أن تتنازلوا بالإجابة عليه.

فرفع شارل حاجبيه في دهشة، وسأل هنري:

– مولاي. هل تهمكم حياتي؟

- بغير شك يا عزيزي هاري.

– إذن أعلم يا مولاي إني نجوت مرتين من الموت بأعجوبة.. ومن

عجب حقًا أن أكون مدينًا بحياتي في إحدى المحاولتين لرينيه صانع العطور.

فازدادت دهشة شارل.. وساد الصمت قليلًا ثم قال هنري:

– إني واثق أن حب جلالتكم لشخصي هو ما يحمل أعدائي على الرغبة في التنكيل بي ولهذا فإني أتوسل إليك أن تستبقيني لا كصديق بل كعدو.

– ماذا؟ أتريد أن تكون سجيني؟

– لست أعني ذلك بالضبط يا مولاي.. إنما أعني أن تتظاهروا جلالتكم بكراهيتي.. وتعهدوا إلى مسيو دي نانسي مثلًا بحمايتي. وبذلك فقط أستطيع أن آمن على حياتي.

فصاح شارل مناديًا على رئيس الحرس.. فلما أقبل. قال له:

– مسيو دي نانسي، إني أعهد إليك بالسهر على أكبر رجل مجرم في المملكة.. وأنت مسئول عنه بحياتك.

فأحنى الضابط قامته إحترامًا.. وأشار إلى هنري أن يتبعه..

وبقي شارل وحيدًا. فخطر له أن ينادي كلبه الأمين ليؤنس وحدته ريثما يأتي الطبيب.. وتذكر أنه ترك الحيوان المسكين في غرفة مكتبته فنهض متثاقلًا وأنطلق إلى المكتبة.. ولكنه لم يكد يتقدم خطوتين داخل المكتبة حتى جمد في مكانه كالتمثال.

رأى جثة كلبه الأمين (أكيثون) ممددة فوق الأرض ثارت ثائرته،

ولكنه كبح جماح غضبه. إذ خطر له أن في الأمر خيانة، وركع أمام الكلب وراح يفحص الجثة بعين خبيرة. فرأى اللسان مدلي إلى الخارج وقد شوهته بثور حمراء عديدة.

أرتجف شارل لمرآي هذه البثور. فأخرج قفازه وارتداه، ثم ضغط فمي الكلب، ففتح فمه وأخذ يفحص أسنانه، ولشده ما كانت دهشته عندما رأى قصاصات صغيرة من الورق عالقة بالأسنان..

وقف شعر رأس شارل حين أدرك أن هذه القصاصات إن هي إلا أجزاء من الصفحة التي مزقها الكلب من كتاب الصيد الثمين، وأصفر لونه.. وصاح في يأس:

– يا للشيطان! إن الكتاب مسموم. وأنا لمست كل صفحة من صفحاته.. وقد وصل السم إلى فمي مع كل صفحة. يا لله هذا الأغماء.! وتلك النوبات. إنني رجل هالك.

وقفز واقفًا على قدميه وقد جحظت عيناه من الرعب.. واندفع إلى الباب وأمر الخدم باستدعاء رينيه في الحال.

قال لنفسة:

– آه.. لابد أن أعرف من الذي أعطى هذا الكتاب اللعين لهنري ولو اضطررت لتعذيب الجميع.

وبعد عشر دقائق وصل رينيه. واستقبله شارل بوجه عابس متجهم يدل على حالة نفسية سيئة.

وأشار الملك إلى جثة كلبه.. وقال:

- أنظر إلى فم هذا الكلب، وأخبرني ما سبب موته.

فركع صانع العطور بجوار الكلب.. وفتح فمة في حذر، وأنتزع قصاصة ورق من بين الأسنان، فتفجر الدم كالينبوع.

ورفع رينيه رأسه.. وقال:

– مولاي.. إن هذا الكلب مات مسمومًا. وسأفتح بطنه الآن لأحدد لجلالتكم نوع السم الذي قضى عليه.

وبضربة واحدة بالمبضع شق رينيه بطن الكلب.. ثم مال فوقها.. ونظر إلى الأحشاء مليًا. ولم يلبث أن قال:

– مولاي.. إنه مات بسم معدني.. فهل لدى جلالتكم أية فكرة عن الطريقة التي أنتقل بها هذا السم إلى الكلب؟

فتقدم شارل من الدولاب بخطى مضطربة، وفتحه، وأخرج الكتاب، ثم قدمه إلى رينيه.. وقال:

– لقد مزق ورقة من هذا الكتاب وأكلها.

فأصفر وجه رينيه.. ومزق ورقة أخرى من الكتاب وأدناها من الشمعدان فاحترقت.. وتصاعدت منها رائحة نفاذة تشبه رائحة الثوم.

وهز رينيه رأسه في حزن.. وقال:

- إنه مسمم بأكسيد معدني قوي.

فسأل الملك في لهفة:

– وما ترياقه؟

– بياض (البيض) ولكن يجب أن يؤخذ بعد تعاطي السم مباشرة، وإلا تمكن السم من الجسم وقضى عليه ببطء.

ومال شارل فوق المائدة.. وصاح وهو ينظر إلى رينيه شذرًا:

– هل تعرف هذا الكتاب؟

فأصفر وجه رينيه. وهتف:

– أنا يا مولاي؟

– نعم.. أصغ إلي يا رجل.. وأصغ بإنتباه.. إنك سممت ملكة نافار السابقة بواسطة قفاز أرسلته إليها كاترين دي مدسيس. كما سممت الأمير بورسيان بدخان مصباح.. وحاولت أن تسمم أمير كونديه بتفاحة نادرة.. فإذا لم تخبرني بإسم صاحب هذا الكتاب فإني أقسم أن أمزقك شر ممزق.

وأدرك صانع العطور أنه لا مفر من التصريح بالحقيقة فقال:

– إن هذا الكتاب كتابي.. وقد أخذته جلالة الملكة الوالدة من منزلي.

فصاح شارل في فزع: أمي؟!

– نعم يا مولاي.. وقد قالت لي أنها ترغب في تقديمه لملك نافار لأنه طلب كتابًا مماثلًا من دوق دالنسون.

وفاجأت الملكة نوبة حادة من الألم. فسعل، وأبيضت شفتاه.. ولكنه أسرع وجرع قدحًا من الماء. وقال وهو يقدم الكتاب إلى رينيه:

– أكتب ما سأمليه عليك فوق أول صفحة.

فتردد رينيه. وأستحثه الملك، فأخذ القلم. وأملاه شارل ما يأتي:

"أعطيت هذا الكتاب إلى جلالة الملكة كاترين دي مدسيس.. رينيه"

ونظر رينيه إلى الملك في فزع. فقال هذا:

- لا تخش شيئًا أني أعدك بحمايتي.

الفصل الخامس والثلاثون

سيق هنري دي نافار إلى قلعة (فنسن) بناء على أمر شارل وقد أستقبله جنديان عند باب القلعة. وأقبل مسيو بولييه مديرها وحيا الملك باحترام ثم قال: مولاي.. أرجو المعذرة.. إني أستقبلت سجينين قبل مجيء جلالتكم بدقائق.

– ترى من يكون هذان السجينان؟

- إن أحدهما يدعى دي لامول والآخر كوكوناس.

فتنهد هنري.. وطلب أن يساق إلى غرفته، فانطلق به الحاكم إلى غرفة رقم ٢ في الطابق الأول.

* * *

وكان كوكوناس يدور في غرفته كالأسد السجين عند زيادة الحاكم. ولم يكد يسمح المفتاح يدور في قفل الباب حتى توقف في سيره. ودخل الحاكم وطلب إليه تسليم ما معه. فقدم إليه الشاب خاتمًا كانت مدام نيفرز قد أهدته إليه ليذكره بلون عينيها.

وحياه الحاكم في إحترام ثم أنطلق إلى غرفة دي لامول. فوجده مكتئبًا حزينًا. ففعل معه مثلما فعل مع صديقه. بيد أنه لاحظ أن الشاب أدار ظهره فجأة. وجذب سلسلة كانت معلقة حول عنقه. وتنتهي بإطار به صورة. كانت صورة مرجريت.

ثم رآه يقبل الصورة.. ويتظاهر بإفلاتها من يده لتسقط فوق الأرض ويسحقها بقدمه. فطمس معالمها.

فزمجر المدير. وتوعده بإبلاغ أمره إلى الملك. ثم غادر الغرفة.

* * *

وعاد الحارس بعد قليل. وقال لدي لامول:

– سيدي. إني أشكرك على المائة كرون التي وهبتها لي. فإذا شئت مقابلة صديقك. فهلم إليه.

* * *

وتعانق الصديقان. وسأل دي لامول:

– هل لديك أية فكرة عما حدث؟ وعمن كان السبب في سجننا؟

– إنه ذلك اللعين دون دالنسون. وبودي لو أستطيع تحطيم جمجمته.

– وهل تعتقد أن مركزنا حرج؟

- كل الحرج يا صديقي ولكن لنتشجع.

- إني قررت أن ألزم الصمت التام.

– وأنا كذلك. ولو أدى الأمر إلى إعدامي.

وتصافح الصديقان تأكيدًا لإتفاقهما.

الفصل السادس والثلاثون

أحس شارل في صباح أحد الأيام بتحسن طفيف في صحته فأمر باستدعاء أفراد أسرته لزيارته. ولكنه لم يلبث أن شعر بنوبة حادة فصرفهم جميعًا.. بيد أن كاترين لم تشأ الانصراف. وبقيت مع ابنها.. وانكمش شارل حين رآها. وسأل في صوت متهدج:

– لماذا لم تذهبى معهم يا أماه؟

– لأني أريد أن أتحدث إليك عن أمر على غاية الأهمية.

فصاح شارل:

– تكلمي إذن يا سيدتي.

فأخرجت كاترين تمثالًا شمعيًا صغيرا قد وضع فوق رأسه تاج ملكي.. وقالت:

– إن الدكتور أمبرواز يقرر إنك مريض بالتهاب البريثون ولكنه مخطئ في تقديره.. أن مرضك مرجعة إلى هذا السحر.. أنظر إلى هذا التمثال الصغير.. وإلى التاج الموضوع فوق رأسه.. وإلى الإبرة المدفونة في قلبه، وأن الحرف.. إنه حرف (م).. الذي يعني الموت في عرف السحرة.

ففغر شارل فاه دهشة.. وقال:

– إنني لا أفهم ما تعنين يا أماه..

– يا بني.. لقد عثر المدعي العام على هذا التمثال في غرفة الرجل الذي كان ينتظر ملك نافار في غاب سان جرمين..

– دي لامول؟

– نعم.. إن دي لامول لجأ إلى السحر ليزيحك من طريق سيده هنري فيخلو له الجو إلى العرش.. إن هذا التمثال هو علة مرضك يا بني.. ولن تبرأ من علتك إلا بموت هذا الرجل..

فهز شارل رأسه ساخرًا.. وقال:

– أحقًا تقولين يا أماه؟

– نعم يا بني.. والآن ألا ترى استحقاق هذا الشخص للعقاب؟

– نعم يا أماه.. فأطمئني..

فضغطت كاترين يد أبنها.. ثم انطلقت من الغرفة لا تلوي على شيء.. وعندما صفق الباب خلف كاترين فتح الباب السري ودخلت مرجريت صاحت في ذعر:

– مولاي.. لا شك أنك تعرف أن أمي لم تذكر شيئًا من الحقيقة.. إنها كاذبة ملفقة..

وأخذ شارل وهتف: ماذا تعنين يا مرجريت؟

– إني كنت أسترق السمع. وأدركت الهدف الذي تسعى إليه..

فتجاهل شارل قول أخته. وقال:

– إني عهدت إلى مسيو بولييه بحماية زوجك في قلعة (فنسن) وهددته بالموت إن أصاب هنري مكروه.

– إني أشكرك يا أخي.. ولكن..

– ولكن ماذا؟

- إني أريد أن أسألك عن شخص اتهمته أمي ظلمًا وعدوانًا..

– ومن هذا الشخص؟

– لست أجرؤ على ذكر أسمه.

– أتعنين مسيو دي لامول؟

فقالت مرجريت في مرارة:

– نعم يا مولاي.. هو بعينه.

– أحقًا تقولين؟.. إذن ما رأيك في التمثال الذي عثر عليه المدعي العمومي في منزله؟..

– يا أخي لو أنك أمعنت النظر قليلًا في التمثال لعرفت أنه تمثال إمرأة وليس تمثال رجل.. إن دي لامول لم يتوسل بهذا التمثال إلا لكي يكون محبوبًا من المرأة التي يحبها.

– وما اسم هذه المرأة..

فغضت مرجريت بصرها.. وانهمرت الدموع من عينيها وهتفت:

– إن اسمها مرجريت.

– صه. صه يا مرجريت فقد تسمعك أمك..

– وماذا في ذلك؟ إني أدافع عن رجل بريء..

- وأنا أعرف أنه رجل بريء.. بل أعرف أن أمي سعت إلى قتله بالسم..

فأفلتت شفتا مرجريت صيحة ذعر.. فأشار إليها شارل بالتزام الصمت.. ثم قص عليها قصة الكتاب المسموم.. وختم حديثه قائلًا:

– ولكني لا أريد إظهار الحقيقة إبقاء على سمعة العائلة.. فليعتقد الناس أني مت بفعل السحر.. وليكن حبيبك الضحية.. فإن موته ينقذ شرف العائلة المالكة.

وسقط رأس مرجريت فوق صدرها.. وغادرت الغرفة في خطى متثاقلة ولكنها حزمت أمرها على إنقاذ حبيبها مهما كلفها الأمر..

وفي المساء أرسلت كاترين الرسالة الآتية إلى المدعي العمومي:

حضرة المدعي العمومي..

"بلغني الليلة أن مسيو دي لامول يحتفظ بأوراق ورسائل تدل على إشتراكه في مؤامرة خطيرة.. فأرجو أن تتصل برئيس المحكمة وتطلعه على قصة التمثال الشمعي الذي صنع خصيصًا لقتل الملك بواسطة السحر .."

كاترين.

الفصل السابع والثلاثون

كان دي لامول وصديقه كوكوناس قد اتفقا على نفي كل تهمة توجه إليهما فيما يتعلق بإشتراكهما في التآمر مع ملك نافار. ففي صباح اليوم التالي لمقابلة مرجريت لأخيها شارل سيق كوكوناس إلى غرفة فسيحة جلس فيها المدعي العمومي.. وأثنان من القضاة.. ووجه القاضي تهمة التآمر على عرش فرنسا إلى كوكوناس فنفاها الشاب بلهجة قاطعة.. فلم يتشدد المحقق في السؤال.. وإنما تحول بالتحقيق إلى ناحية غير متوقعة..

وقد دهش كوكوناس حين سأله القاضي عن زيارته لمنزل رينيه صانع العطور مع دي لامول.. والتمثال الشمعي الذي صنع بناء على طلب صديقه.. وخيل للشاب أن التحقيق تطور إلى ناحية تبشر بالخير فاعترف بالزيارة..

وجاء دور دي لامول.. فسيق إلى المحكمة.. وسئل عن زيارته لرينيه فاعترف بها، وقال إنه طلب إلى صانع العطور أن يصنع له تمثالًا لإمرأة فقدم إليه رينيه هذا التمثال.. وعندما سئل إذا كان الغرض من صنع التمثال هو التوسل إلى موت رجل.. أجاب نفيًا.. وقال إنه كان يريد السيطرة على قلب إمرأة يحبها.. وأخذ القضاة وسقط في أيديهم..

ودخل أحد الحراس في تلك اللحظة.. وقدم للمدعي رسالة فنشرها وقرأ:

"إذا أنكر المتهم فتوسلوا إلى إعترافه بالتعذيب.. ك"

ووضع المدعي الرسالة في جيبه وابتسم لدي لامول.. ثم صرفه.. ولم يكد الشاب يستقر في غرفته، حتى رأى ورقة صغيرة تنفذ من أسفل الباب.. فأسرع وألتقطها: " تشجع فإني ساهرة عليك"..

وبدرت من شفتي الشاب صيحة فرح.. وقبل الرسالة وهتف:

– آه.. شكرًا لله.. لقد نجوت..

* * *

وهناك في منزل شارع كلوش برسييه كانت مرجريت جالسة فوق أحد المقاعد والدموع تنهمر من عينيها.. ووجهها ممتقع.. وفجأة فتح الباب.. ونفذت منه دوقة دي نيفرز..

وبادرت الدوقة صديقتها قائلة:

– إني أحمل إليك أخبارًا سيئة. فإن كاترين تتعجل المحاكمة..

– ورينيه؟..

– ألقي القبض عليه..

– وماذا حدث لسجيننا العزيزين؟

– قال لي السجان أنهما يتقابلان يوميًا.. وقد أستجوبا اليوم عن فرار ملك نافار.. ولكنهما لزما الصمت التام.

– وهل أعددت الخطة التي hتفقنا عليها؟

– نعم.. وأتفقت مع حاكم السجن والسجان على كل شيء ودفعت لهما ثلثمائة ألف فرنك..

- وما الخطة التي أتفقتم عليها؟..

– أتفقنا على أن أختبئ أنا وأنت في الكنيسة الملحقة بالقلعة وسيضع بولييه خنجرين تحت غطاء المذبح.. وعندما يقود الحارس الأسيرين إلى الكنيسة للصلاة قبل تنفيذ حكم الإعدام فيهما.. ينقض كوكوناس على الحارس ويطعنه بخنجر من الخنجرين.. فيتظاهر الرجل بإصابته أصابة بالغة ويهوي إلى الأرض.. وعندئذ نظهر نحن ونقدم إلى كل من الأسيرين معطفًا.. ثم نقودهما من باب الكنيسة إلى الخارج حيث نضع تحت تصرفها جوادين كريمين.. فينطلقان بهما إلى لورين.

الفصل الثامن والثلاثون

دقت ساعة قلعة فنسن سبع دقات.. وجلس كوكوناس يلتهم طعام العشاء في صمت، حتى أتى عليه أو كاد. خيل إليه أنه يسمع وقع أقدام كثيرة تهرول امام غرفة دي لامول وعجب للأمر.. وجلس ينتظر على مضض.. ومضت ساعة.. وهو نهب القلق والحيرة، فنهض واقفًا وراح يتمشى في غرفته كالمجنون.. وهو يسائل نفسه عما حدث لصديقه..

وفجأة.. فتح باب الغرفة ونفذ إليها أربعة حراس وضابط وأمره الضابط بأن يتبع الحراس وحاول الشاب أن يستفسر عن معنى هذا، فلم يظفر بغير الصمت..

وقاد الحراس الأسير إلى قاعة فسيحة.. وكان أول ما وقع عليه بصره عددًا كبيرًا من الرجال يجلسون في صفوف متوازية، بينما لمح رجلًا عاري الذراعين يقف في ركن معتم من أركان القاعة..

وبدأ الذعر يدب في قلب الشاب.. ولكنه تشجع وغالب ضعفه.. وتقدم إلى الداخل، فرأى صديقه دي لامول جالسًا على مقعد بالقرب من القضاة والمحلفين..

وبعد أن سأله رئيس المحكمة عن hسمه وبلده وعمره قال:

– حسنًا. والآن أخبرني لماذا تركت خدمة دوق دالنسون؟

– لأنضم إلى صديقي دي لامول بعد ما تبينت الباعث له على ترك خدمة الدوق..

– وماذا كنت تفعل حين قبض عليك يوم أن كان الملك يصيد في الغاب؟

– كنت أصيد مثله..

- لعلك تذكر أن الملك أصيب بمرض مفاجئ خطر خلال الصيد..

فصاح كوكوناس في دهشة:

– إني لا أعرف شيئًا من ذلك بل إني لم أعرف بمرضه هذا إلا الآن..

فتبادل القضاة والمحلفون نظرة تدل على عدم التصديق.. وسأل القاضي:

– حسنًا.. إذن حدثنا بما تعرفه عن التمثال الشمعي الصغير..

– ماذا؟.. ألم تنته بعد من قصة هذا التمثال؟

– كلا فهل لك أن تخبرنا كيف أصبح هذا التمثال في حوزة مسيو دي مول؟

– مسيو دي مول؟ أظنك تعني (مسيو رينيه)؟

– وإذن فأنت تعترف بوجود هذا التمثال؟

وقدم الرئيس التمثال إلى الشاب، فقال كوكوناس:

- نعم.. هذا هو التمثال بعينه..

فتحول الرئيس إلى سكرتير الجلسة وأمره أن يثبت في التحقيق أن كوكوناس تعرف على التمثال الذي كان في حوزة دي لامول.. ولكن الشاب قفز واقفًا وصاح:

– إني لم أقرر أنه كان في حوزة مسيو دي لامول ولكني أقرر أن صانع العطور قدم لصديقي هذا التمثال عندما طلب إليه أن يفعل شيئًا من شأنه أن يدفع إمرأة معينة إلى حبه..

وللمرة الثانية تحول الرئيس إلى السكرتير وقال:

– أكتب أنهما ذهبا ليسألا رينيه عن طلسم يفضي إلى موت الملك..

فصاح كوكوناس في صوت له جلجلة الرعد:

– موت الملك لا شك أن هذه تهمة وضيعة.. إن التمثال تمثال إمرأة..

وحاول دي لامول أن يتكلم فمنعه الرئيس..

– أنت تقول إنه لإمرأة.. فهل لك أن تذكر أسمها؟

وهنا لم يأبه دي لامول بتحذير الرئيس. وقال:

– إنها إمرأة من بلدتي.. وأنا أحبها.. وأريدها على أن تحبني..

فقال المدعي العمومي لأحد الخدم:

– ناد مسيو رينيه..

ودخل رينيه.. وكان مصفر الوجه، بادي الإضطراب. حتى لقد أخذ دي لامول وصديقه لما رأياه من تغير سحنة الرجل..

سأل القاضي:

- هل تعرف المتهمين يا مسيو رينيه؟

فأجاب في صوت متهدج:

- نعم. إنهما زاراني مرة في منزلي.

- ولم زاراك؟

فبدا التردد على وجهه.. وأدرك خطورة الكلمات التي يوشك على النطق بها، وأخيرًا قال:

- لصنع تمثال شمعي صغير..

وهم كوكوناس بالكلام، ولكن الرئيس أمره بإلتزام الصمت.. ثم تحول إلى رينيه وسأله:

- هل كان التمثال الرجل أم إمرأة؟..

- لرجل..

وقفز كوكوناس واقفًا كأنما أنقضت على رأسه صاعقة وصاح:

- يا لك من كذاب أشر..

وسأل الرئيس:

– حسنًا..

فقال رينيه:

– وطلبًا إلى صنع تمثال يمثل ملكًا.. ففعلت فأمراني بأن أستعين بالسحر على موت ملك معين.. فدفنت إبرة في قلب التمثال إشارة إلى موت الملك الحقيقي بطعنة حسام أو خنجر..

فهز القضاة والمحلفون رؤوسهم.. وشكر الرئيس صانع العطور ثم تحول إلى الحراس وأمرهم بإعادة السجينين إلى غرفتيهما..

وحاول كوكوناس الإعتراض فجذبه الحراس بقوة.. وأما دي لامول فمشي أمام حراسه في استسلام وقنوط..

وحينئذ أشار المدعي العام إلى ذلك الرجل عاري الذراعين الذي كان يقف في الركن المظلم.. وقال له:

– لا تغادر القلعة فسنحتاج إليك..

فسأل الرجل في إحترام: وبأيهما أبدأ يا سيدي؟

– بدي لامول..

وعندما أنفرد كوكوناس بنفسه في غرفته، بدأ اليأس يتسرب إلى قلبه، وبدأ يشك في نجاح الخطة التي وضعتها مرجريت وصديقتها هنريت لإنقاذهما..وفيما هو غارق في تفكيره، شقت السكون صرخة ثاقبة خيل إليه أنها صادرة من وحش ضار.. وأنتفض كوكوناس.. وأحس بالذعر

يتمشى في أوصاله. وتكررت الصرخة.. فأحس بشعر رأسه يقف في جذوره.

كان الصوت صوت دي لامول.. وتملكه الجنون.. وأندفع نحو الباب وهو يصيح:

- إنهم يقتلون صديقي..

وفجأة.. فتح باب الغرفة ونفذ منه ضابط أمر الشاب بأن يتبعه إلى قاعة المحكمة ليسمع الحكم.. وأطاع كوكوناس صاغرًا، فلما وصل إلى القلعة رأى ستارًا كثيفًا مسدلًا في منتصف الغرفة..

ودفع الضابط (كوكوناس) إلى ما وراء الستار.. فأقشعر بدنه.. وصار صائح بلهجة الأمر:

- أركع على ركبتيك يا مسيو كوكوناس.. وأسمع الحكم.

وقبل أن يجد الشاب وقتًا للتفكير، أمتدت إليه يدان.. وجذبتاه بعنف فركع.. واستطرد المتكلم:

"حكمت المحكمة المنعقدة بقلعة فنسن على مارك أنيبال دي كوكوناس المتهم بالخيانة العظمى، وبمحاولة تسميم الملك بواسطة السحر، وبالتآمر على سلامة المملكة، بالإعدام ومصادرة أملاكه"..

وسكت القاضي لحظة ثم أردف: على أن يساق المحكوم عليه إلى غرفة التعذيب قبل تنفيذ الحكم..

فقفز كوكوناس واقفًا.. وشرر الغضب يتطاير من عينيه.

وصاح في صوت داو:

– ولماذا تأخذونني إلى غرفة التعذيب.

فهز القاضي كتفيه.. واستمر في القراءة:

- لإرغام المدعو كوكوناس على الاعتراف بأسماء شركائه.

وتوقف القاضي عن القراءة، وأشار بيده إشارة معينة.. فأطبقت أياد عدة على الشاب، وشدته إلى آلة التعذيب.

وقال القاضي: تهيأ للكتابة يا جريفييه..

ثم تحول إلى كوكوناس.. وسأل:

– هل ستعترف؟

- كلا..

فتقدم كابوش على الأثر وفي يده حبل غليظ.. وعرف الجلاد مريضه القديم.. ولكنه ظل جامدًا كالصخر. ووضع كابوش لوحين سميكين من الخشب بين ساقي الشاب كما وضع أثنين آخرين خارج كل ساق، ثم ربط الجميع بالحبل الغليظ.

وتبت كابوش (أسفينًا) بين الألواح.. ورفع مطرقة مخيفة في الهواء..

سأل القاضي: هل تعترف؟

وشعر كوكوناس بالعرق يتصبب على جبينه.. ولكنه قال في إصرار:

- كلا..

- إذن أبدأ عملك أيها الجلاد.

وهوى كابوش بالمطرقة على الإسفين.. ولكن كوكوناس لم يصرخ بل ولم يتأوه.

ومال كابوش نحو كوكوناس، كأنما ليستجمع قواه.. وهمس في أذنه:

- أصرخ بصوت ثاقب..

وعجب كوكوناس للأمر.. ولكنه نزل على رغبة الجلاد فما إن هوت المطرقة فوق (الإسفين) حتى صرخ كوكوناس صرخة رائعة أرتجت لها جدران القلعة..

- هل ستعترف؟

ومال كابوش ثانية فوق أذنه.. وهمس:

- اعترف.. قل أي شيء..

فقال الشاب يحدث القاضي:

- آه.. إنك تريد أن تعرف بأمر من كنت معه في الغابة؟

- نعم.

- بأمر الدوق دالنسون..

فأمر القاضي (جريفييه) بتدوين إعترافه..

استطرد الشاب:

– وإطاعة لأوامر سيدي، نصبت الفخ لملك نافار..

وبدأ يسرد على القاضي ما كان من أمر زيارات الدوق دالنسون لهنري ملك نافار.. ومقابلات دي موي للدوق.. وقصة المعطف الأحمر..

وكانت كل كلمة نطق بها اتهامًا قاطعًا للدوق. حتى ذعر القاضي، وأدرك أن هذا الإعتراف سيؤدي حتمًا إلى إتهام الدوق بالخيانة العظمى.. ثم غادر القاضي الغرفة مع سكرتيره.. وبقي الجلاد وحيدًا مع كوكوناس..

سأل كابوش:

– كيف حالك الآن يا سيدي؟..

– على خير حال يا كابوش.. إني أشكرك..

– لو إنهم عرفوا ماذا فعلت من أجلك.. لما انقضى وقت طويل حتى أقف موقفك.. وحينئذ لا أجد من يضع أسفينا من الجلد بدل أسفين الخشب..

– يا الله.. ولكن كيف عرفت بأنني..

فقال كابوش وهو يخرج ضمادات ملوثة بالدم من حول ساقي الشاب:

– سأطلعك على كل شيء. إنني سمعت بأمر القبض عليك وأن الملكة كاترين تريد موتك.. وأستنتجت إنهم لابد سيعذبونك لتعترف.. فرسمت خطتي تبعًا لذلك.

– أفعلت كل هذا من أجل..

– نعم، فأنت الشخص الوحيد الذي قبل أن يصافحني فأردت أن أرد إليك جميلك مضاعفًا..

والآن.. يجب على أن أرفعك من آلة التعذيب إلى النقالة التي ستأخذك إلى الكنيسة، فلا تنس أن قدميك مهشمتان وأن أية حركة تسبب لك ألمًا عظيمًا.

* * *

وعبر الموكب الصامت قنطرتي القلعة، ثم انطلق إلى الكنيسة..

وحاول كوكوناس أن يتبين شيئًا مما حوله، ولكن الظلام كان دامسًا فركض قلبه بين ضلوعه وأدرك أن كل شئ سيساعده وصديقه على الهرب.. وكان أول ما وقع عليه بصره في الكنيسة شيئًا مكومًا وملفوفًا في معطف أبيض

كبير.. ولم يكن هذا الشيء غير الكونت دي لامول.. كان ممتقع الوجه، ورأسه مستندًا إلى الجدار الرخامي وشعره الأسود مبللاً بالعرق..

وأمر كوكوناس الحراس أن يذهبوا للبحث عن قسيس..كانت تلك هي العلامة المتفق عليها.. فلم يكد الحراس يغادرون الكنيسة، حتى اندفعت إمرأتان من خلف المذبح.. وتقدمتا نحو الشابين.

* * *

وأمسكت مرجريت بذراع دي لامول، فصرخ الشاب صرخه مؤلمة تردد صداها في أرجاء الكنيسة.. فسألت في ذعر:

– يا لله؟ ماذا يؤلمك يا عزيزي لامول؟ أواه.. إن جسمك غارق في الدم..

وتوقف كوكوناس في تقدمه نحو المذبح فجأة، واستدار على عقبيه ونظر إلى الملكة وصديقتها في ذهول..

أستطردت مرجريت:

– هلم.. أنهض.. أضرع إليك أن تنهض. ألا ترى أن اللحظة قد حانت؟

وتلاعبت إبتسامه حزينة على شفتي دي لامول، وقال:

– يا مليكتي.. يخيل إلى أنك لم تحسبي حساب كاترين لقد أمرت بتعذيبي، فهشموا عظامي حتى أصبح جسمي كتلة من اللحم والدم.. وكل حركة أقوم بها تقتضيني آلاما هائلة أسوأ من الموت..

فصرخ كوكوناس في ذعر وعاد أدراجه وركع بجانب صديقه ثم قال له مشجعًا:

– هيا يا صديقي العزيز.. إني قوي وسأحملك، هلم بنا فإن حياتنا في خطر..

فقال دى لامول:

– بل اهرب أنت يا صديقي.. فقد كفاك كابوش مئونة التعذيب.. وأما أنا فقد كتب على أن أموت. فأتركوني بالله عليكم وأذهبوا قبل أن تتقطع بكم أسباب النجاة.. الوداع.. الوداع..

وما إن أتم كلامه حتى ترنحت مرجريت.. وسقطت على ركبتيها بجواز دي لامول، ثم أحاطته بذراعيها وقبلته في جبينه.. وحاولت دوقة دي نيفرز أن تدفع كوكوناس إلى الخارج، ولكن الشاب تخلص من قبضتها.. وعاد إلى صديقه فجلس إلى جانبه.. وقال:

– يا صديقي لقد عشنا معًا.. فلنمت معًا..

ومد يده إلى رأس دي لامول.. ووضعه فوق صدره في رفق كما تفعل أم رؤوم بطفلها الرضيع.. وهرول السجان إلى الداخل في تلك اللحظة. وصاح محذرًا: – إنهم قادمون.. أسرعوا.

وأفلتت شفتا مرجريت صرخه ذعر، وركعت أمام حبيبها وطبعت قبلة على شفتيه والدموع تنهمر من عينيها..

وقبلت هنري جبين كوكوناس وقالت:

يا عزيزي أنيبال: إني فخورة بك وببسالتك. وثق إنك ستكون أول وآخر حبيب..

وانطلقت المرأتان إلى الخارج، ودموع الأسى تنحدر من أعينهما..

* * *

وعندما بزغت شمس اليوم التالي كانت مركبة السجن المكشوفة تقل كوكوناس الذي جلس فوق كومة من القش وصديقه الذي تمدد وأستند إلى فخذ صديقه.. وعند ساحة لاجريف توقفت المركبة.. وأخذ دي لامول ينتقل ببصره في النوافذ المطلة على الساحة. وتبعه كوكوناس بعينيه.. وعند نافذة معينة أشار الشاب وقال:

– أنظر هناك.. ها هما..

فهتف دى لامول في إرتياح:

– آه. لقد كنت أخشى أن أموت دون أن أراها.. أما الآن فإني سعيد..

وحيا كوكوناس المرأتين بإحناء قامته. ثم عانق صديقه. وبدأ الجلاد مهمته. ونظر دي لامول إلى النافذة للمرة الأخيرة وهتف:

– الوداع يا مرجريت..

وبتر الجلاد الجملة في حلق الشاب، وسقط ذلك الرأس الجميل يتدحرج عند قدمي كوكوناس. ومد كوكوناس يده لكابوش مصافحًا، ثم قال:

– شكرًا لك يا صديقي..

ورفع كوكوناس رأس صديقه بين يديه وقبلها قبلة الوداع ثم جثا فوق ركبتيه وتحول إلى كابوش وقال:

– هيا..

ولم تكد الكلمة تغادر شفتيه حتى انفصل رأسه عن جسده.

الفصل التاسع والثلاثون

وفي اليوم التالي قصدت مرجريت ودوقة دي نيفرز إلى بيت الجلاد كابوش.. وتسلمتا منه رأسي صديقيهما بين دموع الأسى والحزن العميق، وعادتا بهما إلى منزليهما.. وبذلك وفتا بعهدهما وحققتا الوعد الذي قطعتاه على نفسيهما لصديقيهما الراحلين..

* * *

ومضت عدة أيام، وانتقل شارل وحاشيته إلى قصر فتسن بناء على مشورة الأطباء.. وحدث أن فاجأته عقب وصوله مباشرة نوبة من الألم. فأندفعت مربيته من الغرفة وهي تصرخ في طلب النجدة. وفتح باب غرفة الملك فجأة، ودلفت منه كاترين دي مدسيس

وكان شارل ممددًا فوق الفراش، ووجهة مبللاً بعرق له لون الدم وعيناه مقفلتين، وصدره يعلو ويهبط في حركات غير منتظمة.. ولم يكد يسمع وقع أقدام أمه حتى فتح عينيه وصاح:

– معذرة يا أماه. أرجو أن تدعيني أموت بسلام.

فصاحت كاترين: إني أريد أن أتحدث إليك في أمر غاية الخطورة، فأرجو أن تسمح لي بعشر دقائق على إنفراد..

فصاح شارل:

– وإني لن أصغى إلي حديثك إلا إذا حضره أخي.

– حسنًا ليكن لك ما تريد..

وبعد لحظات أقبل دالنسون.. ولكن شارل أشار إلى المربية بالتمهل..

وقال:

– قلت إني أريد أن يحضر أخي الحديث..

فأتقدت عينا كاترين ببريق الغضب، واستطرد الملك:

– إني أريد أن أتحدث إلى أخي هنري دي نافار..

فزمجرت كاترين، وصاحت:

– يالله؟ ما معنى هذا يا سيدي إني أمك ولي الحق في معارضتك، فأنا لا أوافق على ذلك..

– وأنا ما زلت ملكًا وفي استطاعتي أن آمر فتطاع أوامري إني أريد هنري لأسلمه أمر الوصاية على العرش..

ولو أن صاعقة أنقضت عند قدمي كاترين لما كان لها مثل الأثر الذي أحدثته هذه الكلمات عن نفسها. وكأنما أراد شارل أن يسيطر على الموقف، فدفع إلى أمه بمفتاح صغير، وطلب إليها أن تفتح حقيبة كبيرة كانت موضوعية على مقربة من الفراش.. وأخذت كاترين ولكنها أطاعت، ولم تكد تفتح الحقيبة حتى أرتدت إلى الخلف منذعرة وأفلتت من شفتيها صرخة فزع..

هتف شارل:

– ماذا دهاك يا سيدتي؟

– لا شيء.. لا شيء..

– إذن أبحثي في الحقيبة عن كتاب لصيد الصقر، وأحمليه إليّ

وأخرجت كاترين الكتاب وهي مصفرة الوجه، بادية الإضطراب والجزع..

قال شارل: سيدتي.. لعلك تعلمين أن المصيبة التي حلت بى كانت بسبب هذا الكتاب. ولكني لا أريد نبش الماضي المؤلم.. بل وأرجو أن نتمكن من قبره إلى الأبد.. فتكرمي بإلقاء هذا الكتاب في الموقد..

فنفذت كاترين ما أمرها به وهى تنظر إلى الكتاب نظرات حزينة ذاهلة..

وصاح شارل في لهجة صارمة:

– والآن.. نادي أخي هنري

وسقط رأس كاترين فوق صدرها، وغادرت الغرفة وهي تحترق غيظًا.. غمغمت في غيظ:

– لعنة الله عليه.. لقد أنتصر على طول الخط.

كان هنري دي نافار يطل من شرفة سجنه.. ويلقي ببصره نحو عاصمة فرنسا.. وتنهد وراح يجول ببصره في أرجاء الوادي الفسيح في نظرة

شاردة ذاهلة.. وانتفض، وخيل إليه أنه يرى في بطن الوادي فارسًا يلوح له بمنديله. ولم يكن هذا الفارس غير دي موي الذي أسرع مع أتباعه إلى فنسن عندما سمع بإحتضار الملك شارل للدفاع عن سيده وملكه هنري دي نافار..

وأسرع هنري بإخراج منديله.. ولوح به في الهواء ردًا على إشارة دي موي.. ولم يلبث أن رأى عددًا كبيرًا من الفرسان يظهرون فجأة وينضمون إلى دي موي.. ويلوحون بمناديلهم كذلك في الهواء.. وفجأة سمع وقع أقدام تسير في الدهليز.. فأسرع بالعودة إلى غرفته.. وأختفى الفرسان جميعًا في لمح البصر..

ونفذت كاترين دي مدسيس إلى الغرفة وجلست فوق أحد المقاعد الحجرية ريثما تلتقط أنفاسها.. ثم قالت:

– إني جئت لأبرهن لك على تقديري وحبي لشخصك.. وإن الملك يطلب مقابلتك..

– نعم، فهو يعتقد إنك غير مقتنع بعرش نافار وإنما تسعى للحصول على عرش فرنسا أيضًا..

– هذا زعم خاطئ بغير شك يا مولاتي..

– إني أعرف ذلك.. ولكن الملك يعتقد في صحة الإشاعة ولذلك نصب لك شركًا..

– إذن ماذا سيعرض علي؟

– من يدري. ربما عرض عليك شيئًا مستحيلاً..

– ولكن أليست لديك أية فكرة عن الموضوع؟

فتظاهرت كاترين بالتفكير.. ثم قالت:

– لنفرض مثلاً إنه عرض عليك الوصاية على العرش.. فشاع الرضا في وجه هنري.. ولكنه توجس خيفة.. إذ هل من المعقول أن يعرض عليه الملك شارل الوصاية على العرش وكاترين دي مدسيس ودوق دالنسون ما زالا على قيد الحياة؟

سألت كاترين: – أظنك سترفض؟

فقال هنري:

– مولاتي.. إني لا أستطيع أن أعدك بشيء قبل مقابلة الملك.

فصرفت كاترين بأسنانها غضبًا.. ولكنها أدركت من لهجه هنري، ألا فائدة من الحديث معه، فأشارت إليه أن يتبعها.. وعندما وصلا إلى ساحة القلعة، رأى هنري فرقة من فرسان الحرس السويسري ومركبة فاخرة في إنتظاره..

وأنطلقت المركبة إلى القصر.. وعندما هبطا منها أستوقفته كاترين وقالت:

– أنظر.. إن لهذه الساحة باب.. أحدهما يؤدي إل جناح الملك والآخر يؤدي إلى الوادي، فإذا رفضت الوصاية فستجد جوادًا معدًا لك

عند الباب الثاني.. ويمكنك عند ذلك أن تنطلق به لتستمتع بالحياة وبالحرية.. أما إذا قبلت الوصاية..

فهز هنري كتفيه إستخفافًا وقال:

– مولاتي.. إني لا أستطيع أن أقرر شيئًا قبلما أقابل الملك..

فتحسست كاترين موضع خنجرها.. وصاحت:

– إذن أدخل.

وأدرك هنري ما تنطوي عليه نظرة كاترين من الغدر والخيانة، فقال:

مولاتي.. إني ما زلت فردًا من أفراد الشعب.. فأرجو أن تتقدميني..

* * *

وما إن وقع بصر شارل على هنري حتى بدرت من شفتيه صيحة فرح وإطمئنان.

هتف:

– تعال هنا يا هاري.. كم تألمت من أجلك، ولكني كنت مجبرًا على إبقائك في السجن، فمعذرة، وتصافح الملكان بحرارة.

ووساد الصمت قليلاً، وأخيرًا قال شارل:

– يا صديقي إني أشعر بدنو الأجل، ومن واجبي أن أعمل على إقتلاع الفتنة من جذورها بعد وفاتي.. ولكن لن يتيسر ذلك إلا بالقضاء على المتعصبين والنساء..

نطق شارل بهذه الكلمات في همس:

– ولكن خيل هنري أنه يسمع زمجرة من وراء الباب.

واستطرد شارل:

– إني أريدك وصيًا على العرش حتى يعود أخي دانجو من بولندا، ولو أني واثق أنه لن يعود..

فزادت ضربات قلب هنري.. وهتف:

– ولم لن يعود يا مولاي؟.. ألم تكتب إليه الملكة الوالدة؟

– نعم.. ولكن مسيو دي نانسي استطاع القبض على الرسول قبل رحيله، كما إني أرسلت إلى وأرسو مطالبًا بإحاطة دانجو بمراقبة دقيقة وعلى هذا فسيظل العرش شاغرًا.

وساد الصمت مرة أخرى.. وخيل لهنري إنه يسمع زفرة مكتومة صادرة من خلف الباب.. واستطرد الملك:

– أتذكر ذلك الطفل أبن ماري توشيه؟ عدني بحمايته ممن يكيدون له..

فأغرورقت عينا هنري بالدموع.. وأقسم<

وسحب الملك غلافًا أنيقًا من تحت الوسادة وقدمه إلى هنري قائلاً:

– هذا هو المرسوم الخاص بتعيينك وصيًا على العرش ريثما يعود دانجو وهو كما قلت لك لن يعود.. فأنا إذن أهبك العرش.

– العرش؟

– نعم، فإن أحدًا غيرك لا يصلح له.. فدالنسون خائن ومن الأوفق أن تودعه أحد السجون.. وستحاول أمي أن تقتلك فأنفها.. وأما إذا حاول دانجو المجيء إلى فرنسا فأقتله دون رحمة أو شفقة..

وأخذ هنري المرسوم.. وقبل يد الملك في خضوع. ونادى شارل مربيته، وأمرها بإستدعاء أمه والدوق دالنسون..

وجاءت كاترين وابنها معًا، وكانت كاترين قد استرقت السمع وألمت بالحديث الذي دار بين الملكين. وقد أحاطت به ابنها دالنسون قبل دخولهما الغرفة، ووقف هنري عند رأس الملك، وبدأ شارل حديثه قائلاً :

– سيدتي لو كان لي ولد لصار ملكًا بعدي.. ولأصبحت أنت وصية عليه.. ولكني لم أنجب ولدًا. وبهذا أصبح العرش من حق دانجو. ودانجو غائب، وكان الواجب يقضي بأن يحل دوق دالنسون أو أنت محله ريثما يعود.. ولكني لا أرغب في أن أسبب لك ألماً في تفضيل أحد الأخوين. ولهذا عهدت إلى هنري دي نافار بالوصاية على العرش حتى يعود دانجو..

وبحركة شبه عسكرية حيا شارل هنري دي نافار.. بينما أحنت كاترين ودالنسون قامتهما له وهما ينتفضان من الغضب..

وغادرت كاترين بين الغرفة وهي تصيح:

– كلا.. كلا.. هذا مستحيل لن يحكم بوربوني فرنسا وفيها من عائلة فالوا من هو على قيد الحياة..

فصاح شارل:

– نانسي.. نانسي .. أقبض على أمي وأخي

وانفجر الدم من أنفه وفمه.. ودخل دي نانسي ولم يكن سمع أمر الملك بالقبض على كاترين وأبنها.. صاح هنري:

– أغلق الباب يا مسيو دي نانسي ولا تسمح لأحد بالدخول..

وعندما انصرف الضابط. غمغم هنري:

– يا الله.. أحقًا سأحكم؟ وسأعيش؟

فقال قائل: ستعيش يا مولاي

وفتح باب سري، وظهر وجه رينيه الممتقع. ودهش هنري وقال:

– ماذا؟ إذن فقد كذبت نبوءتك.

– كلا يا مولاي.. إنك ستحكم ولكن الوقت لم يحن بعد.

– ولكن كيف أتفق إنك عرفت بوجودي هنا؟

– أصغ لي يا مولاي. إن كاترين أرسلتني لأقتلك.. ولكني لن أفعل ذلك لأني أعتقد أنه قدر لك أن تصبح ملكًا لفرنسا في يوم من الأيام.

– هل هذه رسالة كاترين؟

– كلا يا مولاي.. وأقسم على ذلك، ولكي أبرهن على إخلاصي سأطلعك على سر خطير، وهو أن ملك بولندا سيصل إلى اللوفر بعد ساعات قلائل.

– أنت مخطئ يا رينيه، فقد استطاع دي نانسي أن يقبض على الرسول قبل سفره..

– يا مولاي.. إن كاترين لا تقهر. إنها أرسلت رسلاً ثلاثة سلكوا طرقًا مختلفة..

– يا الله.. إني إذن من الهالكين.

– كلا يا مولاي.. هل ترى هذا الباب السري، إنه يؤدي إلى الساحة الخلفية للقصر. فإذا سلكته hستطعت الفرار دون مشقة..

فمال هنري فوق شارل وقبل جبهته.. ووضع المرسوم في جيبه ثم أنطلق في الممر السري.. ووصل إلى الساحة، وهناك وجد جوادًا معدًا فأمتطاه وأنطلق به كالسهم نحو دي موي وأتباعه..

ورآه الحراس فصاحوا:

– ها هو ملك نافار.. إنه يهرب.

فصاحت كاترين:

– أطلقوا عليه النار.. أطلقوا عليه النار

فصوب الحراس بنادقهم نحو هنري، وأطلقوها ولكنهم أخطأوه.. وفي اللحظة التالية غاب عن عيونهم..

وأقبل أربعة فرسان من الناحية المضادة.. وأنطلقوا بجيادهم في الساحة كالمجانين، وترجل أحدهم.. وتقدم من كاترين فصاحت الملكة في فرح:

– دانجو.. ولدي.. شكرًا لله.

وبرز دي نانسي في شرفة غرفة الملك، وأطل على الساحة فتحولت إليه جميع الأنظار K كان يحمل صولجان الملك الميت في يده.. فحطمه إلى نصفين وصاح: لقد مات الملك شارل التاسع..

وكرر قوله ثلاث مرات فرسمت كاترين علامة الصليب فوق صدرها.. وقالت له:

– لقد مات الملك شارل التاسع، فليحفظ الله الملك هنري الثالث..

وردد الجميع إلا دالنسون.. هتافها.

الخاتمة

مضى عام على الحوادث السابقة.. وساد الهدوء والسلام باريس وطابت نفس كاترين بهذا الإنتصار الباهر. وعاد هنري دي نافار إلى بيارن وعاش هناك مع زوجته وسط الجبال والمناظر الطبيعية الخلابة.. وحدث ذات ليلة أن دخل أحد الخدم على كاترين وأعلنها بأن بالباب رجلاً يلتمس مقابلتها..

ونفذت كاترين إلى مكتبتها، وهناك وجدت مورفيل في إنتظارها.. بادرها قائلاً:

– إن ملك نافار هنا يا مولاتي..

فصاحت: هنري هنا؟ ترى ماذا يفعل هذا المجنون في باريس؟

– أكبر الظن إنه جاء لمقابلة عشيقته مدام دي سوف.

– ولكن كيف عرفت أنه هنا؟

– إني رأيته أمس يدخل أحد المنازل.. ثم جاءت على أثره مدام دي سوف. فأنتظرت حتى غادرا المنزل وتعقبت الملك إلى أن نزل النجم الجميل حيث كان يقيم الساحرات اللذان أعدما منذ عام بأمرك..

فبدا التفكير على وجه كاترين.. ثم قالت:

– أجلس وأكتب ما سأمليه عليك..

فأطاع مورفيل.. وأملته كاترين ما يلي:

"عندما يكون البارون دي سوف قائمًا بعمله، تجتمع زوجته بصديق لها في منزل بالقرب من شارع بيتي شان.. وسوف يستطيع البارون أن يستدل على هذا المنزل بعلامة الصليب الحمراء المرسومة فوق بابه."

وقالت كاترين: خذ هذه الرسالة وأعمل على إيصالها للدوق.

– لست أفهم ما تعنين يا مولاتي.

فهزت كاترين كتفيها إستخفافًا. وقالت:

– ألا تعتقد أن الزوج يثور لكرامته إذا تلقى مثل هذه الرسالة؟

– ولكنه لم يثر سابقًا يا مولاتي..

إن الفرق واضح بين الأمس واليوم، وسكتت قليلاً ثم أردفت:

– وعليك أن تأخذ ستة من رجالك.. وتذهبوا مقنعين إلى المنزل الذي يلتقي فيه العاشقان.. وتقتحموه عليهما.. وتقتلوهما.. بإسم البارون.. فأحنى مورفيل قامته.. وانصرف.

وفي تلك الأثناء ألتقت مدام دي سوف يعشيقها هنري دي نافار في منزل شارع بيتي شان..

سأل هنري:

– هل تعقبك أحد؟

فقالت شارلوت:

– كلا.. لا أعتقد ذلك..

– وأما أنا فواثق أن أحدهم تعقبني أمس واليوم..

– يا الله.. إنك تخيفني يا مولاي

– لا تخشي شيئًا فإن دي مون وأثنين من رجاله يحرسون الدار.. ومهما يكن الأمر فليس هناك غير ساعات قلائل نقضيها معًا.. ومن ثم أمضي إلى بيارن.

* * *

كان المتفق عليه أن يغادر هنري المنزل عند منتصف الليل، ويرافق – هو وأتباعه – مدام دي سوف إلى اللوفر ثم ينطلقون عائدين إلى بيارن . وانقضت ساعة ودي مري وزميلاه قائمان بالحراسة.. وفجأة، رأوا رجلاً يدنو من باب المنزل.. ويحاول فتحه بمفتاح معه.. وبرز دي موي من مخبأه.. وانقض على الرجل وهو يصيح:

– ماذا تفعل يا هذا؟

وذعر الرجل.. وسقطت قبعته.. وصاح:

– دي موي!؟

فصاح البروتستانتي وهو يستل حسامه من غمده

– مورفيل! إني أبحث عنك يا قاتل أبي

كان مورفيل قد أخرج غدارته، وصوبها إلى الشاب. أطلق النار

ولكن دي موي أستطاع أن يتفادى المقذوف بقفزة سريعة.. ثم عاجل خصمه بطعنة قاسية في أحشائه.. وصرخ مورفيل صرخة ألقت الرعب في قلوب أعوانه.. وخشوا أن يكون قد قتل فولوا مدبرين

وأطلق دي موي صوتًا من حنجرته يشبه صيحات رعاة الأغنام في بيارن. وبلغت هذه الصيحة مسامع هنري.. فأسرع وقفز من إحدى النوافذ

ورأي هنري (دي موي) وهو يجد في أثر مورفيل، فاندفع خلقهما وحسامه في يده وأستطاع دي موي اللحاق بغريمه وصوب إليه طعنة قاتلة اخترقت صدره

قال هنري:

– هيا يا دي موي. فلم يعد لدينا من الوقت ما نضيعه

– لحظة واحدة يا مولاي ريثما أستعيد حسامي.

وكان مورفيل قد أستجمع البقية الباقية من قواه وأخرج غدارته، فلما تحول دي موي، رفع السفاك غدارته وأطلقها على الشاب فأراده قتيلاً..

وأندفع هنري نحو مورفيل، وأطاح رأسه بضربة من حسامه. وتلفت حوله، وحينئذ تهللت أساريره

هتف:

– أهذا أنت يا لاوربيه. أرجو أن تحمل دي موي إلى منزلك ولا تدخر وسعًا في إنقاذه من الموت لأني أشك إنه قضى نحبه.

وقدم إلة لاوربيه كيس نقوده. وهرول إلى منزل شارع بيتي شان.. وشد ما كانت دهشته وذعره، حين رأى جمهرة كبيرة أمام الباب..

سأل أحد الواقفين: ماذا حدث؟

فأجاب الرجل: لقد إنتقم أحدهم لشرفه؟

جن جنون هنري، واندفع إلى الغرفة وهو يشق طريقة بقوة منكبة. فرأى عشيقته ممددة فوق الفراش وهي تسبح في بركة من الدماء.

ركع بجانبها.. وغمغم: شارلوت.. شارلوت

ففتحت المرأة عينيها الجميلتين ونظرت إلى حبيبها نظرة شكر.. وهتفت:

– شكرا لله. إني كنت واثقة من مجيئك

وبمجهود جبار قبلته في جبينه.. ثم أضطجعت إلى الخلف وأسلمت الروح. وغادر هنري الغرفة بقلب حزين يائس.

الفهرس